

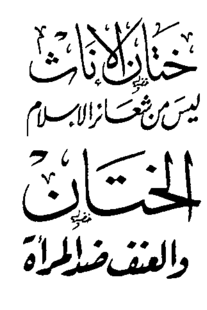
سلسلة العلوم الاجتماعية

الختان والعنف ضد المرأة

دكتور خالد منتصر

ختان الإناث ليس من شعائر الإسلام

وزارة الأوقاف


ختان الإناث
ليس من شعائر الإسلام
الختان
والعنف ضد المرأة



برعاية السيدة

سوزان مبارك

المشرف العام
د . ناصر الأنصارى

تصميم الغلاف
د . مدحت متولى

الإشراف الطباعى
محمود عبد المجيد

الإشراف الفنى
علـى أبو الخيـر
ماجدة عبد العليم
صبرى عبد الواحد

الجهات المشاركة
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافـة
وزارة الإعـلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشبـاب

التنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب

ختان الإناث

ليس من شعائر الإسلام

وزارة الأوقاف

الختان

والعنف ضد المرأة

دكتور خالد منتصر

تقديم

سناء البيسي

مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع
٢٠٠٧

لوحة للفنانة : مريم تاج الدين

كإضافة جديدة لمكتبة الأسرة قدمنا على غلاف كل كتاب لوحة تشكيلية لفنان مصرى معاصر من مختلف المدارس والأجيال وهذه اللوحات لا تعبر بالضرورة عن موضوع الكتاب.

وتتقدم مكتبة الأسرة بالشكر لقطاع الفنون التشكيلية بوزارة الثقافة ومتحف الفن المصرى الحديث على هذا التعاون.

منتصر، خالد.

الختان والعنف ضد المرأة/ خالد منتصر. ختان الإناث ليس من شعائر الإسلام/ وزارة الأوقاف.ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧.

٢٢٤ ص ؛ ٢٠سم. (مكتبة الأسرة ٢٠٠٧-علوم اجتماعية).

تدمك ٣ - ٩٦٩ - ٤١٩ -٩٧٧.

١- الختان.

أ - العنوان

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٩٦٠ / ٢٠٠٧

I.S.B.N 977- 419-969-3

ديوى ٦١٧,٤٦٣

توطئة

تعتبر القراءة منذ فجر التاريخ أول وأهم أدوات المعرفة، وعنصرًا لا غنى عنه من عناصر بناء الحضارة، فمنذ نقش حكيم مصرى قديم وصية لابنه على ورق البردى: «يا بنى ضع قلبك وراء كتبك، واحببها كما تحب أمك. فليس هناك شىء تعلو منزلته على الكتب»، ومذ أطلق د. طه حسين مقولته: «إن القراءة حق لكل إنسان، بل واجب محتوم على كل إنسان يريد أن يحيا حياة صالحة» ومذ كتب العقاد جملته الآسرة: «إنما أهوى القراءة؛ لأن عندى حياةً واحدةً فى هذه الدنيا، وحياة واحدة لا تكفينى»، ومذ قررت السيدة الفاضلة **سوزان مبارك** تحويل الحلم إلى واقع مؤكد منذ ستة عشر عامًا: «إن الحق فى المعرفة يتصدر أولويات العمل، ولا يقل عن الحقوق الصحية والاجتماعية»، ومسيرة القراءة للجميع تمضى بخطوات ثابتة وواسعة لتحقيق أهدافها فيلتف القراء حول أضخم مشروع نشر فى الوطن العربى، ويطالبون خلال السنوات السابقة باستمراره طوال العام، وها هو المشروع يقرر الاستمرار طوال العام بعد انتهاء فترة العطلة الصيفية ليتحقق شعاره بالفعل.. **القراءة للحياة**.

- لقد استطاعت **مكتبة الأسرة** خلال مسيرتها تمكين الشاب والمواطن من الاطلاع على الأعمال الأدبية والإبداعية والدينية والفكرية، التى شكلت وجدانه وحضارته، وعملت على إشاعة الأفكار

التنويرية الحقيقية، التى عكست جهود التنوير للشعب المصرى فى العصر الحديث، وحرصت على تقديم أحدث الإنجازات العلمية بنشر أحدث مؤلفات العلماء التى تواكب التطور العلمى والتكنولوجى فى العالم، وأقامت جسرًا مع الحضارات الأخرى من خلال إعادة طبع كلاسيكيات ودرر العالم المترجمة، التى تعرض إنجازات الشعوب الأخرى فى المجالات الأدبية والفكرية والعلمية، وعملت على تأكيد الهوية القومية من خلال نشر التراث المستنير العربى والإسلامى، الذى مَثّل نقطة انطلاق مضيئة فى مسيرة الإنسانية.

لقد أعادت **مكتبة الأسرة** للكتاب أهميته ومكانته كمصدر مهم وخالد من مصادر المعرفة، وأحدثت عبر عطائها المتميز وبنائها الدءوب الحقيقى صحوة ثقافية بالمجتمع المصرى تؤكدها المؤشرات العامة والأرقام، التى يتم رصدها وتحليلها منذ بداية المشروع، فالأرقام تسجل ارتفاعًا ملحوظًا فى نصيب المواطن المصرى من القراءة، وإصدار ملايين النسخ من الكتب ونفادها الفورى من الأسواق، وازدياد العناوين المطروحة عامًا بعد عام.

لقد بلغت عناوين **مكتبة الأسرة** أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة عنوان فيما يربو عن واحد وأربعين مليون نسخة، كنتاج فكرى وإبداعى لعدد من الكتّاب والمترجمين والرسامين يزيد عن ألفى مبدع ومفكر.

وما زالت **مكتبة الأسرة** التى أصبح لها فى كل بيت ركن مميز تواصل تقديم إصداراتها للعام الرابع عشر على التوالى، كرافد رئيسى من روافد القراءة للجميع، وصرح شامخ فى المكتبة العربية، يفتح نوافذ جديدة كل يوم على آفاق تنشر الخير والمعرفة والجمال والحق والسلام.

مكتبة الأسرة

تقديم

أخذت قضية الختان اهتمامًا كبيرًا نتيجة لتزايد عدد ضحاياها فى الآونة الأخيرة، وبما تتركه هذه العملية من آثار نفسية واجتماعية تعانى منها المرأة طوال حياتها، ولأهمية هذه القضية، وضرورة مناقشتها بطريقة عقلانية، ومعرفة رأى الدين والعلم فيها، فقد رأت مكتبة الأسرة أن تجمع كتابين مهمين يناقشان هذه القضية فى كتاب واحد تعميمًا للفائدة، حيث يضم الكتاب الأول الصادر عن وزارة الأوقاف مجموعة من الآراء والبيانات التى سجلها كبار العلماء مثل وزير الأوقاف، وشيخ الأزهر، وبيان مجمع البحوث الإسلامية وبيان دار الإفتاء المصرية بشأن ختان الإناث، وتوصيات مؤتمر العلماء العالمى نحو حظر انتهاك جسد المرأة، وأخيرًا قرار وزير الصحة والسكان بحظر الختان، ويناقش الكتاب الثانى المؤلف الدكتور خالد منتصر قضية العنف ضد المرأة فيبين أن العنف يأخذ أشكالا عديدة مثل العنف المعنوى والعنف البدنى، ويعتبر الختان قمة العنف المعنوى والبدنى لما يتركه من آثار سلبية بعيدة المدى، وهذه العملية - التى تمارسها بعض المجتمعات بدعوى منع الانحراف وتهذيب الرغبة والمحافظة على الشرف - ليست من شعائر الدين ولا هى عادة إسلامية.

ويؤكد دكتور خالد منتصر أن هناك دولا إسلامية كثيرة لا تقوم بإجراء ختان الإناث بينما تنتشر هذه العادة فى كثير من الدول الإفريقية على اختلاف دياناتها ومذاهبها، كما يؤكد أن الختان ليس عادة فرعونية، حيث يوجد فى النقوش من مظاهر التكريم والتقديس للمرأة ما يشكك فى مثل هذا الادعاء، ولكن الختان عادة عبودية نشأت فى ظل العصور الإقطاعية ونُسِجت حولها الأساطير والخرافات الغيبية وتوارثتها الأجيال فى ظل توارى المنهج العلمى فى التفكير.

ومكتبة الأسرة تقدم هذا الكتاب ضمن إصداراتها هذا العام عن طبعته الثانية الصادرة عام ٢٠٠٣.

ختان الإناث

ليس من شعائر الإسلام

تقديـــم

أ.د./ محمود حمدي زقزوق

وزير الأوقاف

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد..؛

فلقد كرم الله الإنسان رجلاً كان أو امرأة وفضله على كثير من خلقه، وأسجد له ملائكته، وجعله خليفة في الأرض ليقوم بإعمارها وصنع الحضارة فيها بما منحه الله من القدرة الفائقة على ارتياد مجالات العلوم والمعارف.

والناس جميعًا رجالاً ونساء مخلوقون من نفس واحدة كما يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ (النساء:١). وكل أفراد البشر يعدون أجزاء من هذه النفس

الواحدة، فكلهم إخوة في الإنسانية بصرف النظر عن أجناسهم وألوانهم ولغاتهم ومعتقداتهم. فجوهر الإنسان واحد في كل زمان ومكان.

وقد حقق الإسلام المساواة بين الرجل والمرأة في كل ما يتعلق بإنسانية الإنسان وكرامته وحقوقه المشروعة. وصان الإسلام النفس الإنسانية وجعل الحفاظ عليها على رأس أولويات مقاصد الشريعة الإسلامية. فلا يجوز الاعتداء عليها بأي شكل من الأشكال. فالإنسان رجلاً كان أو امرأة هو بنيان الله. وملعون من هدم بنيان الله – كما جاء في الحديث النبوي الشريف.

وقد اشتمل الإسلام على تعاليم يؤدي الالتزام بها إلى ما فيه خير الإنسان وسعادته في دنياه وآخراه وقد فصل لنا الإسلام ما تشتمل عليه هذه التعاليم من الحلال والحرام فهناك أمور مباحة أحلها الله للإنسان وهناك محرمات.

والاعتداء على الإنسان رجلاً كان أو امرأة بأي شكل من الأشكال محرم تحريمًا لا مراء فيه في الإسلام. وإهانة إنسان بالقول أو بالفعل من المحرمات التي نهى عنها الإسلام. وقد كان النبي ﷺ حريصًا كل الحرص على عدم جرح شعور أي إنسان. ومن هنا كان قوله ﷺ: "إذا كنتم ثلاثة فلا يجوز أن يتناجى اثنان

في حضرة الثالث فإن ذلك يحزنه". لأنه قد يرد في ظنه أنهما يتحدثان عنه، أو يتحدثان في أمر سري لا يريدان أن يطلع عليه، لأنه في نظرهما ليس أهلاً للثقة، أو غير ذلك من احتمالات، وكلها تجرح شعوره. ومن هنا منهى عنها.

وينطبق ذلك بطبيعة الحال على ضرورة مراعاة شعور الإنسان عند المساس بأي شيء يتعلق بجسده، بل إن الضرر هنا يكون مضاعفاً لأنه يتصل بالناحيتين النفسية والجسدية.

والإسلام حريص كل الحرص - فيما يتعلق بجسد الإنسان - على ضرورة الالتزام بما فيه مصلحة محققة للإنسان.

واستنادًا إلى هذا الفهم أوصى الإسلام بالختان بالنسبة للرجل. وهذا أمر مقرر منذ سيدنا إبراهيم أبي الأنبياء، وقد أثبتت البحوث العلمية أن الختان للرجل يقي من الكثير من الأمراض.

وفي المقابل لم يرد نص ديني صريح يحتم الختان بالنسبة للإناث. ولم يثبت علميًا أن له فوائد تعود على المرأة. بل العكس هو الصحيح فقد ثبتت له مضار كثيرة بدنية ونفسية.

ومن هنا لا يمكن القول بأن انتهاك جسد المرأة بالختان يعد شريعة إسلامية.

والمعروف أن معظم دول العالم الإسلامي لا تمارس عادة الختان للبنات وأنها لا تعدو أن تكون عادة قديمة مارستها وتمارسها بعض الدول الإفريقية، وخاصة تلك الدول المطلة على حوض نهر النيل.

ولا يجوز أن نحمل الإسلام مسئولية انتشار هذه العادة في تلك البلاد أو غيرها. ويجب التفريق بوضوح بين ما هو إسلامي، وبين ما هو عادة قديمة منكرة ومستهجنة منتشرة في بعض البلاد الإسلامية.

والأمر في حاجة إلى مزيد من التوعية لبيان أن عادة ختان الإناث لا صلة لها بتعاليم الإسلام، ومن ناحية أخرى ضرورة التوعية بأن هذه العادة تعد اعتداء على الأنثى وتضر بها ولا تحقق لها أي فائدة، وليس لها أي مبرر عقلي ولا شرعي في الإسلام.

وتأتي هذه الرسالة المختصرة ليسترشد بها الدعاة في توعية المواطنين بضرورة الكف عن هذه العادة السيئة لما لها من أضرار بالغة محققة.

الحكم الشرعي في ختان الإناث

لفضيلة الإمام الأكبر

أ.د./ محمد سيد طنطاوي

شيخ الأزهر

من المبادئ الأساسية التي قررتها شريعة الإسلام: أنه متى ثبت أن فعلاً ما به ضرر بالإنسان، وجب الامتناع عن هذا الفعل، دفعًا لهذا الضرر الذي يتنافى مع التكريم الذي منحه الله -عز وجل- للإنسان سواء أكان ذكرًا أم أنثى.

وختان الإناث من الأفعال التي قال عنها كثير من العلماء، إنه لم يرد بشأنها نص شرعي يعتمد عليه.

ومن هؤلاء العلماء الإمام أبوالطيب محمد شمس الحـــق، فقد قال في كتابه: "عون المعبود في شرح سنن أبي داود" المجلد ١٤ ص١٢٢ ما نصه:
"وحديث ختان المرأة، روى من أوجه كثيرة، وكلهـــا ضـــعيفة معلولة مخدوشة، لا يصح الاحتجاج بها".

وقال الإمام ابن المنذر –رحمه الله-: "ليس في الختـــان خبر يُرجَع إليه ولا سُنَّة تُتَّبع".

وقال الإمام ابن عبدالبر – رحمه الله- في كتابه "التمهيد": "والذي أجمع عليه المسلمون أن الختان للرجال فقط".

هذا هو رأي كثير من العلماء الشرعيين، أما أهل الخبرة والاختصاص من السادة الأطباء الثقاة، فإن عددًا كبيرًا منهم، قد حكم بأن ختان الإناث، فيه ضرر بهن، وفيـــه مخـــاطر بدنيـــة ونفسية عليهن...

مما جعل السيد الدكتور وزير الصحة، يصدر قرارًا يأمر فيه السادة الأطباء بالامتناع عن إجراء عملية ختان الإناث.

وسيادة وزير الصحة الدكتور حاتم الجبلي لم يُصدر هـــذا القرار، إلا بعد أن استشار زملاءه الأطباء في ذلك، وإلا بعد أن ثبت لسيادته أن هناك أضرارًا متعددة لعملية ختان الإناث.

ولعل مما يحملنا على تأييد منع ختان الإناث – ونرجو من الآباء والأمهات أن يؤيدونا في ذلك –: أنني أنا شخصيًا زرت عددًا كبيرًا من الدول العربية والإسلامية، فلم أسمع بعملية ختان الإناث فيها.

فمثلاً دول الخليج: السعودية، والكويت، والإمارات، وسلطنة عمان، وقطر، والبحرين، سألت أنا شخصيًا بعض الأصدقاء في تلك الدول الشقيقة: هل لعملية ختان الإناث وجود عندكم؟ فكانت الإجابة بالنفي.

كذلك زرت: المغرب، والجزائر، وتونس، وليبيا، وسألت بعض الأصدقاء من هذه الدول السؤال نفسه، فأجابوا –أيضًا– بالنفي.

ولا شك أن هذه الدول الشقيقة، بها الكثيرون من العلماء الشرعيين، ومن السادة الأطباء المتخصصين، وهؤلاء جميعًا لو علموا أن ختان الإناث فيه منفعة لهن لبينوا ذلك، وعلماء الأصول يقولون: "إن عدم البيان في موضع البيان بيان للعدم".

والخلاصة أن في ترك عادة ختان الإناث في هذه الدول الشقيقة وفي غيرها من الدول، دليل واضح على أن العلماء الشرعيين، والأطباء المتخصصين، يرون أن هذه العادة من الأفعال التي ينبغي الابتعاد عنها.

والذي نراه أن عادة ختان الإناث من العادات السيئة التي كادت أن تنقرض في كل محافظات مصر، بفضل الوعي السليم من الآباء والأمهات، وبفضل التوجيه الرشيد، وبفضل التقدم العلمي والحضاري، وبفضل المداومة على التذكير بضرر هذه العادة.

نسأل الله -تعالى- أن يرزقنا جميعًا السداد بالقول والعمل.

شيخ الأزهر أ.د./ محمد سيد طنطاوي

٥ من رجب ١٤٢٨هـ-١٩ يوليو ٢٠٠٧م

الختان ليس من شعائر الإسلام

د./ سالم عبدالجليل

رئيس الإدارة المركزية لشئون الدعوة

(١) مفهوم الختان:

لقد صح في الحديث الشريف: "خمس من الفطرة: الختان والاستحداد ونتف الإبط وحلق العانة وتقليم الأظافر" متفق عليه، لأن الفطرة هي الخلقة وهي السنة: قال تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ سورة الروم، الآية: ٣٠.

قال النَّوَوِيُّ: وَيُسَمَّى خِتَانُ الرَّجُلِ إعذارًا، وَخِتَانُ المرأةِ خَفضًا.

(٢) الختان بالنسبة للرجال مشروع:

لقد فسر العلماء الفطرة بالطريقة وبالسنة وبالدين. ولــذا أوجب بعض الفقهاء الختان للرجال. من يوم السابع إلى البلوغ، حسب استشارة الأطباء.

والفطرة عند الرجل في عمل الختان له، حيث لا توجــد آية مضاعفات أو مشاكل طبية، ولختــان الــذكور كثيــر مــن الفوائد الصحية والجنسية، نبه عليها الأطباء المختصون، الأمر الذي يؤكد حكمة الإسلام في شرعية الختان وتأكيده فــي حــق الرجال.

(٣) ختان الإناث:

أما ختان الإناث، فليس فيه أي نص صحيح، وإنما يرجع كله إلى الأعراف الاجتماعية، والتقاليد الموروثة: وهــو عــادة اجتماعية لا علاقة لها بالدين، كانت معروفة قبل نزول الــوحي على الأنبياء وقبل ظهور الديانات السماوية الثلاث، وانتــشرت في أوساط بعض المجموعات البشرية.

ويجدر بنا أن نتعرف على آراء العلماء فــي مــشروعية ختان الإناث: ونعني هنا علماء الشرع وعلماء الطــب، وأبــدأ بعلماء الطب لأنهم الأقدر على فهم الأمر وتوصــيفه والحكــم الشرعي ينبني على توصيفهم.

(٤) الرأي الطبي:

أشار الدكتور "جمال أبوالسرور" مدير المركز الدولي الإسلامي بجامعة الأزهر، وأستاذ النساء والتوليد إلى أن عملية الختان وما يتم فيها من عذاب ومعاناة للفتاة تسبب العديد من المضاعفات حتى وإن أجريت تلك العملية على أعلى مستوى طبي، وأن من أهم هذه المضاعفات:

- الصدمة العصبية التي تصيب الفتاة وتلازمها طوال فترة حياتها.
- الالتهابات التي قد تصيب موضع عملية الختان، وهو ما يؤدي إلى آثار طويلة المدى على قناة فالوب بشكل قد يصل إلى حدوث عقم للفتاة في المستقبل.
- احتمال حدوث ناسور بولي أو شرجي "تسرب البول والبراز"؛ وهو ما يؤثر على الحياة الطبيعية للفتاة في الصغر والكبر.
- تعرض الفتاة عند الزواج في المستقبل لمشاكل كثيرة أهمها صعوبة المعاشرة الزوجية نتيجة استئصال جزء كبير من "البظر" – وهو جزء جلدي يوجد بالعضو التناسلي للمرأة.
- تواجه عند الحمل مشكلة الانقباض في مقبض المهبل مما يؤثر على عملية الولادة بكشل يجعله أكثر صعوبة.

وتتم هذا الممارسة بدون تخدير غالبًا وباستخدام أدوات بدائية في كثير من الأماكن، ويتسبب ذلك في حالة هائلة من الألم للفتاة أثناء وبعد العملية في حالة إجرائها بدون مخدر أو بعد زوال تأثير المخدر، حتى إن عددًا كبيرًا من الفتيات يصبن بحالة من الصدمة التي تؤدي للإغماء خلال هذه العملية وقد يصل الخطر إلى حد الوفاة من الصدمة أو لحدوث نزيف.

(وأقرب مثال على ذلك وفاة الطفلة "بدور" أثناء إجراء عملية الختان في شهر يونيو ٢٠٠٧).

لكل هذا أصدر وزير الصحة في مصر عام ١٩٥٩ قرارًا بتحريم ختان الإناث في المستشفيات والوحدات الصحية، كما أن هيئة تنظيم الأسرة المصرية أوصت بتحريم هذا النوع من الختان عام ١٩٦٨. وهذا يدل على أن الموضوع مثار منذ حوالي نصف قرن.

لقد عرف ختان الإناث في كتب الفقه بأنه "قطع الجلدة"، ولم يتصور أحدهم الصورة البشعة التي تمارس في بعض المجتمعات.

والحكم على الشيء فرع عن تصوره – كما يقولون – وأعتقد أن الفقهاء لو عرفوا الختان بالصورة التي يمارس بها اليوم لحكموا بمنعه خاصة أنه لا أصل له من الناحية الشرعية؛

لأن كل الأدلة التي اعتمد عليها الفقهاء في مسألة ختان الإناث وعلى رأسها حديث "أم عطية" كلها ضعيفة، أما حديث "إذا التقى الختانان وجب الغسل"، وهو حديث صحيح، فقد وجهه العلماء بأن كلمة "الختانان" لا تدل على وجوب ختان الإناث، وإنما جاءت من باب التغليب، وعليه فإن كل الأحاديث المعتمد عليها في مسألة ختان الإناث لا تقوم بها حجة.

إننا نؤيد تمامًا ما ذهب إليه علماء الشريعة المعاصرون والذي يتلخص فيما يلي:

١. إن كل ما استدل به بعض الفقهاء على وجوب الختان أو سنيته خاص بالذكور ولا يدخل فيه النساء.
٢. لا يوجد دليل صحيح من الأحاديث يدل على الوجوب أو السنية بالنسبة لهن.
٣. حديث أم عطية أن امرأة كانت تختن بالمدينة، فقال لها النبي ﷺ: "لا تنهكي، فإن ذلك أحظى للمرأة، وأحب إلى البعل" فالحديث ضعيف.

والأمر النبوي فيه: ليس أمر إيجاب ولا استحباب، بل هو للإرشاد، ولا يدل على أصل الوجوب أو السنية، لأنه يتعلق بتدبير أمر دنيوي، وتحقيق مصلحة بشرية للناس.

لكن: المباحات – كمال يقول الدكتور القرضاوي – يمكن أن تمنع إذا ترتب على استعمالها ضرر، بناء على قاعدة: "لا ضرر ولا ضرار" ولقد أثبتت الدراسة الموضوعية من قبل الخبراء والمتخصصين المحايدين، أن الختان يضر بالإناث، ضررًا مؤكدًا: ولذا يجب إيقافه ومنعه، سدا للذريعة إلى الفساد، ومنعا للضرر والضرار. وإذا ثبتت الحاجة إليه لبعض الإناث – وفق تشخيص الطبيب المختص – وجب أن تستثنى تحقيقا للمصلحة ودرءا للمفسدة.

إن المباحات قد تمنع أحيانًا لمصحلة راجحة، كما تمنع إذا كان في بقائها مفسدة خاصة أو عامة ...

– فإذا قال البعض: لماذا لا نوجب الختان على الأنثى سدًا لذريعة الفساد؟ فنقول:

"لا يجوز الأخذ بختان الإناث من باب سد الذرائع كالقول بأنه لابد أن تختتن الفتاة من أجل حمايتها من الشهوة الزائدة عند بلوغها" لأن هذا الأمر ثبت عليمًا خطؤه.

– وإذا قال آخرون: لماذا لا نقيس ختان الأنثى على ختان الذكر؟ فنقول:

"قياس ختان الإناث على ختان الذكور خطأ، حيث يوجد فروق كبيرة في القياس، أهمها أنه ثبت ضرورة أن ختان الذكور ثابت دينيًا مفيد طبيًا.

أما الإناث فقد ثبت ضرره، ولا توجد له فائدة واحدة فلنأخذ إذًا بقاعدة: "تقييد المباح إذا ترتب عليه ضرر أو مفسدة"، أو من باب: "منع تغيير خلق الله" الذي اعتبره القرآن الكريم من علم الشيطان. وبهذا نتفق مع ما توصل إليه مجمع البحوث الإسلامية وفضيلة مفتى الديار المصرية، (انظر ملاحق هذه الرسالة).

إننا نؤكد رفضنا الشديد لعملية ختان الإناث، ونعتبرها عملية مخالفة للشريعة الإسلامية وتخالف الفطرة السليمة للإنسان، ونعتقد أن الفتاوي السابقة التي صدرت من قبل- من جهات رسمية – والتي تجيز عملية ختان الإناث بأنها جاءت على غير معرفة بالشكل الذي تجري عليه هذه العملية بما تسببه من أضرار بالغة تهددها في المستقبل سواء من الناحية النفسية أو الطبية.

(٥) الآراء والمعتقدات الخاطئة عن الختان:

- الزعم بأن ختان البنات مفيد لأنه نظافة، وصحة للفتاة، وهو تصور خاطئ؛ لأن احتمالية تعرض البنت للأمراض عالية

جدًا عند إجراء علية الختان. ثم إن الطهارة والنظافة مسألة شخصية.

- *الزعم بأن ختان البنت ضروري باعتباره عملية تجميل لإزالة الجزء غير الطبيعي من البظر، وهو ضرورة للزوج،* لأن البنت غير المختونة يمكن أن تخون زوجها لو غاب عنها، والصحيح أن العفة خلق يرتبط بالإيمان ومراقبة الله تعالي، وليس له صلة بالختان.
- *الزعم بأن ختان البنت يمنع الهيجان الجنسي قبل الزواج،* والحقيقة أن الأطباء يؤكدون في كثير من دراساتهم أن كل عضو من أعضاء التأنيث له أهميته، وله وظيفة يؤديها كأي عضو من أعضاء الجسم، وليس زائدًا كما يتوهم البعض، والرغبة الجنسية تنشأ من المخ، وليس من الأعضاء التناسلية الجنسية.

(٦) ختان الإناث ليس من شعائر الإسلام للأسباب الآتية:

- خلو القرآن الكريم من أي نص يتضمن إشارة من قريب أو بعيد إلى ختان الإناث.
- لا يوجد دليل واحد صحيح السند من السنة المطهرة يمكن أن يستفاد منه حكم شعري في هذه المسألة.
- ليس هناك إجماع على حكم شرعي فيه، ولا قياس يمكن أن يقبل في شأنه.

ومن كل ذلك يتضح أن عادة ختان الإناث لا أصل لها في الدين. وعلى الذين يمارسونها أو يدعون إليها أن يتقوا الله ويكفوا عن هذه العادة السيئة الجاهلية.

ولمزيد من الفائدة نورد فيما يلي الملاحق التالية:

- بيان مجمع البحوث الإسلامية حول الموضوع في ملحق رقم (١).
- بيان دار الإفتاء المصرية في ملحق رقم (٢).
- توصيات مؤتمر العلماء العالمي نحو انتهاك جسد المرأة، (٣).
- قرار معالي وزير الصحة والسكان رقم (٢٧١) لسنة ٢٠٠٧، في ملحق رقم (٤).

وبالله التوفيق..؛

ملحق رقم (١)

الأزهر الشريف
مجمع البحث الإسلامية

بيان المجمع في شأن ختان الإناث
بجلسته المنعقدة
بتاريخ ٢٨/٦/٢٠٠٧م

في ضوء الجدل المثار حول ختان الإناث، وموقف الشريعة الإسلامية منه.. وفي ضوء ما وقع مؤخرًا من وفاة إحدى بناتنا المسلمات نتيجة ممارسة هذه العادة التي ينسبها البعض خطأ إلى تعاليم الإسلام.

ناقش مجمع البحوث الإسلامية القضية من جانبها الفقهي والصحي.. وأجمع أعضاؤه على أن التحقيق العلمي يكشف في جلاء عن أنه ليس هناك أصل من أصول التشريع الإسلامي أو أحكامه الجزئية يجعل من هذه العادة أمرًا مطلوبًا بأي وجه من أوجه الطلب.. وإنما هي عادة ضارة انتشرت واستقرت في عدد قليل من المجتمعات المسلمة.. وقد ثبت ضررها وخطرها على صحة الفتيات على النحو الذي كشفت عنه الممارسات في الفترة الأخيرة.

لذلك وجد المجلس من واجبه أن ننبه إلى هــذه الحقيقــة العلمية والصحية وإلى ضرورة تنظيم حملة إرشادية وإعلاميــة تحذر المواطنين من ممارسة هذه العادة الضارة.

ملحق رقم (٢)

دار الإفتاء المصرية

بيان

حول ختان الإناث

إن دار الإفتاء المصرية تقرر أن ختان الإناث من قبيل العادات وليس من قبيل الشعائر، فالذي هو من الشعائر إنما هو ختان الذكور باتفاق.

قال الإمام ابن الحاج في "المدخل" (٣/٣١٠) "واختُلف في حقهن: هل يخفضن مطلقًا، أو يفرق بين أهل المشرق وأهل المغرب"، وانظر: فتح الباري لابن حجر (١٠/٣٤٠).

ويقول الإمام الشوكاني في "نيل الأوطار" (١/١٩١): "ومع كون الحديث لا يصلح للاحتجاج به فهو لا حُجةٌ فيه على المطلوب".

ويقول شمس الحق العظيم آبادي في "عون المعبود" (١٤/١٢٦): "وحديث ختان المرأة رُوى من أوجه كثيرة وكلها ضعيفة معلولة مخدوشة لا يصح الاحتجاج بها كما عرفت.

وقال ابن المنذر: ليس في الختان (أي للإناث) خبر يُرجَع إليه ولا سُنَّةٌ تُتَّبَع.

وقال ابن عبدالبر في "التمهيد": "والذي أجمع عليه المسلمون أن الختان للرجال" انتهى، والله أعلم.

فدل كل ذلك على أن قضية ختان الإناث ليست قضية دينية تعبدية في أصلها، ولكنها قضية ترجع إلى الموروث الطبي والعادات.

وبعد البحث والتقصي وجدنا أن هذه العادة تُمارس بطريقة مؤذية ضارّة تجعلنا نقول إنها حرام شرعًا.

ولقد عَبر عن هذا جماعة كثيرة من العلماء بعد بحوث مستفيضة طويلة وبعبارت مختلفة: منهم المرحوم الشيخ/ محمد عرفة، عضو جماعة كبار العلماء، في مقال له في مجلة الأزهر رقم ٢٤ لسنة ١٩٥٢م في صفحة (١٢٤٢)، حيث قال:
"فإذا ثبت كل ذلك فليس على من لم تختتن من النساء من بأس"، ثم استطرد فقال: "وإذا مُنع في مصر كما منع في بعض البلاد الإسلامية كتركيا وبلاد المغرب فلا بأس، والله الموفق للصواب".

وفي فتوى له يقول فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الأستاذ الدكتور/ محمد سيد طنطاوي: "أما بالنسبة للنساء فلا يوجد نص شرعي صحيح يحتَج به على ختانهن، والذي أراه أنه عادة انتشرت في مصر من جيل إلى آخر، وتوشك أن تنقرض وتزول بين كافة الطبقات ولاسيما طبقات المثقفين".

ثم يقول: "فإننا نجد معظم الدول الإسلامية الزاخرة بالفقهاء قد تركت ختان النساء، ومن هذه الدول السعودية، ومنها دول الخليج، وكذلك دول اليمن – وسوريا – ولبنان – وشرق الأردن – وفلسطين – وليبيا – والجزائر – والمغرب – وتونس".

ويقول الدكتور/ يوسف القرضاوي – في بحثه المقدم عن الحكم الشرعي في ختان الإناث: "وبناء على هذا الأصل المقَرر المتفق عليه (يقصد إبقاء خلق الله تعالى على ما خلقه وعدم تغييره) يكون ختان المرأة أو خفاضها بقطع جزء من جسمها بغير مسوغ يوجبه: أمرًا غير مأذون به أو محظورًا شرعًا.

ويذهب الدكتور/ سليم العوا – إلى أن حكم الشرع في ختان الأنثى أنه لا واجب، ولا سنة، ولا مكرمة لضعف جميع ما ورد في ذلك، بل هو عادة، وهو عادة ضارة ضررًا محضًا، وقد أوجب الفقهاء إذا فاتت بسببه – على ما يجري الآن في

بلادنا في جميع حالات الختان – متعة المرأة بلقاء الرجل أوجبوا فيه القصاص أو الدية.

ولعل سائلاً يسأل: لم استمرت هذه العادة؟ فنقول: إنها استمرت عند عدم ظهور ضررها، أما وقد ظهر ضررها وقرره أهل الطب فمنعُها حينئذ واجب، وحدوث الأضرار منها أصبح يقينيًا، لاختلاف الملابس وضيقها، وانتشار أساليب الحياة الحديثة وسرعتها، وتلوث البيئة، واختلاف الغذاء والهواء، ونمط الحياة، وتقدم الطب الذي أثبت الضرر قطعًا، بل واختلاف تحمل الجسد البشري للجراحات ونحو ذلك.

والمطلع على كتب سلفنا الصالح يتبين حقيقة هذه العادة – حتى عند القائلين بأن ختان الإناث شعيرة كختان الذكور – من أنها مجرد إحداث جرح في جلدة تكون في أعلى الفرج دون استئصال هذه الجلدة.

قال الماوردي: "هو قطع جلدة تكون في أعلى الفرج: كالنواة أو كعرف الديك، قطع هذه الجلدة المستعلية دون استئصالها" انتهى، من فتح الباري (١٠/٣٤٠).

وقال النووي في "المجموع" (١٤٨/٣): "هو قطع أدنى جزء من الجلدة التي في أعلى الفرج".

ومن هنا يتبين أن القطع معناه الشق وليس الاستئصال، وهو ما يدل عليه الحديث الضعيف "أشمي ولا تنهكي" وهذا يحتاج إلى جَراح تجميل متخصص في مسألة أصبحت في عصرنا الحاضر بملابساتها ضارة على الجسم البشري قطعًا، دون حاجة إليها شرعًا.

ولقد أحال كثير من الناس الأمر إلى الأطباء، ولقد جزم الأطباء بضررها فأصبح من اللازم القول بتحريمها – يقول الدكتور/ يوسف القرضاوي: "والمباحات يمكن أن تُمنع إذا ترتب على استعمالها ضرر؛ بناء على قاعدة "لا ضرر ولا ضرار" ويُمنع هذا المباح سدًا للذريعة والفساد".

وعلى الذين يعاندون في هذا أن يتقوا الله سبحانه وتعالى، وأن يعلموا أن الفتوى تتصل بحقيقة الواقع، وأن موضوع الختان قد تغير وأصبحت له مضار كثيرة: جسدية – ونفسية؛ مما سيتوجب معه القول بحرمته والاتفاق على ذلك، دون تفرقة للكلمة واختلاف لا مبرر له.

إن المّطلع على حقيقة الأمر لا يسعه إلا القول بالتحريم.

دار الإفتاء المصرية

ملحق رقم (٣)

توصيات مؤتمر العلماء العالمي
نحو حظر انتهاك جسد المرأة

انعقد في الأول والثاني من ذي القعدة ١٤٢٧هـ الموافق ٢٢-٢٣/١١/٢٠٠٦م في رحاب الأزهر، والأقى فيه عدد من البحوث، وبعد مناقشات السادة العلماء والأطباء والمتخصصين والمهتمين من مؤسسات المجتمع المدني في مصر وأوروبا وإفريقيا توصل العلماء إلى ما يلي:

١. كرم الله الإنسان فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ فحرم الاعتداء عليه أيًا كان وضعه الاجتماعي، ذكرًا كان أم أنثى.
٢. ختان الإناث عادة قديمة ظهرت في بعض المجتمعات الإنسانية، ومارسها بعض المسلمين في عدة أقطار تقليدًا لهذه العادة دون استناد إلى نص قرآني أو حديث صحيح يحتج به.
٣. الختان الذي يمارس الآن يلحق الضرر بالمرأة جسديًا ونفسيًا، ولذا يجب الامتناع عنه امتثالاً لقيمة عليا من قيم الإسلام، وهي عدم إلحاق الضرر بالإنسان، كما قال

رسول الله ﷺ: "لا ضرر ولا ضرار" بل يعد عدوانًا يوجب العقاب.

٤. يناشد المؤتمر المسلمين بأن يكفوا عن هذه العادة، تماشيًا مع تعاليم الإسلام التي تحرم إلحاق الأذى بالإنسان بكل صوره وألوانه.

٥. كما يطالبون الهيئات الإقليمية والدولية ببذل الجهد لتثقيف الناس وتعليمهم الأسس الصحية التي يجب أن يلتزموا بها إزاء المرأة، حتى يقلعوا عن هذه العادة البسيئة.

٦. يذكر المؤتمر المؤسسات التعليمية والإعلامية بأن عليهم واجبًا محتمًا نحو بيان ضرر هذه العادة بالشكل الضار، والتركيز على آثارها السيئة في المجتمع، وذلك للإسهام في القضاء على هذه العادة.

٧. يطلب المؤتمر من الهيئات التشريعية سن قانون يُحَرم ويُجَرم من يمارس عادة الختان بالشكل الضار فاعلاً كان أو متسببًا فيه.

٨. كما يطلب من الهيئات والمؤسسات الدولية مد يد المساعدة بكافة أشكالها إلى الأقطار التي تُمارَس فيها هذه العادة كي تعينها على التخلص منها.

ملحق رقم (٤)

قرار وزير الصحة والسكان
رقم (٢٧١) لسنة ٢٠٠٧م

وزير الصحة والسكان:

بعد الاطلاع على القانون رقم (٤١٥) لسنة ١٩٥٤ بشأن مزاولة مهنة الطب.

وعلى القانون رقم ٥١ لسنة ١٩٨١ بتنظيم المنشآت الطبية.

وعلى قرار رئيس الجمهورية رقم ٢٤٢ لسنة ١٩٩٦ بتنظيم وزارة الصحة والسكان.

وعلى القرار الوزاري رقم ٣٦١ لسنة ١٩٩٦ بحظر ختان الإناث.

قرر

مادة (١): يحظر على الأطباء وأعضاء هيئة التمريض وغيرهم إجراء أي قطع أو تسوية أو تعديل لأي جزء طبيعي من الجهاز التناسلي للأنثى (الختان) سواء تم ذلك في

المستشفيات الحكومية، أو غير الحكومية، أو غيرها من الأماكن الأخرى.

ويعتبر قيام أي من هؤلاء بإجراء هذه العملية مخالفاً للقوانين واللوائح المنظمة لمزاولة مهنة الطب.

مادة (٢): ينشر هذا القرار في الوقائع المصرية ويعمل به اعتبارًا من اليوم التالي لتاريخ نشره، ويلغى كل ما يخالفه من قرارات.

وزير الصحة والسكان
أ.د. حاتم الجبلي

في ٢٠٠٧/٦/٢٨م



شقائق الرجـــال

رغم قناعتى بأن الطريق الوحيد أمام المرأة لحل مشكلاتها أن تكون الناطقة بلسان نفسها، وأن يتحول خطاب الانتصار لقضيتها إلى خطاب نسائى محض بعد أن كان شبه موقوف حتى الأمس القريب على الرجال فخطاب التحرير الرجولى لابد وأن تحكمه مصالح باطنة ومقاصد لا شعورية وحتما سوف يصيبه اللهاث وقصر النفس عند التصدى لبعض المطالب الجذرية المتعلقة ببعض الموضوعات والقوانين مثل قانون الأحوال الشخصية والحقوق المدنية.. وترتكز قناعتى تلك من أن خطاب التحرر النسائى لابد وأن يكون قادراً على طرح كل ما لم يجرؤ خطاب الرجل على طرحه، اللهم إلا إذا كان ما يأتى من النساء يقيد نفسه سلفا بحسابات الرجال وتكتيكاتهم السلطورية .. إلا أنى متفائلة دوماً من أن آلاف النساء اللاتى يتخرجن الآن من أماكن العلم

أو ينخرطن فى سلك العمل سيمثلن صك الضمان وحائط التصدى ضد انقلاب زمن الرداءة هذا الذى نحياه بصورة نهائية إلى زمن الردّة) خاصة وأنه قد بات هناك لو شبه إجماع على تلك الرداءة التى تحضرنا ند وصف زماننا الذى أصبحنا من خلالها نسجل لا غيابا فقط لخطاب تحرر المرأة فحسب، بل تراجعا حتى عن تحرير المرأة، فلا السلفيون يفسحون لها مكاناً ويذكر فى عصرهم الغابر، ولا المستقبليون يضعونها فى مكانها، وكأن كلا الطرفين قد غسلا أيديهما ومن قضيتها، وغدونا الآن فى عصر الرداءة والتأخر نخفى (النساء وشقائق الرجال) ونعلن عن (ناقصات عقل ودين) ونحول تحريم اللقاء الزوجى خلال فترة الحيض إلى تحريم الحديث معها ومشاركتها الطعام عودا إلى محرمات التابو الأسطورية، ويتم أستدعاء خروج آدم من الجنة، ويتم إنتاج خطاب يعزف على نغمات التخلف ومن القرآن الكريم لا يستحضر ولانقف إلا عند (كيدهن عظيم) لنجعل من الكيد صفة ملازمة للمرأة ويلقى الحب فى البحر أو لتذوره الرياح؟ وتستدعى قصة يوسف بأبعادها الرمزية وتتحول المرأة إلى الكائن المثير للشهوة المحرك للغرائز الباعث على الفتنة وأحبولة الشيطان، ولا يبقى سوى الوأد الذى مارسته الجاهلية لكنه اليوم وأد يمشى على قدمين، فكتب عليها العنف كعقاب كونى وقع عليها بسبب أنها كانت مدخل الشيطان إبليس إلى آدم.. أغواها الشيطان فأغوت آدم فأكل من الشجرة المحرمة .. ورغم أن القرأن يضعهما على قدم المساواة فى اقتراف الخطيئة (فأزلهما الشيطان) إلا أنه قد استقرت فى المخيلة أن اللوم يقع على المرأة وحدها لهذا ليس لها إلا العنف عقاباً وتكفيراً ..هذا بينما أغفلنا فى مسيرتنا أن

نعتنق المعقول ونحيل اللامعقول!) دائرة الحفريات وأن علينا أن نكون جديرين بتراثنا الكريم والعظيم والعريق، وألا نقبل سيطرة المتوارث اللا معقول لمجرد أنه متوارث، فتلك الجناية الحقيقية التى نرتكبها ضد أنفسنا وعقيدتنا وواقعنا وحاضرنا وتراثنا، فإننا بذلك مثل الوريث الأحمق الذى يتبع ولا يضيف فيبوء بالخسران..

وإذا ما كنت قد إنتهيت إلى ما يشبه اليقين من أنه لا يفل الحديد إلا الحديد، وأنه بيدى لا بيد عمرو، وأن النساء هن القادرات وحدهن على شرف المواجهة والنضال إننى سعدت بأن هناك من نهل واستوعب وخرج برأية الواعى المستقل الدكتور خالد منتصر صاحب الصوت الطازج الدارس لفكر الشيخ الغزالى والشيخ شلتوت وقاسم أمين الذى يرى أن قضية المرأة لا يمكن اعتبارها قضية إنسانية لجنة بل قضية التطور الإنسانى نحو القيم الإنسانية العالية .. صاحب النظرة المستقبلية التى ترى أن مفهوم العنف ضد النساء ليس وحده مقتصراً على ختان الإناث فقط فحقيقة الأمر البحثية قد أثبتت تأكيد حدوث العنف ضد المرأة فى العمل والشارع والمنزل والمؤسسة، وأنه قد تعددت أشكال ممارسته ما بين العنف والجسد النفسى والجنسى، وقد ثبت من البحث الميدانى أن هناك واحدة على الأقل من كل ثلاث نساء مصريات متزوجات قد تعرضن للضرب من أزواجهن، وأن السخرية من المرأة ليست خفة ظل بل مدخلاً للتحقير) والتحقير ينتهى إلى التجريح الذى لا يختلف كثيرا عن التجريح اللفظى والبدنى الذى تتعرض له المرأة فى الشارع، وأن رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ ـ ١٨٧٣) فى ختم كتابة «تلخيص الإبريز فى تلخيص باريس قد جاء بالخلاصة عندما

قال : «إن وقوع اللخبطة بالنسبة لغة النساء لا يأتى من كشفهن، أو سترهن، بل منشأ ذلك التربية الجيدة أو الحسية»، وقد جاء من بعده الشيخ الإمام محمود شلتوت ليضيف بأن «ختان الأنثى ليس لدينا ما يدعو إليه، وإلى يحتمه لا شرعاً ولا خلقاً ولا طباً»، وهذا وقد لمعت بنفسى قدر سعادة المؤلف الطبيب الباحث الراصد وأدركت من ابتسامته الخالصة المطمئنة مدى ارتياحه وذلك عندما التقيته فى المؤتمر المصرى الأفريقى الدولى الذى انعقد مؤخرا فى القاهرة لإصدار تشريع يمنع ختان الأنثى العملية الهمجية البربرية التى تجرى وقائعها على أيدى الجهل لتدمر الأنثى صحيا وبدنياً ونفسياً وتترك عليها آثارا فادحة سواء على المدى القصير أو البعيد ..

أخيراً قال الحق كلمته ووقف شيخ الأزهر ومطران الكنيسة يدينان الجريمة الكاملة التى ترتكب فى حق الأنثى عن عمد ومع سبق الإصرار..

ولقد كانت أمهات المؤمنين شهوداً على حياة النبى صلى الله عليه وسلم وروين عنه ما يقرب من ٢٣٠٠ حديث تسجل أدق تفاصيل العبادات والمعاملات حتى الغسل والقبلة ولم يكن من بين هذه المرويات حديث واحد له علاقة بخفاض أو ختان الإناث، بل كل الدلائل تشير إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يختن بناته الأربع، بل إن كل المرويات والأخبار تؤكد أن عليه الصلاة والسلام كان يعظم أنوثة بناته ويعلى من شأنها، ولم يرو عنه أنه تعامل مع بناته بطريقة توحى بالانتقاص من أنوثتهن كما يحدث فى الختان، بل إن معظم أبناء

الجزيرة العربية مهبط الإسلام ومنبت الوحى لا يعرفون عملية ختان الإناث، كذلك معظم أبناء المغرب العربى لا يختنون وتبقى الأنثى بينهم كاملة الأعضاء غير محرومة من جزء فطرى خلقه الله لحكمة ولغاية أحاط بها بعلمه .. و..

ويادكتور خالد .. رغم المؤتمر الواعى ورغم التصفيق الذى أدمى الأكف لم يزل هناك السؤال الذى لم يتطرق إليه أحد بشكل مباشر وهو : لماذا حين يصبح الركود والتخلف من كان الواقع الاجتماعى والفكرى يصبح (وضع المرأة) قضية ملحّة ؟!!

سناء البيسي

مقدمة

عندما يضع الرجل العربى كلمة المرأة فى جملة مفيدة فهو يقع أسير صراع عنيف، ففى العلن يقول أنها الدرة المصونة والجوهرة المكنونة، وفى السر يخفى إحتقاره لها وتعاليه عليها ونظرته المزمنة إلى كيانها كمواطن من الدرجة الثانية، ولا يوجد تراث أدبى فى الكون يحمل كل هذه الكمية من الغزل البرئ وغير البرئ فى المرأة، ولكنه فى نفس الوقت هو غزل جسدى لم يتطرق إلى التغزل فى العقل أو الفكر أو السلوك، وهذه الإزدواجية الذكورية هى التى جعلت من المرأة لوحة تنشين سهلة لرصاصات الرجل الطائشة، وصنعت منها تمثالاً محشواً بالقش مثله مثل النماذج التى يتدرب عليها لاعبو « البوكس »، فيكيل لها اللكمات المادية والمعنوية ليفرغ فيها كبته المزمن، وعقده المتضخمة، وطاووسيته

المتورمة، وتكون النتيجة مجرد عيشة وليست حياة، وعيشة فيها طرف ضد طرف آخر، وليس طرف مع طرف آخر، عيشة مثل لعبة «البازل» التى ضاعت منها قطعة واحدة ولكنها القطعة التى بدونها لن يكتمل الشكل أبداً ، هذه القطعة هى التفاهم والتواصل الذى لا يمكن أن يحدث نتيجة إحساس الدونية الذى تعيشه المرأة، والذى يؤدى إلى قبول العنف ضدها كأمر واقع، وهو عنف كرسته للأسف الثقافة السائدة لدرجة أن الكثير من النساء لم يعد يرون فيه مشكلة بل يعتبرونه حقا إلهياً للرجل !!.

فى البداية لابد من تعريف العنف، وسنرجع فى هذا التعريف للمادة الأولى من الإعلان العالمى للقضاء على العنف ضد المرأة ١٩٩٣ والذى يؤكد على أن العنف هو «أى فعل عنيف قائم على أساس الجنس ينجم عنه أو يحتمل أن ينجم عنه أذى أو معاناة جسمية أو نفسية للمرأة، بما فى ذلك التهديد بإقتراف هذا العمل، أو الاكراه أو الحرمان التعسفى من الحرية، سواء وقع ذلك فى الحياة العامة أو الخاصة»، وهكذا يتسع مفهوم العنف ليشمل العنف المنزلى والمؤسسى والاجتماعى، وهو بذلك لا يعنى فقط الإيذاء الجسدى والمعنوى المتمثل بالضرب والقتل والاغتصاب وماتتعرض له المرأة من اهانات وإكراه وإذلال وتهديد وشتم وحرمان، بل يعنى أيضا كافة أشكال السلوك الفردية والإجتماعية، المباشرة وغير المباشرة، التى تؤثر سلباً على المرأة جسدياً ونفسياً، والتى تعرقل تنمية شخصيتها وقدراتها ومواهبها، وتحط من قدرتها وكرامتها،

وتؤكد تبعيتها وتحرمها من ممارسة حقوقها التى كفلها لها الدستور، وتحجبها عن المشاركة الفعلية فى التنمية الشاملة لوطنها، وتشمل أشكال التمييز المؤدى إلى العنف أشياء كثيرة مثل فرص التعليم والعناية الصحية والغذائية، وتوزيع الأدوار داخل الأسرة ومنح الحريات الشخصية، والقوانين والتشريعات ... إلخ ، أى أنه بإختصار كل ما يكرس النظرة الدونية لها فهو نوع من أنواع العنف.

والعنف ضد المرأة فى مصر يتميز عن العنف فى مناطق أخرى فى العالم بميزة فريدة، وهى أنه يمارس منذ الطفولة، وأحيانًا قبلها وهى مجرد جنين فى أحشاء الأم، فثقافتنا السائدة فى كثير من الأحيان مازالت تتوجس من ولادة الأنثى، ثم نصل إلى أخطر ممارسات العنف فى الطفولة وهو الختان أكبر جريمة وحشية بربرية تمارس ضد الطفلة الأنثى فى العالم كله، والمدهش أن الختان أصبح بالنسبة لبعض التيارات فى مصر قضية دونها الموت يرفعها ويقاتل فى سبيلها رجال يعتقدون أنهم قد حلوا كل القضايا المصيرية ولم يعد أمامهم إلا متعة الأنثى يحاولون وأدها، ولذلك أفردت فصلاً خاصًا لهذه الجريمة التى تسمى من باب التأدب طهارة البنات وهى فى الحقيقة إغتيال لبراءة وانسانية البنات، ثم خصصت الفصل التالى لمظاهر العنف الأخرى ضد المرأة من زواج مبكر واغتصاب وجرائم شرف ... إلى آخر هذه القائمة المشينة المهينة لأعز ما نمتلكه وهو المرأة.

وأود أن أتوجه بالشكر الخاص إلى التى أفسحت صدرها وصفحات مجلتها لهذه الدراسة أستاذتى وصديقتى سناء البيسى رئيس تحرير مجلة نصف الدنيا، وتحملت بشجاعة أعباء المشاكل التى من الممكن أن تنجم عن مثل هذه الموضوعات التى تحاول خلخلة البديهيات وزرع القلق فى إستقرارنا المزيف، وأيضا أعرب عن إمتنانى وشكرى للدكتورة فاطمة البودى التى إنتشلتنى من كسلى وشجعتنى علي نشر هذه الدراسة فى كتاب يصدر عن دار النشر المحترمة التى تشرف عليها وهى دار العين التى دوماً تتبنى فكر التنوير.

د. خالد منتصر

الفصل الأول

الختان عبودية لا عبادة

الختان ليس عملية طهارة وإنما عملية بتر!

قراءة اجتماعية وأدبية

ختان البنات سؤال يؤرقني منذ أن كنت طفلاً أرى بنات عائلتي يسقن إلى مصيرهن وكأنهن ذاهبات إلى السلخانة ،وكبر السؤال وتضخمت علامة الإستفهام عندما إلتحقت بكلية الطب وعرفت أن هذه الجزارة البشرية التي يمارسها المصريون مع بناتهم لاتمت لعلوم الطب بأية صلة ،وتيقنت وتأكدت من أن العرف والعادة والتقاليد والخرافة أحياناً ماتكون أقوى من المصلحة وأعلى صوتاً من المنطق وأشد إقناعاً من الحقيقة العلمية الواضحة ،وتساءلت لماذا تدلف بناتنا من عتبة الطفولة إلى باحة أجمل سن وهو سن المراهقة عبر نافورة من الدماء ؟!،وكيف نسمح لأنفسنا بممارسة كل هذه السادية بتقطيع أجسادهن وبتر أعضائهن؟،ولماذا تتضخم لدينا غدة الوصاية وننصب من أنفسنا

حماة للأخلاق المزيفة التى لايمكن أن تصنعها مجرد جلدة إسمها البظر ولكن تصنعها منظومة كاملة من القيم يعلمها لنا الدين وتلقنها لنا الأسرة ومؤسسات المجتمع ؟، ولماذا أصبحت لدينا عقدة من ممارسة البهجة ووسواس قهرى من شعور الفرحة ورعب وفزع من النشوة ومصادرة لحق إنسانى مشروع وهو حق الإستمتاع بالجسد بكامل طاقاته التى خلقها الله بداخلنا ؟!،كل هذه الأسئلة وغيرها توالدت فى رأسى ثانية مع بدء حملة مقاومة الختان التى تبناها المجلس القومى للأمومة والطفولة ،ووجدت أنه لامفر من طرحها حتى يواجه المجتمع نفسه فى المرآة ويرى تجاعيده بكل تفاصيلها وملامحها ،فطرح الأسئلة أحياناً يكون أهم من الإجابة نفسها ،وقليل من الإستفزاز العقلى فى مثل هذه القضايا يكون مفيداً ،ولذلك كان لابد من مناقشة هذا الموضوع من كافة جوانبه المتعددة المتشابكة ،فختان البنات ليس مشكلة طبية أو دينية أو إجتماعية فقط ،ولكنها حاصل جمع هؤلاء جميعاً ونتيجة تفاعل تلك العوامل بحيث تعد مناقشة عنصر من هذه العناصر منفرداً نوعاً من الغش والخداع .

من المضحكات المبكيات فى قضية الختان أن يحدث الخلط الذهنى وعدم وضوح الرؤية فى أذهان المثقفين بنفس درجة اللخبطة والتشويش التى تحدث بها عند العامة والبسطاء ،ويكفى أن نعرف أن أعلى صوت مدافع عن الختان هو لأستاذ لأمراض النساء والولادة بطب عين شمس والغريب أنه يصر على مواصلة رفع قضية ضد وزير الصحة السابق لأنه منع الختان !،وهذا يدلنا على أن الخرافة كثيراً ماتتفوق على العلم حتى ولو كان مسلحاً بالدكتوراه ،وهنا تكمن الكارثة حين يتم تشفير

العقول بواسطة الفكر الجمعى الذى يميل فى بعض الأحيان للغوغائية أكثر من الهدوء والمنطق، ولذلك يجب أن نعرف سيناريو تلك البربرية التى تحدث بإسم الدين والدين منها براء وهذا ماسنثبته فى فصل آخر بإذن الله ،إنها بربرية إستحقت أن تحمل إسم البتر التناسلى للإناث FEMALE GENITAL MUTILATIONوهو الإسم العلمى الجديد الذى تستحقه هذه الجزارة التى تنتمى لعقلية القرون الوسطى ولسلوك الهمج،وسنحاول قبل أى تحليل أن نتعرف عن قرب على هذه العملية التى من الممكن أن يكون المثقفون غير مدركين لمدى بشاعتها وذلك بأن نستمع إلى هذا السيناريو الدراكولى من عدة مصادر منها عالم الإجتماع الذى رصد والطبيبة التى عانت والروائى الذى حكى والبنت التى بترت أعضاؤها حتى نكون على نفس موجة الإحساس ونستطيع أن نستوعب أركان الجريمة حتى نصدر الحكم السليم .

البداية مع د.محمد عوض خميس أستاذ الإجتماع الذى يصف حفلة طهور بنت وطبعاً نحن نسميها حفلة تجاوزاً فهى حملة دموية وليست حفلة، وأهمية وصف دكتور خميس يأتى أولاً من أنه رصد بعيون أكاديمية، وأيضاً من أنه حضر الطهارة بواسطة داية وليست طبيب والداية مازالت حتى الآن هى مندوب الشرف السامى فى الأوساط الشعبية التى تمثل الغالبية، ويصف أستاذ الإجتماع هذه الحفلة السادية قائلاً يجتمع حشد من النساء الأقارب المتزوجات وغير المتزوجات وعدد كبير من الأطفال والأخوة الذكور والأب وعدد محدود وخاص جداً من الرجال، وتعم الجميع فرحة غامرة!، وتتهامس النساء فيمابينهن بجمل غاية فى القباحة والتى لها دلالة على تخلفهن الشديد

مثل «خليها تبرد نارها»، أو «علشان ماتبقاش مالحة» ، أو « شوية ويتهد حيلها».. «الحال من بعضه» أو «ده يكسر مناخيرها» أو «بكره تتجوز ومهما الزوج عمل لاتتعب ولاتحس» ...الخ «ويعقب كل جملة من هذه الجمل ضحكات مرتفعة هستيرية دلالة على الموافقة والترحيب مع التعقيبات ذات الدلالة الجنسية الصارخة، هذا الضحك هو نوع من أنواع الشماتة أو تعويض لنقص فمعظم الجالسات حدث معهن مايحدث مع الفتاة المذكورة ...وهنا يسترعى الإنتباه فيما يذكره د.خميس رد فعل المرأة التى تنكر معاناتها وتتخفى وراء لسان طويل وصفاقة مفتعلة حتى تثير الغبار وتتوه القضية الأساسية، ويستكمل الدكتور وصفه قائلاً تدخل الداية وهى سيدة كبيرة السن قوية الجسد متسخة أظافرها نافرة، معها منديل معقود به مشرط طويل عرضه حوالى إثنان ونصف بوصة يشبه سكين الجزار، وتتطوع خمسة من النسوة ذوات الصحة الجيدة من المدعوات إلى الدخول معها ويبدأن على الفور فى رفع ملابس الفتاة حتى الجزء الأعلى من الجسم ثم يوزعن أنفسهن كالآتى: إحداهن تقف عند كتفيها ضاغطة عليهما بكل قوة، وإثنتان يمسكن بالفخذ الأيمن وإثنتان بالفخذ الأيسر ويفتحن الفخذين إلى آخر حد ممكن حتى يبدو العضو التناسلى للفتاة وهى فى حالة صراخ هستيرى بشع، ثم تقوم الداية بمنتهى الهدوء وبحركة سريعة جداً بضرب مشرطها قاطعة البظر تماماً ومعه جزء من الشفرتين، وبعدها يحدث النزيف الحاد من الفتاة وهى فى غيبوبة من جراء هذه العملية الإجرامية التى تتم بدون أى شفقة، وأثناء هذه العملية تكون النسوة يمضغن اللبان الذكر ويضعنه فى طبق ثم يشربن قهوة وتترك الأكواب والفناجين دون غسيل، وتقوم

إحدى السيدات بجمع بقايا القهوة التنوة فى طبق آخر، يطلق البخور أثناء العملية بين النسوة المنتظرات، وتتعالى بعد خروج الداية الزغاريد الهستيرية، وتقوم إحدى السيدات بخلط اللبان الدكر وتنوة القهوة والبخور المحترق معاً وتقدمهم للداية التى تدخل مرة أخرى ومعها فرقة المتطوعات لتضع الخليط السابق على الجرح وتضغطه بشكل قاسى جداً ثم تضع فوقه قطعة من قماش خشن ،وتخرج الداية مرة أخرى متلقية النقطة أى الهبة المالية من أهل الفتاة".إنتهى السيناريو البربرى بفرحة الجميع وزغاريدهم إلا واحدة فقط هى الفتاة نفسها التى من المؤكد أنها تنعزل بعيداً تلفها برودة الوحدة ودموع التساؤل ليه حصل معايا كده ؟وإيه الغلطة اللى أنا عملتها ؟،إنها لاتعرف أن غلطتها الكبيرة هى أنها قد خلقت بنتاً !.

ومن عالم الإجتماع إلى طبيبة وكاتبة مرموقة هى نوال السعداوى تحكى تجربتها الشخصية مع الختان، تحكيها بكل شجاعة وكل مرارة أيضاً، وهذه الحكاية لها دلالة مختلفة لأنها تصدر عن طبيبة كانت وقت ختانها طفلة تنتمى إلى الطبقة الوسطى المحافظة، وإلى أسرة تتمتع بقسط وافر من التعليم والثقافة، تحكى نوال السعداوى قصة ختانها قائلة :

"كنت فى السادسة من عمرى ،نائمة فى سريرى الدافئ أحلم أحلام الطفولة الوردية حينما أحسست بتلك اليد الخشنة الكبيرة ذات الأظافر القذرة السوداء، تمتد وتمسكنى، ويد أخرى مشابهة لليد السابقة خشنة وكبيرة تسد فمى وتطبق عليه بكل قوة لتمنعنى من الصراخ، وحملونى

إلى الحمام، لاأدرى كم كان عددهم ولاأنكر ماذا كان شكل وجوههم وما إذا كانوا رجالاً أم نساء؟، فقد أصبحت الدنيا أمام عينى مغلقة بضباب أسود، ولعلهم أيضاً وضعوا فوق عينى غطاء، كل ما أدركته فى ذلك الوقت تلك القبضة الحديدية التى أمسكت رأسى وذراعى وساقى حتى أصبحت عاجزة عن المقاومة أوالحركة، وملمس بلاط الحمام البارد تحت جسدى العارى، وأصوات مجهولة وهمهمات يتخللها صوت إصطكاك شئ معدنى ذكرنى بإصطكاك سكين الجزار حين كان يسنه أمامنا قبل ذبح خروف العيد ،وتجمد الدم فى عروقى ظننت أن عدداً من اللصوص سرقونى من سريرى ويتأهبون لذبحى وكنت أسمع كثيراً من هذه القصص من جدتى الريفية العجوز، وأرهفت أذنى لصوت الإصطكاك المعدنى ومــاأن توقف حـتى توقف قلبى بين ضلوعى ،وأحسست وأنا مكتومة الأنفاس ومغلقة العينين أن ذلك الشئ يقترب منى، لايقـتـرب من عنقى وإنما يقـتـرب من بطنى، من مكان بين فخذى، وأدركت فى تلك اللحظة أن فخذىّ قد فتحتا عن آخرهما ،وأن كل فخذ قد شدت بعيداً عن الأخرى بأصابع حديدية لاتلين، وكأنما السكين أو الموسى الحاد يسقط على عنقى بالضبط، أحسست بالشئ المعدنى يسقط بحدة وقوة ويقطع من بين فخذى جزءاً من جسدى صرخت من الألم رغم الكمامة فوق فمى، فالألم لم يكن ألماً وإنما هى نار سرت فى جسدى كله وبركة حمراء من دمى تحوطنى فوق بلاط الحمام، لم أعرف مالذى قطعوه منى، ولم أحاول أن أسأل ،كنت أبكى وأنادى على أمى لتنقذنى، وكم كانت صدمتى حين وجدتها هى بلحمها ودمها واقفة مع هؤلاء الغرباء تتحدث معهم وتبتسم لهم وكأنهم

لم يذبحوا إبنتها منذ لحظات، وحملونى إلى السرير ورأيتهم يمسكون أختى التى كانت تصغرنى بعامين بالطريقة نفسها فصرخت وأنا أقول لهم لا، لا، ورأيت وجه أختى من بين أيديهم الخشنة الكبيرة ،كان شاحباً كوجوه الموتى وإلتقت عينىّ بعينيها فى لحظة سريعة قبل أن يأخذوها إلى الحمام، وكأننا أدركنا معاً فى تلك اللحظة المأساة، مأساة أننا خلقنا من ذلك الجنس ،جنس الإناث الذى يحدد مصيرنا البائس ويسوقنا بيد حديدية باردة إلى حيث يستأصل من جسدنا بعض الأجزاء ».

تساءلت نوال السعداوى ولكن غيرها لم يتساءلن بل رضين بأن يسقن كالقطيع إلى مصير هو كالقضاء والقدر، بل والمدهش أن الكثيرات منهن نتيجة تزييف الوعى يدافعن عن ذبحهن، تخيلوا إلى أى درجة وصل غسيل المخ بالمرأة التى تتخيل أن تقديمها كقربان على مذبح الأخلاق هو أعظم تكريم، وإذا كانت نوال السعداوى قد حكت عن تجربة ختان مألوفة لفتاة شرقية مسلمة، فإن الروائى الكبير سليمان فياض فى روايته أصوات يحكى عن تجربة غير مألوفة ومدهشة لإمرأة أجنبية ظن أهل زوجها المصرى أنهم بهذا الختان يحافظون على شرف إبنهم العائد من الغربة مصطحباً هذه الفرنسية الشقراء التى حتماً ستخونه إذا لم يتم ختانها، إجتمعت نسوة القرية وقررن إنقاذ شرف إبنهم حامد بختان سيمون حتى لاتصبح كماوصفوها قطة جائعة تبحث عن الرجال، وعلى لسان زينب زوجة أخ حامد التى تغار من سيمون نسمع القصة :

«أغلقت نفيسة النافذة وأحطنا بها فدارت حول نفسها باحثة عن مخرج «أمسكنا بها «فصرخت وقاومت، خفنا منها «فأغلقت فمها بكفى وطرحناها على السجادة فى أرض الغرفة، ورفعنا ذيل القميص الذى ترتديه، وكنا نمسك بها جيداً وهى تناضل بكل مافيها من قوة لتتخلص من ثمانية أيد، وقالت نفيسة: ألم أقل لكم؟، وراحت نفيسة تمارس مهمة تطهيرها بالمقص، ثم بحلاوة العسل الأسود لتزيل القذر الذى تحمله بين فخذيها، وشهقت نفيسة وقالت لحماتى :أنظرى ألم أقل لك؟ أنها لم تختتن» .

وعند هذا الإكتشاف الخطير كان لابد أن يسيل لعاب النسوة لممارسة السادية الكامنة فيهن والتى تنتقل كالجينات الوراثية من جيل إلى جيل ويكمل سليمان فياض الحكاية على لسان زينب فيقول «أخرجت نفيسة زجاجة من صدرها ونزعت غطاءها، ففاحت منها رائحة البنج وغمست فى الزجاجة قطعة قطن «أخرجتها من صدرها أيضاً «ثم وضعتها على أنف سيمون، رأيت فى ضوء المصباح عينيها مفتوحتين على آخرهما «مليئتين بالفزع «فكرت فى أن أتركها، وأدفع الكل عنها، وأوقظها، تصورت نفسى فى مكانها «لكن خطر لى أنها تبهج حامد بروحها وربما أيضاً بجسدها الذى يشبه الملبن بياضاً وطراوة لأنها لم تختتن، وكان جسدها يسترخى تحت أيدينا، وفمها يتوقف عن المقاومة «ويتوقف الأنين المكتوم المنبعث من أنفها، وعيناها تنطبقان، وتظلان مواريتين» ....لم يشفع كل هذا الفزع لبطلة الرواية «فالخوف والرعب يشعل رغبة النسوة ويؤججها فى مزيد من الإنتهاك، وتكمل زينب القصة قائلة «أخذت نفيسة تمارس مهمتها بسعادة بالغة، والنسوة

واقفات مستريحات ينظرن إلى مهمة جليلة، وفى قلق وسرور شديدين، وجذبت نفيسة ذلك الشئ حتى آخره بيد، وأخرجت باليد الأخرى موساً حادة كموس الحلاق من جيب ثوبها، وفتحته ومسحته فى جانب ثوبها، ثم ضغطت بجانب السلاح، وجذبت حد الموس بسرعة، فإنفصل ذلك الشئ فى يدها الأخرى ،وتفجر دمها غزيراً ، لم نر مثل هذا الدم من قبل على كثرة ماشاهدنا من طهارة للصبيان والبنات ،وأخذت نفيسة تدس كل مامعها من قطن لتوقف النزف، لكن القطن كان يغرق بسرعة فى الدماء المتدفقة من المسكينة، ودست نفيسة شالها، وشال سيمون ، وكل ماطالته يدها فى الدم المتفزر، والدم لايتوقف ،والقماش يغرق فى بحر من الدم ،لطمت حماتى خديها بيديها وصاحت: يامصيبتى صاحت فينا نفيسة تنهرنا حتى لانفضح أنفسنا وطلبت منى أن آتيها بكل مالدينا من بن وتراب فرن وتراب أحمر» .

ولم يفلح البن أو التراب أو البصل أو الكولونيا فى إيقاظ سيمون فهى قد ماتت، إنها كما قالت الحماة جاءت من بلدها لعذابها، إن هؤلاء النسوة بترن سيمون لأنها قامت بإستفزاز سكونهن وبلادتهن بإقبالها على الحياة فقررن إخراسها إلى الأبد ليس بقطع لسانها بل بقطع وبتر أنوثتها !.

ومن سليمان فياض إلى الروائى الراحل فتحى غانم وروايته البديعة زينب والعرش التى تم فيها ختان زينب بطلة الرواية بعد صراع ورفض من الجدة التركية دودو هانم وإصرار من الأم خديجة ذات الأصول الريفية، ولكن قانون الأخلاق المزيفة كان هو الأعلى صوتاً وموس أم

إسماعيل هو الذى وضع نقطة نهاية السطر، وتم ختان زينب ويحكى فتحى غانم عن زينب بعد ختانها بيوم قائلاً «لما رأت دودو هانم زينب منفرجة الساقين منكسرة الرأس، طلبت منها أن تتقدم إليها، ولكن زينب وقفت حائرة، وضحكت خديجة وقالت أنها مكسوفة وكان السرور يلمع فى عينى خديجة التى حاولت أن تنقل سرورها إلى حماتها فجعلت تقول لها أنها الخير والبركة فى البيت، وأنها لم تفعل مافعلت إلا ليقينها أن أنوثة زينب لن تكتمل إلا بالختان، وهى لن تتزوج تركياً ولكن زوجها سيكون مصرياً، وهو لن يرضى بزوجة بغير ختان، وجعلت خديجة تثرثر بحكايات عن رجال إكتشفوا أن زوجاتهن بغير ختان فكانوا يطلقونهن، أو كما حدث لحكمت الألفى وهى من عائلة تركية تسكن فى المنيرة فقد صمم زوجها على أن تجرى لها أم إسماعيل عملية الختان وهى عروس جاوزت العشرين، فنزف منها دم غزير وكادت أن تموت وهزت دودو هانم رأسها مستسلمة لكلام خديجة وقالت وهى تتنهد أن زمن الرجال الذين كانوا رجالاً قد ولى ولم يبق إلا الفلاحين !.»

هذه الحكايات ليست كلام روايات وإنما هى واقع كتبه من هم ضمير الوطن، إن هذه الحكايات جميعاً نقطة فى بحر القلق والتوتر الذى تغرق فيه بناتنا المذبوحات بسكين الجهل والخرافة، والدماء النازفة من الفتاة هى فى بعض الأحيان أقل الأضرار فالنزف النفسى يكون أكثر تدميراً «ويقول عنه د.حلمى عبد السلام فى كتابه مفاهيم جديدة «إن آثار الختان النفسية قد تكون سابقة له، فما أن تسمع الفتاة بما حدث لأقرانها الأكبر سناً حتى ينتابها القلق، وكلما إقتربت من السن

المعتاد إجراء الختان فيه يتصاعد قلقها ويتحول إلى رعب نفسي قد يصل في بعض الحالات إلى حدوث كوابيس وتأخر دراسي، وتزداد حدة هذا القلق كلما كانت الفتاة معتدة بنفسها وبشخصيتها، ويحكى د.طه باشر أن فتاة كانت تصرخ خلال نومها قائلة الحشرة، الحشرة ولكن الأهل لم يجدوا أثراً لمثل تلك الحشرة، ثم تبين أن خادمة البيت كانت قد أعادت عليها في الأيام السابقة بأنها سوف تختن، فالحشرة التي تتكلم عنها في منامها تعبر عند العامة بمخالبها ومنظرها المخيف عن المرأة التي تقوم بالختان، وبعد ذلك تم التأكيد للفتاة بأنها لن تختن، وقد أدى ذلك إلى أن عادت الفتاة إلى نومها الهادئ ، وفيما يخص الآثار النفسية اللاحقة لختان البنات تقول د.سامية سليمان رزق «لايمكن أن تمحى الآثار النفسية لأخذ البنت غدراً وسط مظاهر الإحتفال، لتفاجأ بعملية التكبيل ورؤية أسلحة البتر، وتعاني من الآلام المضاعفات، في مقابل تقديم رشاوى مادية رخيصة، فمهما كانت البنت صغيرة فهي تستطيع أن تقارن بين ماقدم لها من أكل مميز وملابس جديدة، وبين مادفعته من كرامتها بعرضها مجردة من ملابسها الداخلية أمام أغراب، ويترتب على ذلك فقدان ثقة الطفلة في أبويها أو من يحل محلهما، ويرتبط الغدر والأذى الجسمي والنفسي بخلق الشعور بالظلم لدى الفتاة الصغيرة والتي قد تلجأ للتعبير عنه بالتبول اللاإرادي والإنطواء الإجتماعي، فعملية الختان ليست بتراً عضوياً ولكنها أيضاً بتر نفسي».

حقاً إنها عملية بتر نفسي قبل أن تكون بتراً جسدياً، إن محاولة بتر المرأة إجتماعياً محاولة قديمة ومتكررة، يلح فيها المجتمع على شطب هذا الكيان وحذفه تارة بعزله داخل أسوار البيت، وتارة بتحويل الشارع

إلى معتقل تتحرك فيه المرأة بحساب وريبة وأغطية وحواجز، ويؤكد د.عادل صادق أستاذ الطب النفسى على المعنى السابق بقوله إن الختان يشكل عملية بتر تظل في مخيلة الفتاة مدى الحياة، إن هذا الشعور بالبتر لعضو مهم فى جسم الفتاة بمافيه من معان جنسية يصبح شيئاً راسخاً فى ذهنها، ويقولون إن هذا الجزء يبتر حتى لاتنحرف الفتاة، وبذلك يصبح مفهوم الأخلاق مرتبطاً بالغريزة وأنه لاإرادة لها فى ذلك، وذلك يحرمها كأنثى من الإعتزاز بذاتها الأخلاقية الإنسانية الناشئة عن قناعة وإيمان، ويحكى د.طه باشر فى كتابه السابق عن إمرأة فى الثلاثين من عمرها قد عانت من هبوط نفسى بعد وضعها على إثر تأخر شفاء ندب الختان، فلم تستطع الأكل أو النوم، وكان يجب معالجتها جسدياً ونفسياً فى عيادة الأمراض العقلية، ويحكى عن إمرأة أخرى كانت مريضة عقلياً وعندما أحيلت إلى الطبيب تبين أن هذه المرأة لاأطفال لها وأنها مطلقة مرتين ،وبعد الفحص تبين أنها تعانى من ورم بحجم كرة التنس تحت جرح الختان وبعد إزالة هذا الورم شفيت وتركت المستشفى وهى سليمة عقلياً، وقد رصد باحثون كثيرون التحول المرعب الناتج عن ختان الإناث، فقبل الختان كانت الفتيات ودودات وصافيات العين وطبيعيات دون خوف من الفحوصات الطبية ،أما بعد شهرين أو حتى سنتين من الختان، تحولت الصورة تماماً ،فالبنت منهن تقف مرتجفة وتفزع من الفحص الطبى وتصبح عدوانية فى ردود أفعالها ...الخ.

لابد أن نعرف أن الختان ليس تقرباً للآلهة، وأن ماكنا نفعله فى عصر الفراعنة لم يعد صالحاً لهذا العصر ،فمن عادات المصريين

القدامى إلقاء دمية على شكل فتاة جميلة يزينوها كعذراء يوم عرسها ويلقونها فى النهر، وكانوا يعتقدون أنهم إن لم يفعلوا ذلك فإن النهر قد يغضب عليهم ويكف عن الإنعام عليهم بفيضانه، وكان موسم وفاء النيل هو الوقت المناسب لختان البنات، فتقوم الدايات بختانهن فى ذلك الوقت، وكانوا يحتفظون بتلك الأجزاء التى كانت تقطع من الأعضاء الجنسية للفتاة ويلفونها على هيئة حجاب ويربطونها بخيط حول عنق الفتاة التى قطعت منها تلك الأجزاء، وفى يوم الإحتفال بعيد فيضان النيل كانوا يلقون بتلك الأجزاء فى مجرى النهر معتقدين أن الفتاة التى لاتفعل ذلك تبقى عانساً من غير زواج، أو أنها إذا تزوجت فإنها لاتنجب أطفالاً على الإطلاق، أو حتى إذا أنجبت أطفالاً فإن أولئك الأطفال لايعيشون أو يموتون صغاراً، وللأسف مازلنا نصر على تقديم بناتنا كقرابين لوهم كبير إسمه العفة التى لايعرف الكثيرون أنها مسئولية عقل وروح وليست مسئولية قطعة من اللحم أو بروز من الجلد خلقه الله كمصدر للمتعة وليس للنكد .

* * *

الختان ليس عادة إسلامية أو فرعونية ولكنها عادة عبودية !

قراءة تاريخية وانثروبولوجية

كنت متأكداً حتى وقت قريب بأن ختان الإناث عادة خاطئة يفعلها المسلمون ولها أصل فرعوني،ولكن عندما سألنى أحد مرضاى المسيحيين عما كنت أستطيع إجراء عملية الختان لطفلته الصغيرة إندهشت مرتين، الأولى لأنه طلب منى أنا شخصياً هذا الطلب، أما الدهشة الكبرى فقد كان مصدرها أن الطالب مسيحى الديانة وهنا خاب ظنى وأيقنت أن ختان الإناث عادة عابرة لحواجز الأديان والجنسيات، وقد جعلنى هذا المريض أعيد البحث فى الأصول التاريخية لهذه العادة البربرية بعيداً عن الأديان، وعندما قرأت بعدها عن وضع المرأة المميز فى العصر الفرعونى عدت للتشكك فى أن أصل الختان فرعونى كما يدعى الكثيرون وكما كنت أنا شخصياً معتقد، ومن هنا قررت الخوض

فى بحار وعواصف تاريخ الختان الشائك حتى نفهم معاً من أين نبعت كل هذه الأنهار الدموية؟

يحكي المستشار ماهر برسوم عبد الملك قصّة لها دلالة مهمة فى كتابه مذكرات مستشار مصرى جرت أحداثها أثناء عمله كوكيل نيابة في الصعيد حيث إستدعى لتحقيق حادثة سقوط شخص من القطار مما أدى لبتر ساقه، وعند سؤال المصاب إتهم حماه، وعندما تمت مواجهة المتهم دافع عن نفسه بجملة كان فيها الإفحام والإقناع كله فقد قال وده معقول يابيه أرميه من القطر ده واخد عارى!! ، وقد إرتعشت عند قراءة هذه الجملة البليغة التى لخصت المسألة كلها، إن المرأة عار والرجل هو الذى يخفى آثار هذا العار فمن الممكن أن يخفيه بالقتل أو يرمى تبعته عن كاهله بالزواج أو يكيف ويأيف هذا العار منذ الطفولة بالختان، إنها آثار عهد العبودية والإقطاع والرق والجوارى التى إمتدت لتعشش فى عقول البعض من ضعاف النفوس ومرضى العقول من الرجال الذين مازالوا يعيشون بمنطق شهريار وسلوك الطاووس الذى إن أنصف المرأة فمن باب الإنعام والهبة وليس من باب الحق المشروع والواجب الملزم ،وكما كان يمارس الإخصاء فى العصور الإقطاعية حتى يضمن السيد أن العبد لن يلعب بذيله وحتى يضمن أن قوته الجسمانية لن تضيع أدراج الرياح فى النزوات، فبعد أن تم إستبدال السيد الرجل بالسيد الإقطاعى تم الإخصاء الأنثوى الجديد عن طريق الختان حتى تصبح ممتلكات الرجل خالية من التلوث الإشعاعى الجنسي والقذارة الشهوانية التدميرية الشاملة !، ولأن أصل كلمة البظر الطبية معناها المفتاح فقد فعل السادة بنفس منطق حزام العفة ختان المرأة حتى لاتفتح به باب الشهوة !.

يرفض الكثيرون من الأطباء والباحثين نسبة ختان الإناث إلى الفراعنة ومنهم د.محمد فياض ود. نوال السعداوى ود.سامى الذيب وغيرهم بالرغم من تسمية أهل السودان لأفظع وأبشع أنواع الختان بالختان الفرعونى، فتقول د.نوال السعداوى أن أندونيسيا مارست ختان الإناث قبل مصر القديمة ولقد أثبت علم التاريخ والأنثروبولوجى أن هذه العمليات «الختان والإخصاء وغيرها، لاعلاقة لها بالمصريين أو العرب أو المسلمين أو اليهود أو المسيحيين أو البوذيين أو غيرهم «إنها ترتبط بنوع النظام الإجتماعى والإقتصادى السائد فى المجتمع وليس نوع البشر أو دينهم أو لونهم أو جنسهم أو عرقهم أو لغتهم وتضيف إن القارة الأفريقية أو اللون الأسود ليس مسئولاً عن هذه الجريمة وإنما هى إحدى جرائم العبودية فى التاريخ البشرى، إلا أنها بقايا النظرة العنصرية التى تتصور أن مشاكل الدنيا بمافيها الإيدز أصلها أفريقى، أو على الأقل بدأت فى أفريقيا ثم إنتقلت بالعدوى فقط إلى الجنس الأبيض، ويقول د.سامى الذيب صاحب أهم الدراسات عن الختان أنه قد يرجع سببه للنظام الذكورى الذى يشرع تعدد الزوجات ونظام العبيد، ويشير إلى كتاب الكاماسوترا الهندى الذى يتحدث عن كيف أن الرجل فى نظام الحريم كان لايمكنه أن يرضى جميع النساء اللاتى يمتلكهن، فقد يتداول العلاقة الجنسية مقسماً لياليه بينهن، وقد يختار إحداهن ليمارس الجنس معها، بينما تقوم المحرومات بممارسات وحيل غير مشروعة للوصول إلى الرجل أو تعويض هذا الحرمان، وللحد من هذه الممارسات غير المشروعة قام الذكور بفرض الختان على الإناث بإعتباره وسيلة للحد من شهوتهن ومنع إختلاط أطفالهم الشرعيين

بأطفال من رجال غرباء، ويؤكد د.أحمد شوقى الفنجرى على هذا المعنى قائلاً تعود هذه العملية إلى عصور الإقطاع حين كان الإقطاعى يمتلك الآلاف من البهائم والغنم إلى جانب المئات من العبدات والعبيد، وكان يعامل البهائم والبشر على السواء على أنهم ملك له، فكان يخصى الذكور من البهائم حتى لاتحمل الإناث وهن فى مرحلة إدرار اللبن، ويخصى الذكور من العبيد حتى لا يقتربوا من نسائه، أما الإناث من البهائم فكانوا يضعون فى أرحامهن قطعة من النوى أو زلطة حتى لاتحمل فى وقت غير مناسب ،أما العبدات فكان يعتبرهن ملك له فقط دون غيره رغم أن أعدادهن بالمئات، فكان يختنهن لقتل الشعور الجنسي حتى لايستمتعن بالجنس لأنه لايستطيع إشباعهن جميعاً ،إنها ليست مسألة مكان بعينه أو دين بذاته هى التى صنعت الختان ولكنها مسألة إحساس العبودية الذى لو تغلبت عليه إنتفى سبب الختان وأصبح مرفوضاً إجتماعياً ، وعلى العكس لو إستسلمت له لصار الختان مناسبة يجب الإحتفاء بها والترويج لها، ويستخدم فى هذا الإحتفاء والترويج الدين تارة والعادات تارة أخرى لكى تغطى هذه العادة الوحشية بورق سيلوفان جميل يجعله مقبولاً بل ومطلوباً أيضاً .

عندما يسيطر الفكر الأسطورى الغيبى على مجتمع يظل محتفظاً فى بنائه بالخرافة التى تنتقل عبر جيناته الوراثية جيلاً بعد جيل خاصة عندما يتوارى المنهج العلمى فى التفكير ويفشل فى إحداث التوازن وخلق الطفرة التى تجعل الأسطورة جزءاً من الفولكلور لامكوناً للتفكير والفعل والإختيار والقرار، والأعضاء المبتورة تمثل منذ قديم الزمان وفى معظم الأساطير قرابين ومكونات خلق ،ففى أسطورة ريجفيدا

الهندية تم ربط بروزا وتقديمه ضحية وخلق العالم من أشلائه فمثلاً من عينه خلقت الشمس وهكذا، ومعظمنا يعرف قصة إيزيس وأوزيريس الذى مزقه إله الشر ست فحاولت إيزيس جمع أشلائه ولكنها فشلت فى العثور على عضوه التناسلى الذى إبتلعته ثلاث سمكات تمثل قوى الشر، ومن الأساطير الأفريقية القديمة أسطورة قبيلة مانتجا التى تصارع فيها الأخوان باجنزا و ياكومو أمام الإله وجرح فيها الأول وتم ختانه، وبعد شفائه رفض العلاقة الجنسية مع زوجته التى طلبت أن تختتن هى الأخرى لكى ترضى زوجها، وأسطورة التضحية بعروس النيل التى تحدثنا عنها سابقاً هى مجرد إشارة لأهمية التضحية أو القربان فى الفكر الأسطورى، وهو تارة يستخدم لتفادى غضب الآلهة وتارة أخرى كطقس للعبادة، ومن ضمن هذه القرابين حرق الأجساد وبتر الأعضاء ،فبعض القبائل الأفريقية تضحى بالخصية اليسرى أو اليمنى رغبة منهم فى إتقاء شر ولادة التوأم، وهنا يصبح الختان مجرد ظلال أسطورة ورمز للتضحية الدينية التى تتحول رويداً رويداً لعلامة تميز وتفرد لقبيلة ما أو أصحاب دين ما أو سكان بلد ما يوحدهم هذا الطقس وينقذهم من الشتات الإجتماعى .

هذا التوحد أو هذه الرغبة العارمة فى التشابه وخلق الإنتماء والتطابق المزيف المزعوم يجعل من الختان وسيلة سهلة وسريعة لتحقيق كل هذا بمجرد ضربة مشرط ونزف دماء وتضحية بجزء هو فى عرف العامة جزء زائد عن الحاجة يجلب وجع الدماغ والهياج الجنسى، ورغبة أفراد المجتمع فى أن يكونوا نسخ متكررة فوتوكوبى من بعضهم هى إمتداد للفكر العبودى الذى خلق ورسخ عادة الختان ،وتعبر

د.كاميليا عبد الفتاح عن تأثير هذا التطابق على عادة ختان البنات قائلة إن عملية ختان البنات تندرج تحت مفهوم التطابق فى المجتمع، ويظهر ذلك فى توقع حدوث الختان وضرورته وفى الرضى عنه والإقتناع به، وإلى جانب رغبة البنت فى التطابق فهناك دلالة نفسية لكل هذا وهى إحساس البنت بالأهمية ولو لمدة أيام ،تلك الأهمية التى تفتقدها البنت عادة فى مجتمعنا ،وهذا الفرح الذى يغمر الأسرة يعلق بذهن الفتيات الصغيرات اللاتى يطالبن بأن يجرى لهن الختان كنوع من التقاليد والمشاركة الوجودية والتطابق مع قيم المجتمع ،والمدهش أن هذه الرغبة فى التشابه التى تذكرها د.كاميليا قوية على عكس مانعتقد أن الألم يتغلب عليها، فالرافضة لقيم المجتمع المستقرة أو بالأصح التى يريد لها البعض الإستقرار لتحقيق مكاسبه ،هذه الرافضة خاسرة وتصرفاتها مستهجنة وصديقاتها تعايرنها بأنها أقل منهن مما يضطرها لطلب الختان !،ويورد د.سامى الذيب بعض الأمثلة التى من الممكن أن نستغربها فى البداية ولكن عندما نلمس عن قرب وطأة وسطوة التقاليد سيضيع هذا الإستغراب، فهو يقول «أن المجتمع السودانى يضع غير المختونات ضمن ثلاثة خانات الأطفال والمجنونات والعاهرات»، وتشير إحدى الدراسات الميدانية التى أجريت فى الصومال أن الفتيات اللاتى يتركن بلا ختان لمدة طويلة يطالبن تكراراً بختانهن لأن عدم ختانهن يجعل منهن منبوذات فى محيطهن ولايمكنهن أن يجدن زوجاً إلا خارج مجتمعهن، وقد صرحت إحدى الممرضات غير المختونات بأنها تعيش مأساة وتفضل ألف مرة الموت على أن تعيش منبوذة ! ،وأعتقد أننا فى مصر لابد أن نخلق إلحاحاً حول خطورة الختان حتى نكسر هذه

الرغبـة فى التشابه، ولابد من كسر هذه الحلقة الجهنمية فى سياسة القطيع التى تخلق نوعاً من الراحة المزيفة، ويظل يقنعك تيار ليس فى الإمكان أبدع مماكان أن التغريد خارج السرب برغم أنه يمنحك متعة التميز إلا أنه يفقدك دفء القطيع ،وتصدق الفتيات والأمهات هذا الهراء ويفضلن حالة أسر السكون والركود الذى يصل لحالة التعفن على حرية الحركة والتغيير والتقدم .

ولأن العبد مجرد شئ أو جزء من المتاع الإقطاعى فإن التصرف معه يتم بنفس الطريقة التى يتعامل بها الإقطاعى مع ممتلكاته ودوابه ومزرعته ،فكما يسمن أبقاره حتى تعطى مزيداً من اللحم واللبن فإن المجتمع المتأثر بالفكر العبودى يختن المرأة لتجهيزها للزواج، أو بإختصار علشان تعجب السيد الذى هو الرجل، وكما تقول أسطورة أفريقية لقبيلة دوجون أن الإله أما قبض على مصران ملئ بطين فخارى ورماه فتكونت الأرض على شكل إمرأة مضطجعة على ظهرها، وعندما أراد أما لقاء هذه المرأة منعه هذا العضو الملعون فقام الإله بقطعه ليتم اللقاء ،ومازال هذا الإعتقاد هو أساس عملية الختان حتى الآن فى تلك القبيلة، والأفارقة لهم رأى غريب فى سبب الختان وهو أن الفتاة الصغيرة تستمتع بطريقة ذاتية ولذلك عندما تكبر لابد أن يقطع مصدر اللذة الذاتية حتى تبحث عن الرجل وعن الزواج، والأشد غرابة أن هناك مجتمعات فى كينيا وأوغندا وغرب أفريقيا تستطيع فيها الفتاة الإنجاب خارج العلاقة الزوجية لإثبات خصوبتها وبعد الإنجاب يتم ختانها إعداداً للزواج، وقد أوضحت ممثلة لجنة النساء الغينيات فى مؤتمر داكار ١٩٨٤ أن الفتيات المختونات يبقين فى غرفة واحدة أو فى

الغابة المقدسة لمدة شهر حتى يشفى الجرح، وفيها تقوم إمرأة عجوز بمراقبتهن وتعليمهن القصص والأغانى الشعبية ودور ربة البيت ...الخ وبعد الخروج من هذه العزلة يصبحن صالحات للزواج ،أما فى مصر فتوجد بردية كتبها باليونانية كاهن مصرى يرجع تاريخها إلى عام ١٦٣ قبل الميلاد يؤكد فيها على العلاقة بين الختان والزواج، ويذكر د.سامى الذيب رواية للرحالة الإسكتلندى جيمس بروس حول محاولة المبشرين الكاثوليك فى مصر فى القرن السابع عشر منع ختان الإناث على أتباعهم ولكنهم تراجعوا عن هذا المنع عندما رفض الرجال الزواج من النساء الكاثوليكيات غير المختونات !،وتذكر د.آمال عبد الهادى فى دراستها عن قرية دير البرشا ذات الأغلبية المسيحية التى تخلت عن ختان الإناث أن أكثرية الناس كانوا يرفضون مساعدة الغير فى عدم ختان بناتهم وكان سبب رفضهم مايلى كل واحد يحكم على بيته لنفرض أننى نصحت أم بعدم ختان بنتها ثم لم تتزوج فماذا سيكون موقفى ؟!.

كما يمثل عدم الزواج هاجساً بشعاً وملحاً من بقايا العصر العبودى الذى يعامل العانس كعار وعبء ومصدر نحس، فإن العقم وعدم الخصوبة هو الهاجس الأشد وطأة لأن المرأة فى هذه المجتمعات هى ماكينة تفريخ لفقس الأطفال، وأى خلل فى هذه الوظيفة هو بمثابة تجريس مزمن للمرأة، ولذلك تعتقد بعض القبائل فى نيجيريا أن البظر عضو خطير يؤذى رأس الطفل إذا مسه ومن الممكن أن يصل الإيذاء لحد القتل، ولهذا السبب يتم ختان المرأة فى الشهر السابع من الحمل إذا لم تكن مختونة قبل الحمل، وهناك إعتقاد فى بوركينا فاسو أن بظر

المرأة يجعل الزوج عاجزاً جنسياً وقد يموت أثناء العملية الجنسية، وفى مناطق ساحل العاج يعتقد أن المرأة غير المختونة لايمكن أن تنجب، وهناك أسطورة تقول بأن الفرج له أسنان تضر بالرجل وأن البظر هو آخر سن فيه يجب قلعه ،وتعتقد بعض القبائل بأن الختان يزيد الخصوبة وأن البنت غير المختونة تفرز إفرازات قاتلة للحيوانات المنوية للزوج، وفى مصر تحكى مارى أسعد وحلمى عبد السلام عن الأصول الأسطورية لعلاقة الختان بالإنجاب، ومنها قصة تسمية مايقطع من المرأة بالفضلة لخطورتها، بالإضافة لقطع هذه الفضلة هناك عمليات كثيرة يعتقد فيها المصريون تحد من خطر الجزء المقطوع مثل التمائم السحرية وغسله بصورة خاصة أو مسه بأشياء مختلفة، وإستلهاماً من أسطورة عروس النيل التى سبق ذكرها فى الفصل السابق يعتقد أن من لاتلقى بفضلتها فى النيل لن تنجب على الإطلاق، وبالطبع يساعد الجهل بعلم التشريح على سريان وإنتشار حجة ووهم أن الختان يسهل عملية الولادة لأن مايجب إزالته يسد الطريق أمام الجنين، وكما كان القدماء يشكلون جسد المرأة بإضافة الشحم والدهون ويعلفونها لمزيد من التخن والربربة لتصبح كمصارعى السومو فإنهم يشكلون جسدها بالكشط والإزالة وبالطبع يقف الختان كأشهر هذه الأساليب التى تعبر عن المزاج الإجتماعى السادى الذى يشيئ المرأة .

وتمشياً مع إعتبار الختان وقفة عند مرحلة المجتمع العبودى، فإن النجاسة المرتبطة بأعضاء الجسم وتقسيم الجسد إلى مراتب طبقية حسب درجة الطهارة والنجاسة كل هذا من بقايا التصور الإقطاعى للجسم الذى يختلف فيه جسم العبد عن سيده وأيضاً أعضاء الجسم الواحد نفسه

ويكفى أن الإسم الذى يطلق على الختـان هو الطهـارة، وفى السـودان يعتبرون البنت غير المختونة نجسة وإطلاق.صفة إبن غير المختونة يعتبر من قبيل الشتيمة هناك ويشبه شتيمة إبن العاهرة، والإرتباط بين عدم الختـان والنجاسة عند القبائل الأفريقية إرتباط وثيق ،فالبعض يرفض الأكل مع غير المختونة وفى مالى يرفضون مجرد تحضيرها للأكل ،والبعض يعتقد أن فى البظر سم قاتل، وفى أوغندا تعتبرالمرأة غير المختونة بنتاً مهما كان عدد أطفالها، ويعتبر إبنها إبن بنت دون أية كرامة فى جماعته ولايحظى بأى منصب هام، ولايحق لهذه المرأة حلب البقر لأن ذلك يجلب النحس، كما لايحق لها سكب الماء فى الإناء الذى يحتوى ماء الشرب للعائلة أو الصعود إلى المخزن لإحضار الحبوب للطبخ أو الزراعة، وإذا مات رجلها لايحق لها إستقاء الماء من النهر أو البئر للذين يدفنون زوجها، إن مفاهيم النجاسة المرتبطة بعبادة الطوطم ومفاهيم إنسان الكهف الأول الذى كان لايستطيع فهم الظواهر المحيطة به فينسج حولها الأساطير ومنها أسطورة النجاسة وخاصة بالمكان الذى ينزل منه دم الحيض المفاجئ الذى وضعه هذا الإنسان فى خانة النجاسة كحل منقذ لعقله القاصر .

السحر وطقوسه وتدريباته عنصر أساسى من عناصر تكوين المجتمع العبودى ،وقد جمعت البولتين عدد ديسمبر ١٩٩١ بعض هذه الطقوس الأفريقية الغربية التى تنقلنا فوراً لجو المجتمع القبلى الذى يفتقر لأبسط بديهيات المنهج العلمى فى التفكير وتفسير الظواهر، ويحدد الساحر مكان التدريب على طقوس إحتفالات الختان من غناء ورقص، وتتسابق الفتيات فيه للبحث عن الشجرة المقدسة ومن تجدها هى التى

تتلقى أكثر طلبات زواج ،وفى قبيلة ناندى عشية إجراء الختان تشعل النار المقدسة قرب شجرة مخصوصة، وتقوم الخاتنة بفرك مكان الختان بنبات لاسع حتى ينتفخ المكان ،ثم يتم الكى بقبس من النار وسط غناء ورقص القبيلة، وفى قبائل أويانجى يحظر دخول المكان على الرجال إلا زوج الخاتنة العجوز الذى يسيطر على الفتاة بعنف فاتحاً فخذيها فى نفس الوقت الذى يلهب ظهرها فيه سوط تمسك به إمرأة من القبيلة ،وبعدها يتم جز البظر بالسكين، وتقف البنات فى طابور تحرسهم زغاريد القبيلة، وعلى من تنهى عملية الختان أن ترقص رقصة اللقاء الجنسى والدم ينزف منها، وفى توجو ينتهى طقس الختان بسير الفتيات عاريات فى موكب حتى يصلن إلى التمثال المقدس، وفى دولة بنين تجلس الفتيات على حجر مسطح على شكل دائرة ووجوههن إلى الخارج، وتجلس الخاتنة وسط الدائرة وتلف الحجر حتى تواجه البنت وتجرى لها الختان ،ثم تلفه لكى تختن الفتاة التالية وهكذا ....،كل ماسبق له ظلاله الدينية فى معتقداتهم، وهو شبه إمتحان تجريه القبيلة للبنت، وهذا الإحساس بالإمتحان إنتقل إلى مجتمعنا المصرى حيث نعقد إمتحانات دورية للبنت فى الأخلاق بالطبع التى هى أخلاق من وجهة نظرنا تحمل خاتمنا الخاص وبصمتنا المميزة،إن الفرق بيننا وبينهم إنهم يجرون الختان بصراحة وتحت غطاء السحر ونحن نجريها بنفاق وتحت غطاء الدين .

العبودية ليست تعريفاً زمنياً أو مكانياً ولكنها مجموعة قيم أخلاقية معينة، ونظرة خاصة متزمتة، ونسق سلوكى يهتم بالحفاظ على المظهر الخارجى، وأرتيكاريا شديدة من أى شئ يمس ممتلكات السيد ومنها

المرأة، بدليل أن هذا الختان البربرى وصل إلى أوروبا عندما سيطر عليها إحساس الطهر البيورتانى فى العصر الفيكتورى المتزمت المتخلف الذى صاحبه تخلف طبى أيضاً ،وقد ساعد هذا المركب المتخلف المزدوج على تبنى عادة الختان وقد ساعد على إنتشارها بعض التفسيرات الطبية التى تربط بين الأمراض العقلية والعصبية التى تصيب النساء وبين أعضائهن التناسلية، والتى تدين المرأة لأنها أسيرة طبيعتها البيولوجية المتقلبة من حمل وإرضاع وولادة وحيض ..الخ ،مما يؤدى من وجهة نظر أصحاب هذه التفسيرات لخفض قدرتها الذهنية وإنهيار إرادتها الواعية وفقدها للقدرة على التحكم فى نفسها، وفى كتاب موقف الأطباء من ختان الإناث تقص مؤلفتا الكتاب آمال عبد الهادى وسهام عبد السلام قصة غزو ختان النساء لأوروبا إبان العصر الفيكتورى، ففى سنة ١٨٥٨ أدخل د.إسحق بيكر براون ختان النساء لبريطانيا كوسيلة علاجية للأمراض البدنية والعقلية التى كان يعتقد أنها تصيب النساء بسبب تعرضهن للإثارة الجنسية، وللعلاج . مارس د.براون إستئصال البظر والشفرين الصغيرين كعلاج لهذه الأمراض بل وأحياناً المشاكل الإجتماعية كالطلاق !، وكان يتباهى بأنه يخدرهن تخديراً كلياً ، وقد أدت التجاوزات المهنية للدكتور براون إلى تجريده من ألقابه العلمية وفصله من عمله، وفى سنة ١٨٦٧ نشرت المجلة الطبية البريطانية خطاباً هاماً يوضح أسباب رفض المجتمع الطبى لممارسات د.براون ،يقول الخطاب نحن معشر الأطباء حماة مصالح النساء بل ورعاة شرفهن، والحق إننا نحن الطرف الأقوى وهن الطرف الضعيف ،فهن مجبرات على تصديق كل مانقوله لهن لأنهن

لسن فى وضع يسمح لهن بمجادلتنا، لذا يمكن القول بأنهن يقعن تحت رحمتنا، وفى ظل هذه الظروف لو تخلينا عن التمسك بمبادئ الشرف وخدعنا مريضاتنا أو ألحقنا بهن الأذى بأى شكل، فإننا لانستحق الإنتماء إلى مهنتنا النبيلة، وأما الأكثر طرافة فهو ماذكر فى كتاب مشاكل النساء لفرنيون كوليمان من أن الختان أستخدم لعلاج كثرة عرق الأيدى وللفتيات اللاتى كن يعملن بمصانع النسيج على آلات الخياطة التى تعمل ببدال القدم، وكان المبرر هو أن حركة إهتزاز الفخذين الدائمة وإحتكاكهما كانا يولدان إثارات جنسية لاتحتمل !!،وقد تبنى البعض فى مصر مثل هذا الرأى أو أشد منه فى تأييد الختان فقالوا أن تلامس الملابس وإحتكاكها بالبظر من الممكن أن يثير البنت فمن الأفضل ختانها !!.

فى ختام هذه القراءة التاريخية نقول إننا بالختان نقول مرحباً بالعبودية ووداعاً للحرية والعقل، وإذا رغبنا فى الخروج من كهف الظلمة لساحة النور علينا أن نعترف بأن أجسامنا ملكنا ومصدر فرحتنا وليست وعاء شرورنا وآثامنا ورذيلتنا، وأن نمنع أى بتر عدوانى نفعله بها كالختان الذى هو من بقايا العبودية والتى للأسف نحن إليها أحياناً وبكامل إرادتنا .

* * *

مصر تحقق الرقم القياسى فى الختان

الختان .. قراءة جغرافية وإحصائية

أحسست بالعار وأنا أقرأ التوزيع الجغرافى والأرقام الإحصائية لمعدلات ختان الإناث فى العالم، فمصر هى أكبر هذه الدول من حيث عدد اللاتى يتعرضن لهذه العملية الهمجية!، هل يعقل أن مصر مهد الحضارة وأم التاريخ تبتر أجساد بناتها بهذه الوحشية ؟!، هل يعقل أن مصر التى إحتضنت الأديان والثقافات والأفكار والقِيم لاتستطيع أن تحتضن بناتها وتحميهن من مذبحة البتر التناسلى؟، هل يعقل أن تكون مصر مضغة فى أفواه المؤتمرات العلمية التى تدين الختان ووسائل الإعلام التى تصوره ومنظمات حقوق الإنسان التى تندهش من أنه مازال هناك فى مصر من يجر إبنته ويسحبها إلى حيث يقوده خياله المريض ويقنعه بأنه بذلك يحافظ على شرفه الذى يراق على جوانبه

الدم؟!، وهل يعقل أنه فى عصر الكمبيوتر والهندسة الوراثية يوجد من يلجأ لحلاق الصحة والداية حتى تجرى للبنت أبشع عملية جراحية فى التاريخ؟، وهل يعقل أنه بعد كل تلك السنوات من الهجوم على عادة الختان مازلنا فى مقدمة طابور الدول التى تتبنى هذا التخلف ؟،ولكن ماحدث فى الواقع أن الخرافة أصبحت معقولة، والدجل صار علماً ،والبنت صارت ضحية للعنكبوت الذى غزل خيوط بيوته فى العقول حتى صارت كهوفاً وخرابات .

الأرقام أحياناً صادمة ولكنها دوماً مصابيح تنير الطريق ،وهى أحياناً مقلقة ولكنه القلق الذى يثير العقل لتلمس الحل، وعفواً عن أن هذا الفصل ملئ بالأرقام ولكن الأرقام أصدق أنباء من الكتب مع الإعتذار لشاعرنا الكبير أبو تمام !.

فى المؤتمر الرابع لبتر الأعضاء الجنسية الذى إنعقد عام ١٩٩٦ فى سويسرا ظهرت هذه الأرقام العالمية المرعبة وهى كالتالى :

- يتم فى العالم ختان مايقرب من ٢ مليون طفلة سنوياً، أى بمعدل ١٦٦٦٦٦طفلة شهرياً ،٥٤٨٠ طفلة يومياً ، ٢٢٨ طفلة كل ساعة ،أو ٣,٨ طفلة كل دقيقة !

- نسبة المختونات فى العالم تبلغ ٥٪ أى بمجموع ١٠٠ مليون أنثى !

وقد نشرت منظمة الصحة العالمية فى أعوام ١٩٩٤ و١٩٩٦ و١٩٩٨ أرقاماً مختلفة بخصوص عدد النساء المختونات فى الدول التى تمارس ختان الإناث، وهى كالتالى حسب الترتيب الأبجدى الأجنبى: (سنلتزم فى الجدول بإحصاء ١٩٩٨)

بنين	١,٣٦٥,٠٠٠	ليبريا	٩٠٢,٤٠٠
بوركينا فاسو	٣,٦٥٦,٨٠٠	مالي	٥,١٥٥,٩٠٠
الكاميرون	١,٣٣٦,٨٠٠	موريتانيا	٢٥٩,٢٥٠
وسط أفريقيا	٧٥٩,٨١٠	نيجيريا	٩٢١,٢٠٠
تشاد	١,٩٢٣,٠٠٠	السنغال	٢٥,٦٠١,٢٠٠
ساحل العاج	٣,٠٤٨,٢٧٠	سيراليون	٨٣٨,٠٠٠
جيبوتي	٢٤٨,٩٢٠	الصومال	٢,١٦٧,٢٠٠
*** مصر	٢٧,٩٠٥,٩٣٠	السودان	٥,٠٣٤,٢٦٠
أريتريا	١,٥٩٩,٣٠٠		١٢,٨١٦,٠٠٠
الحبشة	٢٤,٧٢٣,٩٥٠	تنزانيا	١,٥٥٢,٠٠٠
جامبيا	٣٩٦,٨٠٠	توجو	١,٠٤٤,٥٠٠
غانا	٢,٦٣٥,٢٠٠	أوغندا	٥١٣,٠٥٠
كينيا	٦,٩٦٧,٥٠٠	زائير	١,١٠٧,٩٠٠

يظهر من الجدول السابق مركز مصر المتقدم جداً والحاصل على المركز الأول في عدد النساء المختونات على مستوى العالم، وسيعترض البعض قائلاً لماذا لم يتم الحساب بالنسبة لعدد السكان وليس بالعدد الفعلى؟، وهذه ملاحظة جيدة ولكن يظل العدد كبير بالنسبة لقيمة مصر الحضارية، والتى تجعل من الظلم أن توضع فى زمرة دول أقل منها تاريخاً وتقدماً بهذه الصورة المهينة، ولكن ماذا نفعل فهذا ماجنته أيدينا على أنفسنا، ومن رسم هذه اللوحة الدموية هم نحن وليس المستعمر أو الغازى... إلى آخر هذه القائمة التى كثيراً ماأراحت بالنا وصرفتنا عن النظر إلى الخلل الكامن فى سلوكنا نحن والذى يجب أن يتغير جذرياً خاصة فى التعامل مع المرأة، ونلاحظ من الجدول أيضاً

أن كل الدول المذكورة تقع فى أفريقيا برغم وجود دول أخرى يجرى بها الختان مثل أندونيسيا وماليزيا وباكستان ومسلمى الهند وبعض المناطق فى اليمن وعمان وعرب النقب فى فلسطين والقليل مازال يعتنقه فى الإمارات، ونستطيع أن نقول من خلال ذلك أنه مازال واجباً على منظمة الصحة العالمية وضع إحصاء جديد يتعامل مع الظاهرة بشكل أعمق وأشمل، والملاحظة الثالثة أن عدد الدول العربية التى تمارس ختان الإناث بصورة كبيرة قليل جداً ويكاد ينحصر فى مصر والسودان وأريتريا، وهذه الدول هى التى يشكل فيها الختان ظاهرة وليست حالات فردية، وأن دولاً إسلامية عربية لاتمارسه مثل السعودية والعراق والمغرب وليبيا وسوريا، وهناك دولاً إسلامية عربية لاتعرفه على الإطلاق مثل تركيا وإيران مثلاً، وهذا يؤكد مرة ثانية على أن جذور هذه العادة ليست عربية أو إسلامية، ومما يؤكد ضرورة مراجعة هذه الإحصائيات قول د.سامى الذيب أن ختان الإناث ليس حكراً على القارة الأفريقية فقد عرفت تلك العادة فى أوروبا والولايات المتحدة أيضاً، ولكنى أود توضيح هذه النقطة للدكتور سامى وأقول أنها إستثناء يؤكد القاعدة ويجعلنا نحاول البحث فيما فعلته الهجرات المتتالية من معتنقى فكرة الختان إلى هذه البلاد، والتى يغذيها إحساس الإغتراب والرغبة الحارقة فى الإنتماء والتميز لدرجة أن بعض المسلمين فى بلاد لاتعرف الختان عندما ينتقلون إلى بلاد أوروبية أو أمريكية يمارسون الختان! كما فعل بعض أتباع الجبهة الإسلامية فى الجزائر عندما سكنوا ألمانيا برغم أن الجزائر لايعرف فيها الختان، وكأنهم يصرخون نحن مختلفون عنكم ياأهل الغرب .

كان لابد من عرض الإحصائيات العالمية والتوزيع الجغرافى لعادة الختان فى العالم قبل الإنتقال إلى مصر بصفتها صاحبة الرقم القياسى للأسف، والغريب أن مناقشة هذه الظاهرة زادت حدتها بعد حادثة شهيرة وهى عرض قناة الـ CNN فى ٧ سبتمبر ١٩٩٤ لفيلم عن ختان طفلة فى العاشرة من عمرها تدعى نجلاء بواسطة حلاق صحة فى القاهرة، وكأننا لانفيق إلا عندما يتناول الغرب سيرتنا ويلقى عليها ضوءاً ويصورها بعدسة الزووم، وبالطبع هاجت الدنيا وماجت وتاهت الحقيقة فى وسط دفاعنا عن أنها مجرد حالات فردية، والهجوم على صناع الفيلم وإتهامهم بسوء النية وإصطياد مثل هذه الأشياء لتصويرنا كجهلة وهمجيين، ومع إعترافى بأن النية الأمريكية فى عرض الفيلم ليست نية صافية وليست بغرض إنقاذنا من ممارسة هذه العادة البغيضة، وليست بهدف تطويرنا إجتماعياً ، ولكنها مجرد فضول إعلامى يستخدم المصريين كنوع من الترويج الإعلامى وإستخدامهم كفولكلور مسلى ومثير ،ورفضنا لابد أن يكون لممارسة هذه العادة القبيحة قبل أن يكون رفضاً لمن رصدوها وصوروها، وإذا كانوا هم على خطأ فنحن على خطيئة بسماحنا حتى الآن بممارستها، وهى خطيئة بالفعل لأننا بتتبع الإحصائيات التى أصدرتها منظمة الصحة العالمية عن تطور هذه الظاهرة فى مصر نجد أنها تتضخم، ومن الممكن أن يكون تضخمها بسبب دقة المعلومات التى تتوافر سنة بعد أخرى وليست بسبب عدد المختونات، ولكن فى كل الأحوال العدد كبير بحيث يصعب تجاهله والتغاضى عن ردود أفعاله فى العالم كله ،ففى عام ١٩٩٤ وجد أن نسبة المختونات ٥٠% أى مايساوى ١٣,٦٢٥,٠٠٠

إمــرأة ،ثم فى عــام ١٩٩٦ وصل الرقم إلى ٨٠% أى مــايســاوى ٢٤,٧١٠,٠٠٠ إمـرأة، ثم وصلنا إلى الرقم الموجـود بالجـدول السـابق والذى يزيد على ٢٧ مليون بنسبة ٩٧%، والغريب أن هذه العادة برغم هذا الإنتشار المرعب لم يتحدث عنها رفاعة الطهطاوى أو قاسم أمين وهمـا من همـا فى مـجـال الدفـاع عن حـرية المرأة، وأعـتـقـد أن سطوة وإنتشار الختان والخلفية الدينية المزعومة التى كان يستند إليها شكلت سداً منيعاً أمام مناقشة هذين المدافعين الكبار اللذين إعتقدا أنها بالفعل ضرورة بيولوجية بجانب الضرورة الدينية، وعذرهما أن الطب كان مـايزال فى مرحلة متخلفة بالنسبـة لمناقشة مثل هذه الأمور ولكن مـالا أغفره لهما أنهما لم ينظرا إلى الإنتهاك الجسدى والنفسى الذى يحدثه الختان ،وأنهما لم يتساءلا عن جدواها وهما يسمعان عن كم الدماء التى تسـفح من الفـتـاة المصـرية التى كـانت تـريد أن تتـحـرر من اليـشـمك الإجـتـمـاعـى الذى كـان يـغطى علـى العـقـول والذى تمثله هذه العـادة البغيضة قبل التحرر من يشمك الزى الذى يغطى الوجوه !.

من أقدم الدراسات الميدانية المهتمة بموضوع الختان فى مـصر دراسة د.محمد كريم أستاذ أمراض النساء والتوليد بطب عين شمس، وقد أجـراها سنة ١٩٦٥ على عـينة من سيـدات نادى القـاهرة (٢٠٠ سيدة) ووقتها جاءت النتائج لتؤكد أن ٧٤% منهن قـد أجـريت لـهن عملية الختان، وقد أجرى نفس الأستاذ بحثاً ميدانياً آخر ١٩٩٤ على عينة سيدات من نفس النادى ليخرج بنتيجة أن ٩٨% منهن مـختتنات، ويرجع د.كريم إرتفاع النسبة إلى أن البحث الثانى إعتمد على الكشف الطبى وليس الكلام الشفهى كالبحث الأول الذى أخـفت فيه السيـدات

بالطبع هذه الحادثة إما خجلاً وإما لأنها لاتريد أن تتذكرها من أصله ،ومن أبحاث النوادى لأبحاث كليات الطب ونبدأ بنفس الأستاذ والذى أعتقد أنه قد جعل من الختان هماً شخصياً له مماأدى به إلى مراجعة نتائجه مرات ومرات كى يصل إلى الرصد الصحيح، والبحث المنشور فى جريدة المصور عدد ٧ أكتوبر عام ١٩٩٤ قد أجرى على المترددات على العيادة الخارجية لطب عين شمس فى أغسطس ١٩٩٤ وبلغ عددهن ٨٠٠ طفلة من سن ٦ إلى ١٤ سنة وروعى فيها بقدر الإمكان تفاوت المستوى التعليمى والإجتماعى للعينات ،وأن يكون بينهن نسبة ١٠% من الأقباط ،وأثبتت الدراسة أن ٨١% مختونات، وكانت نسبة الفتيات المختتنات فى الأسر الفقيرة تصل إلى ٨٨% وفى الأسـر متوسطة الدخل ٧١% وفى الأسر الغنية ١٥%، وعن علاقة الختان بمستوى تعليم الأبوين تبين أن أمية الأب والأم ترفع نسبة الختان فى الأسرة إلى ٩٦% ،وتتضاءل النسبة عند الأبوين الحاصلين على تعليم أساسى لتكون ٨٠% حتى تصل إلى ١٠% عند أصحاب التعليم العالى ،وعندما خلط الباحث أو جمع بين المتغيرين وهما المستوى الإقتصادى والتعليمى كانت نسب الموافقة على إجراء العملية كالتالى :

والدان فقيران أميان ٩٩%

فقراء + تعليم أساسى ٩٦%

فقراء + تعليم عالى ١٢%

متوسطا دخل + أمى ٨٨%

متوسطا دخل + تعليم أساسى ٦٣%

متوسطا دخل + تعليم عالى ٥%

ثراء + أمية ٣٥%

ثراء + تعليم عالى صفر

ونستخلص من هذه الدراسة حتى ولو إعترضنا على بعض النسب ومستوى العينة دلالة هامة جداً وهى أن التعليم والثقافة لهما دخل هام فى منع الختان بل وأهم من مسألة الفقر والثراء لنتأكد من أن طريقنا الوحيد للقضاء على مثل هذه العادات المتخلفة هو طريق نشر الثقافة والتعليم والإستنارة .

وقد أثبتت الدراسة السابقة أن نسبة ٤٨% من عمليات الختان تجرى بواسطة الداية مقابل ٤٦% بواسطة الأطباء و ٦% بواسطة حلاقى الصحة وهذا يؤكد على أن الأطباء أنفسهم مازالوا يشاركون فى هذه الجريمة وسنناقش ذلك بالتفصيل بعد الإنتهاء من إستعراض الإحصائيات المصرية المختلفة التى درست الختان .

فى نفس الكلية السابقة كلية طب عين شمس أجرى د.ماهر مهران أستاذ النساء والتوليد والوزير والمشرف الأسبق على مشروع تنظيم الأسرة فى عام ١٩٧٩ فحصاً على ٢٠٠٠ سيدة من المترددات على عيادة أمراض النساء فى الكلية فى عمر الإنجاب فوجد أن ٩٥% من السيدات قد أجريت لهن عملية الختان والتى يطلق عليها أكثر الجراحات حدوثاً فى مصر .

وفى دراسة ميدانية أخرى قامت بها وزارة الصحة فيمايشبه المسح الصحى على مدى عامين برئاسة د.فاطمة الزناتى الأستاذة بكلية

السياسة والإقتصاد ،وأهمية البحث تنبع من أنه تم على مدى عامين وشمل محافظات الجمهورية ولم يقتصر على مدينة واحدة أو عيادة خارجية محدودة فى كلية طب بعينها كالدراستين السابقتين ،وقد بينت هذه الدراسة أن نسبة المختونات فى مصر تصل إلى ٩٧ %وتنقسم هذه النسبة إلى٩٩,٥% فى الريف و٩٤% فى المدن ،وأن قرابة ٨٢ %من النساء مازلن يؤيدن ختان الإناث منهن ٩١% فى الريف مقابل ٧٠% فى المدن، وقد بينت النتيجة أيضاً أن نسبة النساء غير المتعلمات التى تؤيد الختان هى ٩٣% وهذه النسبة تنخفض إلى ٥٧% بين النساء الحاصلات على شهادة الثانوية أو درجة أعلى ،وكانت الأسباب التى ذكرت تأييداً لختان الإناث كمايلى :

٥٨,٣ %عادة حسنة

٣٠.٨ %مطلب دينى

٣٦,١ %النظافة

٨,٩ %إمكانيات أكبر للزواج

٣.٨ %لذة أكبر للرجل

٩,١ %تحافظ على البكارة

٥,٦ %تحمى من الزنا

٥,٩ %أسباب أخرى

وكانت الأسباب التى ذكرت ضد ختان الإناث كمايلى :

٣٧,٨ %عادة سيئة

٢٩,٨ %مخالفة للدين

٤٥,٨ %تؤدى لتعقيدات طبية

٢٧,٣ %تجربة ذاتية مؤلمة

١٢,١ %ضد كرامة المرأة

١٩,٦ %تمنع اللذة الجنسية

٥,٩ %أسباب أخرى

كما أثبتت الدراسة أن ٧٤% من النساء تعتقد أن الرجال يفضلون المرأة المختونة ،وأن ٧٢% منهن تعتقد أن الختان جزء مهم من التقاليد الدينية ،وأن ٤١ %يعتقدن أن الختان يحمى من الوقوع فى الزنا .

ومن الدراسة الميدانية للموضوعات الصحفية التى وإن إفتقرت للأرقام الإحصائية إلا أن لها أهمية فى معرفة الأسباب التى تكمن وراء تمسك المجتمع المصرى بهذه العادة من خلال قراءة صحفية لآراء شريحة ما من المجتمع ،وقد حاولت الصحفية بثينة البيلى هذه المحاولة من خلال تحقيقها الصحفى فى مجلة المصور ١٩٩٤/٩/٢٣ ، وسنعرف من خلال الإجابات الفطرية البسيطة لسكان حى الإمام الشافعى فى القاهرة مبررات هذه العادة القبيحة .

عند سؤال الصحفية لإحدى السيدات عن مكان حلاق الصحة المتخصص فى الختان، سألتها السيدة عما إذا كان لديها بنت تريد

طهارتها؟، وقالت لها هنا فى الإمام نجرى عمليات طهارة جماعية للبنات فى سوق الجمعة، وقالت السيدة: أنا مع طهارة البنت والدليل على ذلك أن الله يحب المتطهرين!!!!، ودافعت فى حدة بعد محاولات الصحفية أن تبين لها المعنى الحقيقى للمتطهرين قائلة: هو إحنا خواجات، طيب النسوان الأجانب سايبة، إحنا مسلمين، وأنا طاهرت بناتى الإتنين من أسبوع، والبنت لازم تتطاهر وهى كبيرة مش زى الولد، وأنا نفسى إتطاهرت عند الحلاق نفسه لأنه شاطر ونعرفه أباً عن جد بنطلبه وييجى لغاية البيت، ثم جذبت الصحفية من ملابسها بعنف بائعة بسيطة متجولة عندما إشتمت رائحة الهجوم على الختان من كلامها قائلة: إنتم مش عايزين البنات تتطاهرليه؟،عندنا فى البلد الموضوع ده عيب كبير ،ولو دخل العريس على مراته ولقاها مش متطاهرة يطلب الداية فوراً ،الطهارة بتحمى عرض البنات ،يعنى نسيبهم يمشوا على حل شعرهم !!!.

وبالطبع لايستطيع المجتمع أن يترك البنات على حل شعرهم كما يصرخ منطق السلخانة فيسارع بسحبهن من هذا الشعر السايب إلى حيث يؤدون فريضة قربان الختان!، وبهذه الكلمات البسيطة تلخص النسوة ببساطة منطق المجتمع فى تبنى الختان، فالختان هو واجب دينى لكى تصبح البنات من المتطهرين!، وحتى لانصبح مثل الخواجات وهو نفس المفهوم الذى إلتقطه سليمان فياض فى روايته أصوات وعرضنا له من قبل، وأيضاً لكى يرضى عنها الرجل ويتأكد من فحولته ومن شرفها المختوم بخاتم النسر، وأخيراً لحماية عرض البنات، ولاأعرف السبب الحقيقى حتى الآن فى أنه فى مصر لايوجد

إلا عـرض واحـد للبنـات ولايوجـد عـرض للرجل، وكـأن الرجل طول فقط !....

معذرة على هذه السخرية فى موقف الجد لأن المسألة كلها تقع فى خانة الكوميديا السوداء التى تختلط فيها الدموع بالضحكات، ويختلط شجن وحزن البنت بحماس وإبتسامة الأهل الذين يتخيلون أنهم قد إرتاحوا وأراحوا أنفسهم من وسواس الشرف المؤرق البغيض الذى يطاردهم فى المنام فيستيقظون ليذبحوا إبنتهم فى اليقظة.

* * *

قراءة سيكولوجية للختان

ختان البنات هذا الطقس الدموى الذى نحتفل فيه بذبح فتياتنا،غالباً مايغلفه الأهل فى ورقة سيلوفان رقيقة ملونة لتقديمه وتبريره لهذه الفتاة المذبوحة، هذه الورقة إما أن تكون على شكل فروض دينية أو ضرورات إجتماعية أو أعراف وعادات سلوكية، وعندما تبدأ البنت فى فك ورقة السيلوفان لتبتلع الحلوى المسمومة سرعان ماتكتشف حجم الخديعة التى صنعها الأهل، وعمق الفخ الذى أوقعوها فيه، وأن المسألة ماهى إلا مجرد عقد نفسية ومتاعب سيكولوجية يعانى منها المجتمع قبل الأهل، ويغرق فيها الأهل قبل البنت، ويمهد الطريق للبنت لكى ترث كل هذه العقد والمتاعب، يتم كل هذا بقلب بارد وحس متبلد، وكأننا فى شبكة مافيا غامضة لانعرف خيط بدايتها من طرف نهايتها .

سيناريو الختان ذكرني بماتفعله مجموعة دينية مغربية تقوم بتجريح الرأس حتى تنزف وذلك إعتقاداً منها بأنه يخرج الجن والأرواح الشريرة، وهذه الجماعة تؤمن بوجود جنية شريرة تدعى عائشة قنديشة يمكنها أن تقتل كل من يعصى أوامرها فتأمر أتباعها بهذه المذبحة تعطشاً للدماء !، وعقدنا النفسية هى بمثابة عائشة قنديشة الخاصة بنا، وأولى عناصر هذا التفسير النفسى للختان هى أنه مظهر من مظاهر التسلط الإجتماعى من الذكور على النساء وأيضاً من النساء على النساء، وكما يبحث الرجل عن وسائل لتقويته الجنسية بداية من المأكولات البحرية حتى الفياجرا مروراً بجميع أنواع المنشطات، يبحث أيضاً وخاصة إذا كان فرق السن كبيراً عن تثبيط أو مايتخيله هو تثبيط للرغبة عند المرأة، وبالطبع أسهل وأنجح الوسائل هى الختان، ولذلك تقترح د.كاميليا عبد الفتاح أن من أهم عناصر مكافحة ختان الإناث هو مكافحة تعدد الزوجات ونظام الزواج بفرق كبير فى السن بين الرجال والنساء، تقول د.كاميليا عبد الفتاح إن معنى الختان فى الطبقات الفقيرة يرتبط بإرضاء الرجل إلى جانب إرتباطه بالنظافة وعدم الهياج وبأنه سنة مرغوبة فى الطبقات الأعلى، فالبنت الصغيرة تخضع لهذه العملية بل وتستريح لها طالما أنها ترضى الناس وأنها المتطلب الرئيسى للرجل حيث تشيع فكرة أنه يفرح بذلك، وأن ختان البنت هو من ضمن المؤهلات التى لن تقبل كزوجة بدونه ،أما ما أدهشنى حقيقة هو نتيجة البحث القيم الذى كتبته د.سهام عبد السلام ود.آمال عبد الهادى تحت عنوان موقف الأطباء من ختان الإناث، وأهمية هذا البحث تأتى من أن عينة البحث تتكون من الأطباء فقط وهم أكثر الناس معرفة بأضرار

الختان الطبية ولكن عند النزول إلى الواقع وسماع آرائهم نجد كم هى قوية الأعراف والتقاليد ؟، ومايهمنى هنا هو رأى الأطباء الرجال وخاصة من ينظرون إلى المرأة منهم بنظرة دونية، وقد وجدت الباحثتان أنه هناك إرتباط إيجابى بين الموافقة على عمل المرأة وبين رفض الختان ،فالإتجاه الغالب بين معارضى الختان يوافق على عمل المرأة بدون قيود أو شروط ووصلت نسبتهم إلى حوالى ٦١% ،ونسبة الرافضين حوالى ١١% ، ونأتى إلى الفريق الآخر وهو مؤيدو الختان الذين منهم من يرفض عمل المرأة نهائياً ونسبتهم ٣١% أما الباقى فيقبل العمل المشروط بشروط كثيرة ومجحفة، ومؤيدو الختان يصفون عمل المرأة للباحثتين بأن له أثر سلبى على الأسرة وضياع لحقوق البيت وبأن الزوجة أساساً ست بيت وحرام عملها خارج البيت الذى هو مملكتها، وأنها تضيع فرصة الرجال فى العمل ،وأيضاً المرأة غير كفء فى العمل، وعمل المرأة ضد الفضيلة ومخل بالآداب العامة ويثير شهوة الرجال، وتختتم الباحثتان تغطية هذه النقطة بقولهما رفض الختان هو جزء من موقف عام يرى المرأة كائناً عاقلاً مساوياً للرجل فى الحقوق والواجبات والقدرة الإجتماعية، ويرى أن تقدم الوطن مرهون بإسهام كل مواطنيه رجالاً ونساء ،بينما ترتبط الموافقة على الختان بنظرة دونية للمرأة تراها أقل كفاءة من الرجل، وأن مكانها المنزل لخدمة الزوج والأبناء، وخروجها خارج هذه الحدود يرتبط بالمشاكل الأسرية ويخلق فوضى جنسية.

نستخلص مماسبق أن التسلط الذكورى موجود حتى فى الفئة المثقفة التى تعرف تماماً خطر هذه الجريمة على البنت وكيف تحرمها من

البهجة والحياة الجنسية السليمة بل والحياة الإنسانية السليمة وتنتهك حقها الإنسانى البسيط، إن الأطباء الذكور يعرفون كل هذا بل هم متأكدون منه تمام التأكد وبالرغم من ذلك ولاأبالغ إذا قلت أنه من أجل ذلك يوافقون على الختان هذه العادة المتخلفة لأن موقفهم الإجتماعى أصلاً متخلف، وهذا يتطابق مع ماقاله أحد الرؤساء الأفارقة ـ توماس سنكارا ـ عن الختان هناك محاولة للحط من المرأة بجعلها تحمل هذه العلامة التى تنقص من وضعها والتى تشعرها دائماً بأنها ليست إلا إمرأة ناقصة عن الرجل، لايحق لها حتى الإستفادة من جسدها وأن تفرح وتفرح جسدها وكل كيانها، فلها حدود فرضها عليها الرجل ،لذلك فالختان وسيلة لإذلالها ،ولابد أن نذكر فى هذا السياق مافعله الرئيس جومو كينياتا فى دعايته الإنتخابية من ترويج لعادة ختان البنات حتى يكسب الجولة !!،وحتى فى أمريكا سنة ١٨٤٨ كما يذكر د.سامى الذيب كان هناك علاقة أو رابطة ما مابين إعلان حقوق المرأة فى الولايات المتحدة فى هذا العام وبين تأييد الرجال هناك لختان الإناث كرد فعل لإرجاع المرأة إلى دورها الذى إعتادوا عليه وبسبب خوف الرجال من أنوثة المرأة، فهم يرون أن المرأة كانت تميل إلى الرذيلة مما يتطلب علاجها ببتر أعضائها الجنسية، ومما يساهم فى تبرئة الرجال من تهمة الترويج للختان نتيجة التسلط الذكورى ماتطلق عليه د.سهام عبد السلام مؤامرة الصمت ،تقول د.سهام عن هذه المؤامرة ،تنشأ النساء على أن من العيب أن تعلن المرأة الآمها لاسيما المرتبطة منها بالجنس، بذلك تتكر النساء هذه الآلام سواء التى مررن بها فور إجراء التشويه لهن أو التى يعانينها فى حياتهن الزوجية من جراء هذا التشويه، ويكررن

مـاجـرى لهن فى بناتهن، عـلاوة على ذلك أدى سـيـاج الصـمت المضروب حول الحديث عن هذا الموضوع إلى إحجام السيدات والفتيات التى لم يجر لهن هذا التشويه الجنسى وأسرهن عن الحديث مع بقية أخواتهن بمايعرفنه معرفة اليقين من عدم ضرورة هذه العملية وأن العفة والنظافة لاترتبطان بها، وأن حياتهن تسير فى مجراها الطبيعى قبل الزواج وبعده مع تمتعهن بالسلامة الجسدية، بل بلغ الأمر حد جهل أصحـاب الموقفين بوجـود بعضـهـمـا البـعض أصـلاً، فمن تخلوا عن ممارسة التشويه الجنسى للإناث صاروا يعتقدون أن مصر كلها قد حذت حذوهم ولم يعد فيها من يمارس هذه العادات، ومن مازالوا يتمسكون به يعتقدون أن هذه هى طبائع الأمور، وأنه لاتوجد فى مصر كلها إمرأة لم تجر لها هذه العملية» .

تحدثنا من قبل ونحن نصف حفلة الختان عن الفرحة العارمة التى تنتاب الأمهات والنسوة الجالسات حول الفتاة الذبيحة، والمدهش أن من يحافظ على مسيرة الختان هن النساء !، فالجدات والأمهات هن اللاتى يقررن ويخططن لهذه العملية، والداية الأنثى هى التى تذبح وتضرب أول فرشاة دماء فى لوحة المهانة الأنثوية، والخالات والعمات والجارات والحبايب هن اللاتى يقمن بالتكتيف وعملية الأسر وكتم الأنفاس ولى الأيادى وشل الأرجل ووقف الصراخ وملاحظة العرق المفصود وكم الإزالة المضبوط ...الخ،إنها مشاركة نسائية غير مسبوقة لتقديم تاء التأنيث كقربان، ولاأعرف على حد علمى المتواضع مثل هذه المشاركة النسوية فى صنع دونية لمن هى من بنات جنسها، وإذا كان الرجل هو المايسترو الإجتماعى فى عملية الختان فالمرأة هى الأوركسترا التنفيذى الذى يعزف لحن العذاب !.

شكل إنعزال المرأة عن المشاركة فى الحياة الإجتماعية نمطاً سلوكياً جعل الشرنقة الأنثوية تفرز خيوطاً من الأنانية والتسلط والعدوانية ،فهى وإن غاب صوتها خارج البيت فقد ترك لها حَسم بعض الأمور داخل البيت الذى ضحك عليها الرجل وقال أنه مملكتها كى يلهيها عن صنع مملكة خارج أسوار هذا البيت، ومن ضمن هذه الأمور كل مايتعلق بالعادات والتقاليد وأهمها ختان البنات وضرب سياج من التربص بتصرفات البنت ونصب الفخ تلو الفخ وكأننا فى رحلة صيد ،وقد ترتب على منع خروج السيدات قديماً من المنزل ظهور طبقة من المترددات على المنزل ممن يقضين حاجاته وقد تميزن بطول اللسان والكلام المكشوف حتى مع الرجال وكأنهن يعوضن بتطرف كبت الأخريات وصمتهن، ومن أمثلة تلك المترددات الدلالة التى تبيع الملابس ،والماشطة لعمل الحمام والحنة وغيرها من الأعمال داخل وخارج المنزل ومن ضمنها الترويج لبنات الأسرة وبيان صفاتهن الحميدة وأهمها أنهن مختونات طبقاً للمواصفات القياسية!!، وبالطبع الداية التى تقوم بعمليات الختان والتوليد، قام هذا الجيتو النسائى بغزل خيوط المؤامرة على مر التاريخ، والمساهمة فى ترسيخ الدونية الأنثوية ونشر الدفء المزعوم الناتج عن الإنتماء للجماعة، والخوف عند عدم تنفيذ الأمر من الطرد من جنة هذا الدفء الحاضن الآمن، ويورد د.سامى الذيب رأى إحدى الباحثات السيدة هيكس والذى يعبر عن المعنى السابق فهى تقول أن النساء يساندن ختان الإناث لأنهن يحصلن من ورائه على التقدير والإحترام الإجتماعى ولقمة العيش، فمن دون ختان لازواج ولاإحترام، فهذه وسيلتهن لحماية أنفسهن وضمان دورهن فى

المجتمع، والختان يخضع المرأة للنظام الإجتماعى المتضامن الذى من دونه لاحياة لهن ،كما يعتبر ختان الإناث وسيلة لفقد الفردية ودخول جماعة النساء التى غايتها حماية عادات المجتمع الثقافية فيكرسن حياتهن للصالح العام ، أما د.سامية سليمان رزق فتقدم تفسيراً آخر لمشاركة المرأة فى ختان بنات جنسها وهو الرغبة فى الإنتقام من الزوج وتقول أنه يرجع إلى «معتقدات لدى البعض وبخاصة النساء من أن كبت الرغبة الجنسية لديهن من خلال الختان هو بمثابة سلاح فى أيديهن لمواجهة هذا الزوج وإذلاله»، وهو أمر يوضح كيف أن النساء أنفسهن أصبحن مع الوقت يقمن بإعادة تشكيل القمع الذى يلحق بهن ويبررن حدوثه لصالحهن !، إنه تفسير غريب ومدهش ولكنه من الممكن أن يكون حقيقى فهو نوع من الإنتقام اللئيم لتراث من القهر والقمع الرجالى ولكنه مخلوط ببعض السذاجة التى توارثتها الأنثى نتيجة العزلة الإجبارية عن الذوبان فى المجتمع، ففعلت كمايفعل جندى الأمن المركزى الغلبان للهروب من الجيش ببتر ساقه !.

وتفسير آخر تقدمه طبيبة سودانية من خلال بحث بعنوان السجينات لـــ lightfool-klien يقدم لنا مبررات تلك العدوانية الغريبة من إمرأة المفروض أنها تألمت ونزفت من تلك العملية وتكرر بغباء نفس التصرف، وتقول الطبيبة السودانية أنه ليس غباء ولكنه ثأرا، فالنساء هناك كماتخبرنا تلك الطبيبة ليس لهن دور فى المجتمع، فيقمن بصب كل سيطرتهن المكبوتة على الأبناء والبنات، فيجرين لبناتهن عملية الختان كما أجريت لهن أنفسهن ،فكل إمرأة تألمت كثيراً لابد لها من الثأر، ولكن لايمكنها الثأر إلا من بناتها رغم محبتها لهن، وتشعر الجدة

أنه إذا أبطلت العادة فإنها سوف تفقد كل مالها من سلطة، وتضيف هذه الطبيبة أن هذا الإصرار ليس لأن هؤلاء الجدات شريرات على العكس فقد يكن متدينات وطيبات، ولكن مشكلتهن أنهن يعتقدن أنه لايمكن الحفاظ على بكارة البنت إلا إذا اجرى لهن الختان والنوع الفرعونى منه بالذات، وتضيف أن النساء رغم الألم الذى عانينه يقمن بختان بناتهن إختياراً للطريق الأسهل وتهرباً من مقاومة المجتمع ،إنه ليس حب التدمير من أجل التدمير ولكن لأنها لم تختزن فى عقلها الباطن إلا هذا السلوك تجاه المرأة ،إنها تصرخ من خلال بناتها ،إنها الجين النفسى الذى يحافظ على نقل تلك العادات السلوكية من جيل إلى آخر، وترى د.سهام أن المرأة لاتفعل ذلك إلا إرضاء لنزعة الرجل فهى بمثابة الوكيل المنفذ لإرادته، وهي تشير فى ذلك إلى قول إمرأة عجوز صرحت لها ،يجب أن تختن البنات لأن الرجال فقراء، فهم يأكلون فراخ المزارع التى تربى بالهورمونات، ولذلك لايمكن للرجال أن يرضوا نساءهن غير المختونات، !!،فالسيدات اللاتى ينبشن من أجل الختان يتحركن تجاه هذه الجريمة بتنويم مغناطيسى من المفاهيم الجاهزة حول العلاقة بين الرجل والمرأة التى يغلفها التحدى لإثبات الرجولة والفحولة بمعناها الضيق الآلى البحت، الذى لاتظلله أية عاطفة أو حب، إنها علاقة باردة لوزادت عن المقدار المحدد لها ـ وبالطبع الذى يحدد هذا المقدار هو الرجل ـ لوزادت هلك الرجل ولابد من أحد حلين، الأول أن يبتعد الرجل وينزوى وهذا مستحيل ففيه جرح لكرامته ورجولته، والثانى هو أن يطمس ملامح الزوجة العاطفية والجنسية فتظل كالتليفون منقطع الحرارة جسماً معدنياً بارداً بلاإرسال أو إستقبال !.

يفسر البعض سيكلوجية الختان على أنه خليط مابين المازوكية أو الماسوشيزم والسادية أو الساديزم، والأولى هى نسبة إلى مازوش الذى كان يتلذذ بتعذيب نفسه وبتر أعضائه، والثانية منسوبة إلى الماركيز دى صاد الذى قضى ١٦ سنة فى السجن و١١سنة فى مستشفى الأمراض العقلية ويتصف هذا المرض بالرغبة فى تدمير وإيذاء الغير كما فعل الماركيز عندما كان يجلد ضحيته وأحياناً يسلخها !!،فهل يرضى مجتمعنا فى القرن الواحد والعشرين أن يوصف بالسادية أو المازوكية تجاه نفسه وتجاه بناته بالذات، إننا لانستطيع أن ندين الآخرين الذين يصفوننا بهذا الوصف قبل أن نعدل من سلوكياتنا تجاه العنف ضد المرأة .

إذا كنا قد حاولنا توصيف وتأصيل الجذور السيكولوجية للختان، فإن توصيف الآثار السيكولوجية المدمرة على البنت نتيجة الختان والتى تحدثنا عن جزء بسيط منها من قبل تحتاج إلى مجلدات ومجلدات ،فكل حالة ختان هى حالة منفردة لها عقدها الخاصة ومشاكلها المتفردة وعندما نفتح خزانة الذكريات سنجد مايندى له الجبين خجلاً ومايشيب له الولدان فزعاً، وهذا ليس تلاعباً بالكلمات الفصحى المتقعرة البليغة ولكنها تعبير عن واقع مرير يصرخ بالرعب، ففضلاً عن الإنتهاك الجسدى والجنسى للأطفال الصغار، فهناك خدش البراءة وعمل FOCUS أو تثبيت وتقريب بعدسة العادات والتقاليد والأخلاق على تابو الجنس ففى هذا السن الصغير تبدأ البنت فى التفكير بأن هذه المنطقة هى منطقة القاذورات والدماء والعنف والمحظور ،وممنوع عليها الإقتراب من هذا المكان البغيض الكريه، وتبدأ بالونة الفزع فى التضخم

والإرتفاع حتى تنفجر فى وجه المجتمع وأحياناً فى وجه الضحية نفسها، وتبدأ البنت فى تعلم إخفاء إنفعالها الحقيقى المؤلم لإرضاء الأهل الذين يقنعونها بأن هذا الإجراء هو الصح ،ويتطور هذا الإخفاء إلى إتقان التمثيل والكذب ،فتمثل على الجميع بأنها طبيعية، وتمثل على زوجها بأنها مستمتعة، وتمثل على أهلها بأنها ممتنة، ويمتد حبل الكذب حتى يخنق أبسط المشاعر الإنسانية الجميلة التى خلقها الله فى قلوبنا للإستمتاع بالحياة، إننا بالختان نزرع الكذب والخوف والنفاق فى عقل وروح البنت لنشكل على هوانا مسخاً إنسانياً نمارس فيه عقدنا النفسية الناشبة أظفارها فى لحم حياتنا .

أما سكوت المجتمع على هذه المذبحة فكثيراً ماأتخيل أنه خرس ناتج عن مخدر عام إستنشقناه فقررنا الطناش واللامبالاة والصمت الرهيب إزاء هذه الجريمة النكراء، وبمناسبة المخدرات فالكثير من الباحثين يرجع سبب هدية الحشيش الروتينية التى تمنح للعريس والتى هى جزء من محبة الجيران والأقارب للقادم على الحياة الجديدة، يرجعها هؤلاء إلى الختان حتى يتخيل العريس أن لقاءه، دهر وساعات طوال، وحتى يتوه عن الحقيقة بأن لقاءه فى الحقيقة لقاء بدون إحساس، بارد برودة الفريزر، يفتقد إلى الحياة والدفء والنبض، ويوجد باحثون ومفكرون كثيرون أدانوا الختان كسبب من ضمن أسباب إنتشار المخدرات، فيقول المفكر أحمد أمين فى قاموس العادات والتقاليد عن الختان فى هذه الأيام من حياتى ،أعنى فى سنة ١٩٥٠ ومابعدها، نادى بعض الناس بقصر الختان على الذكور دون الإناث، وحجتهم فى ذلك أن ختان البنات قد سبب إنتشار عادة تعاطى الحشيش والمنزول والأفيون ونحو

ذلك، وذلك بسبب أن البنت إذا أختتنت ثم كبرت فختانها يقلل من لذتها الجنسية، فيضطر الرجل إلى إستعمال المخدرات التى ذكرناها ،فنادوا بعدم ختانها حتى لايضطر الرجل إلى مثل هذه المخدرات، ويورد د.سامي الذيب آراء أخرى فى هذه المسألة على موقعه فى الإنترنت منها رأى د.محمد سعيد الحديدى الذى يقول «إن المخدرات والمغيبات بكافة أنواعها قد إنتشرت فى بلادنا إنتشاراً مخيفاً قد تعدى كل الإحصائيات فى أى بلد آخر رغم العقوبات الشديدة والقوانين الصارمة التى يؤخذ بها كل من تجرأ وتعاطى هذه المخدرات ،ماالسر فى هذا ياحضرات السادة، لو إهتدينا إلى هذا السر لوفرنا على أنفسنا وعلى أمتنا المال الكثير الذى يبذل لمكافحة هذه الأشياء ولجنينا فوائد أعظم ،فكم من أشخاص زجوا فى السجون وكم ضحوا بأموالهم وعقولهم وأسرهم لتعاطى هذه السموم، مالسر فى ذلك إذاً؟،إنى أسلم معكم بأن كثيراً ممن يتعاطون هذه المواد المخدرة يتعاطونها لنقص فى إدراكهم وتكوينهم العقلى، ولكن مارأيكم فيمن يتعاطون هذه المواد من أناس يشهد لهم نجاحهم فى حياتهم العملية والعلمية والأدبية والمادية بقسط أوفر من رجحان العقل بل النبوغ ؟،الجواب بسيط، وهو الرغبة فى تخدير الحساسية لدى هؤلاء الرجال ليحصل التكافؤ بينهم وبين من يلامسون من نساء مختتنات»، ويقول د.رشدى عمار أيضاً فى ٦٢٠ حالة كان الأزواج يتعاطون المخدرات أو المشروبات الكحولية للمساعدة على الإتصال الجنسى ورغبة فى إشباع الزوجات والأزواج، وبسؤالهن عن النتائج كانت الإجابة أنه أفاد فى بعض الحالات وأنه يأتى بنتيجة عكسية فى حالات أخرى،ونحن جميعاً نعلم أن من أسباب إدمان بعض

الرجال على المخدرات أو المشروبات الكحولية هو الرغبة فى إطالة اللقاء الجنسى نظراً لزيادة نسبة البرود كنتيجة للطهارة» .

إنه كابوس أسود، أو بلغة ومصطلحات الطب النفسى إن الختان وسواس قهرى متسلط، وضلالات مسيطرة علينا توحى بأن البنت عار، وبأننا مطاردون من العالم المتحضر الذى يريد أن يطمس ثقافتنا والتى نتخيل أن من سماتها الأساسية الختان، أليست ثقافة الشعوب فى حاجة إلى غربلة وإعادة فرز من آن لآخر لطرد كل ماهو ضار ودخيل فى هذه الثقافة ؟، أعتقد انه قد آن الأوان لعمل هذه الغربلة وتنفيذ هذا الفرز حتى تصبح ألف باء ثقافتنا هى حقوق الإنسان وأولها حقه فى جسد غير منتهك .

* * *

الختان قراءة قانونية

الختان ممنوع سواء بيد الداية أو بمشرط الجراح

يجب تجريم الطبيب الذى يجرى الختان

الطبيب الذى يجرى الختان مجرم فى نظر القانون

أسرع قاتل لقوانيننا هو مبدأ الفصال أو الحلول الوسط أو الرغبة فى إرضاء جميع الأطراف، وأول ضحية لهذا المبدأ هو القوانين التى لها علاقة بالعادات والتقاليد والأعراف الإجتماعية ومن ضمنها القوانين المتعلقة بختان البنات، فنحن دائماً عندما نتحدث عن سن قانون للختان نقول فى حواشيه أنه مسموح للأطباء فقط بأن يجروا عملية الختان ،وكأننا نتحدث عن حق الأطباء فى الفيزيته وليس عن حق البنات فى جسد لاينتهك، الختان ممنوع بواسطة الدايات وحلاقين الصحة

والأطباء أيضاً، إننا نتحدث عن مبدأ وعندما نتحدث عن المبادئ لابد ألانساوم أو نستثنى أو نفاصل أو ننافق .

أعترف بأننا لانستطيع منع الختان بمجرد نصوص قانونية، فهذه العادة البربرية لابد أن تستأصل بمزيد من التثقيف والتنوير والوعى وليس بمزيد من القوانين والأحكام والتوصيات، ولكننا لانستطيع أن نغفل أن القوانين مهمة لضبط المسألة، وأن يد القانون تصبح غليظة عندما يريد لها المجتمع أن تكون غليظة، وتصبح متخاذلة عندما يريد لها المجتمع العكس، وسنحاول إستعراض المسيرة القانونية الدولية والمصرية ضد ختان البنات حتى نفهم مدى التقدم فى النضال ضد هذه العادة البغيضة .

كان أول نقاش عالمى لهذه القضية فى عصبة الأمم عام ١٩٣١ فى مؤتمرها بجنيف عندما ناقش وضع الأطفال الأفارقة، وتطرق الموضوع إلى ختان الإناث فى إحدى القبائل الكينية، ولكن المؤتمر رفض الخروج بتوصيات الدول الأوروبية التى حاولت تجريم هذا الفعل، وبعدها فى ١٩٥٨ رفضت منظمة الصحة العالمية تنفيذ الدراسة التى طلبتها الأمم المتحدة لوضع حد لممارسات الختان بدعوى أنها لاتملك صلاحية دراسة مثل تلك الأمور الثقافية !، وظلت طلبات النساء الأفريقيات للمنظمة الدولية بتبنى منع الختان خاصة بعد مؤتمر الأمم المتحدة فى أديس بابا حول مشاركة النساء فى الحياة العامة ،حتى تحقق الحلم وأدين الختان فى ١٩٦٤ فى مؤتمر توجو، ثم صدر أول رد فعل من منظمة الصحة العالمية حول الآثار الصحية الضارة للختان

فى ٣٠ سبتمبر ١٩٧٦ والذى أدان الختان الفرعونى فقط، ثم أتت نقطة التحول فى ١٩٧٩ حين عقدت المنظمة مؤتمراً فى الخرطوم لمناقشة الظاهرة بشكل أكثر حسماً ومنهجية، ومنذ ذلك اليوم ولاتكاد تمر سنة إلا وتصدر المنظمة إدانة وتجريم فى صورة تقارير أو دراسات أو مناشدات، وكان أهمها الدراسة التى أصدرتها منظمة الصحة العالمية ١٩٩٨ وكتبتها د.ناهد طوبيا وسوزان عزت والتى سنعود إليها كثيراً فى هذا الشق من الدراسة حول الرؤية القانونية للختان، ويمكن إختصار موقف الأمم المتحدة من الختان فى النقاط التالية.

* إدانة ختان الإناث بجميع أنواعه وإعتباره مخالفاً للحق فى سلامة الجسد والصحة الجسدية والنفسية ،وصورة من صور التمييز والعنف ضد النساء .

* رفض إجراء هذه العملية فى الأوساط الطبية.

* المطالبة بوضع قوانين لمنع ختان الإناث ومعاقبة من يمارسه حتى الأطباء .

وإذا كان الختان مجرماً طبقاً للقوانين السابقة، فهو مجرم أيضاً طبقاً لحقوق الإنسان فهو تعدى سافر على الجسم وإهدار للحق فى سلامة الحياة والجسد وهما من أهم حقوق الإنسان، فالوثيقة العالمية لحقوق الإنسان تقول فى المادة ٣: لكل فرد الحق فى الحياة والحرية وفى الأمان على شخصه، وفى إتفاقية الأمم المتحدة لحقوق الطفل المادة ٢٤: الإعتراف بحق الطفل فى التمتع بأعلى مستوى صحى، وتتخذ الدول الأطراف جميع التدابير الفعالة بغية إلغاء الممارسات التقليدية

التى تضر بصحة الأطفال، وفى الفقرة الخامسة من القانون الدولى للأخلاق الطبية يجب حماية كل طفل من علاج أو كشف طبى غير ضرورى ، ومن الحق فى حماية الجسد إلى الحق فى عدم التعذيب، والختان لاشك نوع من التعذيب، والحق فى العرض الذى نقسم نحن الأطباء فى البند الثالث ونقول بإزائه أن أحفظ للناس كرامتهم، وأستر عورتهم، والختان هو منتهى إهدار الكرامة وفضح العورة وإنتهاكها .

من الأمم المتحدة ومنظمة الصحة والهيئات غير الحكومية إلى مصر حيث ينطبق المثل السائد اللى إيده فى الميه مش زى اللى إيده فى النار، فنحن فى مصر أيدينا وأرواحنا فى أتون النار التى تحرق كيان البنات ولذلك كان لابد أن نلجأ للقوانين كى نطفئ لهيبها المستعر .

صدر أول نص قانونى حول ختان الإناث سنة ١٩٥٩ تحت مسمى القرار الوزارى رقم ٧٤، وقد وضعته لجنة من الأطباء ورجال الدين من بينهم المفتى حسن مأمون والشيخ حسنين مخلوف، وقد جاء فى المادة الثانية أن تلك اللجنة قررت مايلى :

* أن يحرم بتاتاً على غير الأطباء القيام بعملية الختان وأن يكون الختان جزئياً لاكلياً لمن أراد .
* منع عملية الختان بوحدات وزارة الصحة لأسباب صحية وإجتماعية ونفسية .
* غير مصرح للدايات المرخصات القيام بأى عمليات جراحية ومنها ختان الإناث.

* الختان بالطريقة التى يجرى بها الآن (١٩٥٩) له ضرر صحى ونفسى على الإناث سواء قبل الزواج أو بعده، ونظراً لأن الفقهاء إستناداً إلى بعض الأحاديث الصحيحة قد إختلفوا فى أن خفاض الإناث واجب أو سنة ومنهم من ذهب إلى أنه مكرمة إلا أنهم قد إتفقوا جميعاً على أن شعائر الإسلام والشريعة تنهى عن الإستئصال الكلى .

وعندى تعليق شخصى بسيط على ماسبق وهو أن اللجنة برغم إستنارتها إلا أنها كانت تعانى من الجبن ونفاق المجتمع ومسك العصا من المنتصف ومحاولة حل المعضلة بأسلوب عقيم وهو نشيل حتة بس علشان مانزعلش حد!! ، ولم يناقشوا الأمر على أنه إنتهاك حتى ولو ملليمتر واحد، فالمسألة ليست مسألة مقاييس ولكنها مسألة مبادئ لايمكن المقايضة عليها وأى موارية لنافذة المساومة سيفتح الطريق والمنافذ لإجتياح هواء الأفكار المتخلفة التى لاتلبث أن تتحول إلى رياح عاتية.

كان يوم ٧ سبتمبر ١٩٩٤ يوماً فاصلاً فى تاريخ مناقشة الختان، فقد عرضت السى إن إن فيلماً يصور ختان طفلة تدعى نجلاء على يد حلاق صحة فى مدينة القاهرة، وكانت الظروف حينذاك قابلة للإشتعال فقد كان مؤتمر السكان العالمى مجتمعاً، ووزير الصحة كان قد أدلى بتصريح من عينة كله تمام والأمور مستتبة وأن الختان نادر فى مصر، وجاء هذا الفيلم ليفضح الجميع ويؤكد على أن هذه الهمجية مازال لها أنصار ومؤيدون، ولأن الفضيحة عالمية كان لابد أن تنعقد

اللجان وتنبثق كعادتنا فى مواجهة الأمور بعد إستفحالها ،وضمت اللجنة ٢٢ عضواً منهم الوزير على عبد الفتاح والشيخ سيد طنطاوى مفتى الجمهورية حينذاك، وصدر البيان بعدها بشهر ويومين فى ٩ أكتوبر وكان أول بند فيه ينص على أن ختان الإناث عادة قديمة ومتوارثة ولايوجد نص فى القرآن الكريم أو الحديث بشأنها، وأن حديث ختان الإناث روى من أوجه كثيرة كلها ضعيفة ومعلولة ومخدوشة لايصح الإحتجاج بها، وأن هذه المسألة مردها إلى الأطباء، ولكن تعليمات وزير الصحة كان فيها نوع من التراخى والإعتراف المستتر والكسوف من الإدانة الكاملة والتجريم الحاسم، ففى التعليمات التى أرسلها الوزير فى ١٩ أكتوبر ١٩٩٤ تظهر ميوعة التعامل مع الختان فى عبارات مثل منع إجراء عمليات الختان فى غير الأماكن المجهزة لذلك وكأنه توجد أماكن مكيفة مجهزة للختان وأخرى غير مجهزة ،كيف ونحن نتكلم عن منع الختان نقول فى نفس الوقت وبعد سطر واحد أن هناك أماكن مجهزة لذلك ،إنه تناقض لفظى يعبرعن التناقض العقلى الذى يعشش فى أذهان حتى القيادات التى تتصدى لهذه المسألة من أطباء وشخصيات عامة، وفى عبارة أخرى تقول التعليمات يقوم كل مستشفى تعليمى أو مركزى بتحديد يومين أسبوعياً لإجراء عملية ختان الذكور ويوم آخر لإستقبال الأسر الراغبة فى ختان الإناث وأوصت التعليمات بالتحاور مع الأسرة ولكن إذا أصرت فلامناص من الختان!!، وكأن من يأتى إلى المستشفى ويقول أنا عايز أنتحر أو أبتر ساقى نشكل له لجنة إستماع وإقناع وإن لم يوافق فأمرنا لله نسمع كلامه وننفذ ونقول آمين !،إن هذا التراجع واللاحسم فى مواجهة مثل تلك المشاكل هى التى

تسمح لكل من هب ودب بزرع التوجس فى عقل ووجدان المجتمع بأن هؤلاء الموظفين يقفون أمام الشرع وبهزة بسيطة من الممكن أن يتنازلوا عن تصلب رأيهم فى مسألة الختان .

ولم تكن نقابة الأطباء أفضل من الوزارة فى هذه المسألة ،فقد أصدرت بياناً فى ٢٥ أكتوبر ١٩٩٤ يبيح ختان الإناث ولكن بشروط، وقاتل الله كلمة لكن هذه التى تشبه كلمة لو فى أنها تفتح عمل الشيطان، فكلمة الإباحة فى حد ذاتها جريمة وموقف رجعى مهما ألصقنا بها من اللاكنات!، وكانت الشروط هى أن العملية بعد البلوغ وتكون جزئية لاكلية، وبموافقة البنت وولى الأمر وأن تراعى الأصول المهنية والفقهية !! (ملاحظة لوراعينا الأصول المهنية لن تنفذ العملية من أصله) ، والمدهش ماطالبت به النقابة من عدم تجريم الختان بقانون، وإجراء المزيد من بحوث الختان، ولاحظوا أن هذا البيان كتبه أطباء يعرفون جيداً أن الختان قتل بحثاً وأضراره ظاهرة للأعمى!، وفى لهجة خطابية منبرية يقول بيان النقابة إن الأمة المصرية تنتمى إلى الحضارة العربية والإسلامية والبعد الإنسانى، وهى ذات قيم ومبادئ ومثل وهوية خاصة مستقلة يجب أن تفخر بها وتدافع عنها وتبشر بها بين أمم العالم!!، والسؤال هل الختان أصبح من قيمنا ومبادئنا وهويتنا ،وهل الحضارة تحتاج إلى التمسك بهذه القشور، والتمسح فى العار والإنتهاك والبربرية التى تحدث تحت إسم الإنتماء الثقافى والدينى .

والمدهش أنه بعد كل هذه الضجة والبيانات والتوصيات ظل ختان البنات يجرى بنفس الحماس وفى نفس المستشفيات مستفيداً بالطبع من

كلمة لكن، وقد أوضح بيان المنظمات غير الحكومية الصادر فى مارس ١٩٩٥ ذلك وفضح بعض الممارسات ومنها أن مدير إحدى المستشفيات بالغربية كان يحتكر إجراء العملية لنفسه، وأن الخناقات كانت بين الأطباء المستفيدين من تخصصات الأطفال والجراحة والنساء!، وبعد تغيير وزير الصحة فى ١٩٩٦ فوجئ بفضيحة أعنف وإن لم تكن على الهواء مباشرة فقد ماتت طفلتان أحدهما على يد طبيب، وهنا ظهر أن الأطباء غير معصومين من الخطأ ،وأن المصيبة فى الممارسة نفسها وليست فى من يمارسها ،ولذلك أصدر د.إسماعيل سلام قراره بتاريخ٨/٧/١٩٩٦ بأنه يحظر إجراء عمليات الختان للإناث سواء بالمستشفيات أو العيادات العامة أو الخاصة، ولايسمح بإجرائها إلا فى الحالات المرضية فقط والتى يقرها رئيس قسم أمراض النساء والولادة وبناء على إقتراح الطبيب المعالج، وبرغم الإستثناء فى هذا القرار إلا أنه كان خطوة إلى الأمام ،ولكن قوى التزمت ومن ضمنها طبيب رفعت قضية على الوزير بأن ذلك ليس من حقه وضد الشريعة، وحكمت لهم المحكمة، ثم فى الإستئناف خسر المتزمتون الجولة الأولى ولكنهم لم يهدأوا حتى هذه اللحظة فالقضايا مازالت المحاكم تتداولها وكأن هؤلاء المتزمتين قد جعلوا من هذه الجلدة قضية حياتهم لن تمر إلا على جثثهم!، وهنا تحضرنى ملاحظة لها دلالة، فالبرلمان المصرى عند مناقشة قانون الطفل ١٩٩٦ رأى أن المادة ٢٤٠ من قانون العقوبات تنطبق على عملية تشويه أعضاء الإناث وتكفى لتحريمها ،ولاأعرف لماذا هذا الخوف على النص على تجريم الختان فى قانون منفصل واضح وصريح وحاسم؟، هل هو مغازلة المشاعر والعواطف على

حساب حقوق الإنسان البديهية ؟!،لاأعرف والإجابة ليست عندى بالتأكيد .

من أهم الدراسات المصرية التى تناولت ختان البنات من زاوية المسئولية الجنائية والمدنية دراسة المستشار صلاح محمود عويس والذى كان يشغل منصب نائب رئيس محكمة النقض، والذى يقول إن الجهاز التناسلى للأنثى فى شكله الطبيعى لايعتبر مرضاً، ولايعتبر سبباً مباشراً لإصابتها بمرض معين، ولايعد سبباً مباشراً لإحساسها بالآم مبرحة أو بسيطة، ومؤدى ذلك أن المساس بهذا الجهاز الفطرى لايعتبر علاجاً لمرض، أو كشفاً عن داء، أو تخفيفاً لألم، أو إزالة لألم قائم، فإن هذا الفعل يعتبر خارجاً عن نطاق دائرة التطبيب التى يقوم عليها حق الطبيب فى علاج المرضى، ويعتبر الطبيب لذلك مرتكباً جريمة جرح عمدية يعاقب عليها بالمادة ٢٤١ أو المادة ٢٤٢ من قانون العقوبات ،وتتحقق بذلك المسئولية الجنائية والمدنية للطبيب الذى أعتبر فاعلاً أصلياً لأنه هو الذى إرتكب الفعل المادى للجريمة وتتحقق كذلك مسئولية الولى أو الوصى بإعتباره شريكاً للطبيب، ويؤكد د.محمد فياض على نفس المعنى قائلاً إن للطب أخلاقاً أبرزها عدم إجراء عملية طبية إلا إذا كانت لها فائدة صحية وخالية من الضرر الجسمانى وبالمنطق نفسه فإذا ثبت أن أية عملية ليست لها فائدة طبية أو تؤدى إلى مخاطر، فإن من الأخلاقيات عدم إجرائها بل وهذا ما أصر عليه تجريم الطبيب الذى يجريها، ورأيى أن الطبيب الذى يوافق على إجراء عملية ختان الإناث يتساوى مع الذى يوافق على عمليات الإجهاض المفتعل، وأن تجريم الثانى يستوجب تجريم الأول .

ويرد مؤيدو الختان على هؤلاء بأن الختان لايستحق عقوبة قانونية لأنه من باب التـأديب الذى يمارسه ولى الأمـر على البنت، ويرفض المستشار صلاح عويس هذا المنطق بقوله: إن ولاية الولى تتحدد فى أموال له، فهو يتصرف فيها طبقاً لضوابط معينة، أما بالنسبة لنفس الصغير أو الصغيرة فإن ولايته هى حقه فى التأديب والتعليم، وحق التأديب طبقاً للشريعة الإسلامية ينحصر فى توجيهه إلى السلوك القويم والعادات الحسنة ،والترغيب بالضرب غير المبرح للعادات السيئة ،فهل من المنطق والعقل يعتبر حرمان الصغيرة من جزء من عضو فطرى خلقه الله بجسدها من باب التأديب والتهذيب !!.... ودعم المستشار تساؤله بكيف نطلق عليه تأديباً وأكثر النساء اللاتى يمتهن الدعارة مختتنات، وأيضاً يرفض المستشار إطلاق صفة التجميل على ختان البنات فيقول عمليات التجميل التى أصبحت ضمن الجراحات الطبية يقصد بها إصلاح العضو أو تقويمه أو إزالة زائد فيه، أو بمعنى آخر محاولة إعطاء عضو من أعضاء الجسم أو جزء منه الشكل الطبيعى الفطرى، وهذه هى الغاية من عملية التجميل ،فهل يتفق ذلك مع عملية الختان، وهى فى كل صورها تعتبر تغييراً للشكل الطبيعى للعضو التناسلى للأنثى حسب فطرته التى خلقه الله عليها، بالطبع لا ، ومن ثم فلاتكون هذه العملية بمثابة تجميل بل هى فى حقيقتها إنتهاك لجسد الأنثى، وقد كتب المحامى الشهير أحمد شنن فى جريدة الأخبار مقالاً أشار فيه إلى دور وحق النيابة العامة فى تقديم مرتكب هذا الفعل للمحاكمة وإعتبار جريمة الختان جريمة تلبس والتى تتيح لمأمورى الضبط القضائى القبض على الفاعلين والشركاء وتقديمهم للنيابة العامة

إن القانون وحده لايستطيع بجرة قلم أن يلغى عادة إجتماعية راسخة ومتجذرة كالختان، إنه يحتاج إلى جانبه الإستنارة فى التفكير، والحسم فى التنفيذ، والإقتناع بأن هذه العادة الوحشية لاعلاقة لها بالشرف ولابالعفة، والتأكد من أن المرأة ليست عدواً ولكنها شريكة حياة ورفيقة درب .

* * *

الختان ... قراءة طبية
الختان بين الفوائد الوهمية والاضرار الصحية
الختان قاتل العلاقة الزوجية

الحجج التى يسوقها مؤيدو الختان هى مجرد أوهام تعشش فى عقولهم، يسبغون عليها صفة العلم ويغلفونها بورق زينة ملون من المصطلحات الأكاديمية التى يحسبون أنها الممر الآمن لعبور وترويج أكاذيبهم وخيالاتهم وتهاويمهم، ومازال مغول الفكر الرجعى وتتار القرون الوسطى يصرون على سيادة الشكليات بإسم الحفاظ على الشرف، وترهيب نصف المجتمع بإسم كبح جماح الشهوة، ولايعرفون أن الشرف سلوك لاتضبطه الداية أو حلاق الصحة، وأن الشهوة الجامحة لن يلجمها بتر عضو أو نزف دم، وأن المجتمع الواثق من نفسه لايزرع ألغاماً فى أجساد بناته بدعوى أنه يحافظ عليهن من الإنحراف ،فالإنفجار عندما يحدث سيحرق الجميع وأولهم المجتمع نفسه .

مايدعيه مروجو فكرة الختان يذكرنى بإحدى الإعلانات الطريفة عن حزام العفة التى ذكرت فى كتاب THE GIRDLE OF CHASTITY تأليف Dingwall وهو من مؤلفات القرن التاسع عشر يقول الإعلان لاإغتصاب بعد الآن، آلة تحفظ إخلاص النساء، مع درع وقفل ومفتاح بسيط ١٢٠ فرنك، مع درع وقفل ومفتاح مشغول بفن ١٨٠ فرنك ،مع درع وقفل ومفتاح من الفضة صناعة متقنة جداً ٣٢٠ فرنك..ترسل بناء على حوالة بريدية للسيد فلان، والإختراع الكل يعرف فائدته، فبفضله يمكن التأمين على الشابات من المصائب التى تسبب لهن الخزى، وبفضله يمكن للزوج أن يترك زوجته دون خوف من تدنيس شرفه، وهكذا لاعار بعد الآن ،فبفضله سيتأكد الآباء بأنهم الآباء الشرعيين ،إنه أكبر خدمة للأخلاق !!!.

أعتقد أن مايقوله مؤيدو الختان هذه الأيام لايختلف كثيراً عما قاله الإعلان السابق، فنفس الأفكار المتخلفة التى يتبناها إعلان القرن التاسع عشر عن الأخلاق وكيفية الحفاظ عليها هى نفس الأفكار التى ينطلق منها مؤيدو الختان، وأعتقد أنه لو قدر لمؤيدى الختان عمل إعلان فى الجرائد أو التليفزيون لن يختلف عن هذه الصيغة السابقة بل سيكون أكثر كوميدية وأقترح الصيغة التالية بضربة مشرط وكبسة بن ستحافظ على أخلاق إبنتك مدى الحياة،شيل الجلدة ونام مستريح البال أيها الأب المسكين!!،معذرة على هذه الكوميديا فى موقف لايتحمل إلا البكاء، ولكننا أحياناً نحتاج إلى الكوميديا السوداء لكى نعبر عن العبث الذى يخاصم العقل ولايفسره إلا عبث مثله .

أولى المفاهيم المغلوطة التى تحكم نظرة المجتمع وتجعله يقبل ختان البنات، هو مايروجه البعض من كلام مرسل عن أن الأعضاء المبتورة بالختان تزيد من شهوة المرأة ،كما يقول عبد السلام السكرى إنه يحد من غلواء شهوة المرأة حتى لاتقع فى المحظور، وهو نفس الإعتقاد الشعبى الذى تعبر عنه الشابة آمال التى تقول فى تحقيق مجلة صباح الخير ١٩٩٤/١١/٣ حينما وضعونى على الماجور كنت أستعطف أمى قائلة :يامه حرام عليكى تعملى فى كده ؟، أهون عليكى يامه ؟، فقد كنت كبيرة ١١ سنة، وأعى الأحداث التى حولى ،كما كنت قد رأيت بنات كثيرة أجريت لهن هذه العملية ومدى الألم الذى تعرضن له، كانت أمى كما أتذكر تبكى معى وهى تخلعنى ملابسى قائلة علشان تكبرى وتفورى وتتخلى، ولاأنسى نظرات عم إسماعيل الحلاق فى جسدى كله وهو يعد الموسى ويسألهم أكلتوها اللحمة وشربتوها اللبن ولالسه ؟، حينما لمسنى صعب عليا جسمى الذى أخفيه عن أبى وأمى وأخوتى، بعدها وضع لى شوية بن وقطن ونصحنى ألا أتحرك من سريرى عشرة أيام ،كل هذا كوم وعذاب أول مرة أدخل الحمام كوم تانى، بل كثيراً ماأشعر به للآن !، وتتفق آمال مع أم سعيد الفلاحة المصرية التى ذكرها طبيب النساء مصطفى بدوى فى كتابه عن الختان حين قالت إن الرجال يحبون الزوجة التى لايسهل إثارتها لأن هذا معناه أنه يمكن الوثوق بها ، وإذا قيل هذا الكلام من فلاحة بسيطة فهو مقبول ولكن أن يقال من طبيب كبير فهذا هو المستغرب والمثير للدهشة فالدكتور حامد الغوابى يردد للأسف نفس منطق أم سعيد فهو يقول إن الرجل دائماً أكبر من زوجته فى السن، وقد يكون الفارق بينهما عشر

سنين أو خمس عشرة أو عشرين سنة أو أكثر كمانرى فى بلادنا، فمابال هذا الرجل إذا بلغ سن الخمسين أو أكثر ،وقد فتر نشاطه وضعفت حيويته، وكانت زوجته لاتزال فى سن الثلاثين أو أقل بأعضائها السليمة الحساسة، كيف لمثل هذا الرجل أن يحتفظ بصحته وهو يجد أمامه زوجة لاتزال فى عنفوان الشباب، قوية الإحساس، وهو قد فتر إحساسه ،شديدة الميل وهو قد قل ميله، فماذا تكون النتيجة؟، هنا يضطر الرجل إلى تناول المكيفات كالحشيش، ولكن فى الحالة الأولى التى تختتن فيها المرأة نصف إختتان يكون إحساسها معقولا، والزوج والزوجة فى حالة متساوية !!!.

بالطبع كنت أريد أن أضع مليون علامة تعجب بعد هذا الكلام، وأتساءل هل هذا منطق؟، وألا تلاحظون معى أن الكلام كله والتركيز على الرجل وكيف يكون سعيداً وغير مرهق ومطمئن على فحولته؟!، وأن مشاعر وعواطف المرأة هى فى آخر القائمة إن لم تشطب منها أصلاً!، وهل حل مثل هذه المشكلة التى يتحدث عنها الدكتور الغوابى تكون بالبتر أم بتحجيم ظاهرة فارق السن الرهيب بين الزوج والزوجة أم أن كاهل الزوجة هو الذى لابد أن يتحمل كل شئ ؟!، وهل يرضى الزوج أن يحل هذه المشكلة بإخصائه؟!، ولنفرض أن هناك فرقاً فى السن فلابد أن نفهم أن الجنس ليس محصوراً فى المفهوم الميكانيكى الضيق وأن له أبعاداً إنسانية وحسية أعمق وأشمل من هذا السباق الذى يتصوره هؤلاء المؤيدون مابين فحولة الرجل وشهوانية المرأة التى يتخيلونها أفعى بفحيح لاينقطع، وهذا للأسف خيال مريض يتصور المرأة دائماً كفتاة من فتيات البورنو !.

لايحاول مؤيدو الختان فهم الحقيقة الطبية التى تقول أن المخ هو العضو الجنسى رقم واحد فى الإنسان، وأن الأعضاء التناسلية ماهى إلا منفذ لأوامر هذا المايسترو، فالمخ هو مصدر الرغبة الجنسية ومحرك الشهوة، ولذلك فإزالة البظر وبتره لايلغى الرغبة الجنسية ولايكبح الشهوة كما تتخيل جمعية محبى الختان، وأننا لو أردنا أن نفرمل هذه الرغبات والشهوات ماعلينا إلا تنفيذ أمر طبى واضح وصريح وهو بتر المخ مصدر هذه الشرور والآثام !!، والحقيقة أن كل ماتخرج به البنت الغلبانة هى أن الختان لايقتل عندها الرغبة بل يقتل عندها الإشباع ،بمعنى آخر يعاملها المجتمع كما يتعامل مع حيوان يجوعه ويحرمه من الطعام وعندما يضع أمامه طعاماً يجعله يشمه فقط بأنفه حتى لايدخل جوفه !!، إنه التعذيب بعينه، والقهر فى أعلى صوره، والقمع كما يجب أن يكون فى سجون النازية والفاشيست .

رغم أن عكس المفهوم السابق هو الصحيح، وبرغم أن العلاقة الزوجية تتأثر فإن معظم الناس نتيجة للتغييب والتزييف العقلى والروحى يركبون موجة الدروشة ويستجيبون للدعوة القائلة أن الختان مفيد للعلاقة الزوجية، ويعارض د.ماهر مهران هذا المفهوم قائلاً إن نسبة الضعف فى التجاوب فى التى أجريت لهن عملية الختان تصل إلى ٥٤%، ويرجع هذا إلى إستئصال المناطق الحساسة اللازمة للتفاعل الجنسى، ومما لاشك فيه أن عدم تجاوب المرأة فى اللقاء الجنسى يؤدى إلى مشاكل عديدة أولها عدم تواصل التعاون الجنسى بين الزوج والزوجة، مما يؤدى إلى إحتقان مزمن فى الحوض والألم والإفرازات بجانب التوتر العصبى والنفسى، وقد أدى ذلك فى كثير من الحالات

إلى مشاكل أسرية عنيفة قد تنتهى بالطلاق، كما أن ذلك سبب من الأسباب الهامة التى أدت إلى إنتشار المخدرات بين الأزواج متصورين أن فى ذلك حلاً للمشكلة، ويضيف د.ماهر مهران قائلاً عن تأثيره على الزوج فيقول لاشك أن المشاكل الجنسية والنفسية الناتجة عن طهارة الإناث تنعكس على الزوج، وقد وجد أن ١٠% من الأزواج يشكون من ضعف أو سرعة، كما أن ١٨% من الأزواج يستعملون المخدرات، كما أن ٣% من الأزواج متزوجون من زوجة أخرى حلاً للمشاكل الجنسية والأسرية، وتؤكد د.سهام عبد السلام على نفس المعانى قائلة فى حالة الإحباط الجنسى المتكرر قد يحدث إكتئاب لدى بعض السيدات، أو قد يدفع ببعضهن للعصبية وإثارة النكد بلامبرر، وقد تنحرف من لم تحظ بتنشئة إجتماعية قويمة وتبحث عن أكثر من شريك لمحاولة الوصول إلى الإشباع الجنسى الذى ينقصها . .

وهكذا تحدث الصدمة لدى المجتمع الذى يتخيل أنه يزرع الفضيلة فيجد أنه قد حصد الخيانة، ويخبرنا د.سامى الذيب عن هذا المعنى عندما كتب عن الدراسة التى أجرتها الطبيبة KOSO-SOMAS فى سيراليون والتى كانت نتيجتها ضعف التجاوب الجنسى الذى يصل إلى حد فقدان الرغبة فى الحياة عندما ترى أن زوجها يتركها عاطفياً ليذهب إلى أخرى لعدم تجاوبها معه جنسياً، وتشير هذه الطبيبة إلى أنها قامت بمقابلات مع ٥٠ سيدة مارست الجنس قبل ختانها، وقد تبين أن لاأحد منهن قد وصلت بعد الختان إلى مستوى اللذة التى كانت تشعر بها قبل الختان ،ولم تكن هؤلاء السيدات تعى أن سبب ذلك هو الختان وقد حاولت بعضهن البحث عن الزوج المثالى متنقلة من رجل إلى آخر

ممأأدى إلى فقدان زوجها وخراب بيتها، هكذا بدلاً من أن يكون ختان الإناث وسيلة لمنع العلاقة الجنسية خارج الزواج، أدى ذلك الختان إلى نتيجة عكسية تماماً، والغريب أن بعض أهل العلم الذين من المفترض أن يتحلوا بالمنهج العلمى فى التفكير، الغريب أنهم مازالوا يرددون نفس الكلام القديم الذى ردده بعض العرب قديماً نتيجة جهلهم حينذاك بعلوم التشريح والفسيولوجى، فنراهم كأنهم مرآة للجاحظ حين قال فى كتابه الحيوان «البظراء تجد من اللذة مالاتجده المختونة»..، وزعم جناب بن الخشخاش القاضى أنه أحصى فى قرية واحدة النساء المختونات والمعبرات «فوجد أكثر العفائف مستوعبات (أى مختونات)، وأكثر الفواجر معبرات (أى غير مختونات)، وأن نساء الهند والروم وفارس إنما صار الزنى وطلب الرجال فيهن أعم لأن شهوتهن للرجال أكثر، ولذلك إتخذ الهند دوراً للزانيات، قالوا :وليس لذلك علة إلا وفرة البظر والغلفة!!، وبالطبع لاتعليق على هذا الكلام إلا أنه كلام مرسل يغفر لصاحبه أنه قد كتبه منذ قرون عديدة حيث كان العلم مفتقداً للكثير من أدواته المنهجية، والرد على هذا الكلام بسيط جداً كما ذكرنا من قبل فالعفة التى يتحدث عنها الجاحظ لايخلقها الختان، والفحش والعهر والزنا وخلافه من السلوكيات الجامحة لاتنتشر فى مجتمع لأن نساءه غير مختونات بل لأن المجتمع يوجد به أعراض خلل متعددة منها الإقتصادى والإجتماعى والسياسى .. الخ فتتجه النساء إلى ممارسة الدعارة إما للتكسب أو للإحتجاج أو لأن التلوث الأخلاقى صار شيئاً طبيعياً وغير مستهجن فى المجتمع وليس لأن فيه جلدة زائدة عند نسائه !!،ويردد المحدثون من هذا التيار المؤيد للختان نفس كلام إبن

تيمية فى فقه النساء والطهارة حين قال أنه يوجد نوع من السباب والشتيمة وهو يابن الغلفاء! ويبرر ذلك بأن الغلفاء تتطلع إلى الرجال أكثر ،ولهذا يوجد من الفواحش فى نساء التتر والأفرنج مالايوجد فى نساء المسلمين، ويؤكد على نفس المعنى إبن قيم الجوزيه حين يبرر إجراء الختان بأن فيه تعديل للشهوة حين يقول إذا أفرطت الشهوة ألحقت الإنسان بالحيوانات، وإن عدمت بالكلية ألحقته بالجمادات، فالختان يعدلها ولهذا تجد الأغلف لايشبع !!!!، وينقل لنا الباجى فى كتابه ،المنتقى قول أحد الفقهاء ومن إبتاع أمة (جارية) فليخفضها إن أراد حبسها، وإن كانت للبيع فليس ذلك عليه، والمعنى خطير وملخصه أنه إذا أردت السيطرة على الجارية وتلجيمها فعليك بالختان! وكأنك تضع لجاماً فى فك حيوان .

وهناك بعض الحجج الكوميدية التى يلبسها مرددوها رداء العلم حتى تمر تحت قوس النصر الإجتماعى!، ومن ضمن هذه الحجج الواهية أن حرارة الجو تؤثر على السيدات الشرقيات وتزيد من حساسيتهن الجنسية ،فعلى سبيل المثال كتب د.عبد الرحمن العدوى الأستاذ بالأزهر إن البنت فى بلاد المشرق وهى غالباً بلاد حارة أكثر أيام العام، إذا لم تعمل لها عملية الختان، فإنها مع هذا الجو الحار تكون ذات رغبة جنسية جامحة ،تقل لديها جانب الحياء ... ، وهذا حديث يجافى المنطق فضلاً عن العلم ويفترض أن الدول ذات المناخ الحار هى دول ملعونة بالرغبة المتأججة، ولايوجد فى الدنيا من يربط بين درجة الحرارة التى تعلنها الأرصاد وبين الرغبة الجنسية، وثانى الحجج التى يسوقونها هى أن إحتكاك الملابس يزيد من الإثارة وهو قول غريب جداً

فالرجل الذى يملك ماهو أضعاف أضعاف هذا الجزء الضئيل الموجود في المرأة والمختفى أصلاً، هذا الرجل لوطبقنا عليه نظرية إحتكاك الملابس لخرجنا بكارثة أخلاقية تعصف بالمجتمع كله، والحجة المماثلة هى أن الختان يحمى السيدات من إثارة وسائل المواصلات المزدحمة، وكما يقول شيخ الأزهر الراحل جاد الحق الفتاة التى تعرض عن الختان تنشأ من صغرها وفى مراهقتها حادة المزاج سيئة الطبع ، وهذا أمر قد يصوره لنا ماصرنا إليه فى عصرنا من تداخل وتزاحم بل وتلاحم بين الرجال والنساء فى مجالات الملاصقة والزحام التى لاتخفى على أحدا، وأعتقد أن مثل هذا الكلام ينسى الرجال تماماً ويعاملهم على أنهم ملائكة برغم أنهم كما ذكرنا يملكون أضعاف المبررات التى يسوقونها تبريراً لختان البنات فهل نقوم بعملية إخصاء مثلاً حتى لايحدث ذلك للرجال فى وسائل المواصلات؟، وهل نطبق الختان طبقاً لتلك النظرية على الموظفات فقط ونخص راكبات الحافلات!!!، والحجة التالية هى حجة أن الختان يحمى البنت من الإثارة التى يتسبب فيها التليفزيون كما قال أبو آلاء الجمل فى كتابه نهاية البيان «نحن أيها الأخوة نعيش فى عصر طغت عليه المادة وأصبح يموج بشتى ألوان الفجور والفسق من نساء كاسيات عاريات، من دور سينما ومسارح ومن وسائل إعلام هدامة ...هل نتركها ببظرها كاملاً أمام أية إثارة بسيطة تؤدى بها إلى الهلاك ومسالك الشيطان ؟، ماذا لو قامت إبنتك ففتحت التليفزيون ورأت فيلماً مثيراً وهى لم تخفض ولم تختتن ؟،فماذا تفعل هذه الفتاة المسكينة» !! ، إنها فعلاً مسكينة بمثل هذه الأفكار التى تسيطر على عقلية مجتمعنا الذى يحكمه هاجس ووسواس وفوبيا الجسد فى كل

تصرفاته ،إن البعض يصل فى تفسيره المقيت المتهافت إلى أن عدم الختان هو السبب في إصفرار وجه البنت وهزالها وعدم تركيزها فى الدراسة !!، ووصل الشطط بالبعض إلى تبرير الختان بسفر رب العائلة إلى دول الخليج كما يقول أبو آلاء فى كتابه السابق عندما ذكر أن حسب الإحصائيات يوجد حوالى خمسة ملايين مصرى فى شتى بقاع العالم ،وعلى أقل تقدير نصف هؤلاء بالطبع ترك زوجته، ومن يسافر من هؤلاء لايرجع إلا بعد سنة فى المعتاد ،بالله عليكم ماذا تفعل زوجة هجرها زوجها لمدة عام كامل ...بالطبع لو كانت الزوجة قد خفضت فإن ذلك يهذب من شهوتها فتحفظ زوجها وبيتها !، وأتساءل لماذا هذا التصور المريض عن نسائنا أنهن مجرد حيوانات جائعات للجنس؟، كيف يدعى هؤلاء أنهم يحترمون المرأة ويقدرونها ويعتبرونها الجوهرة المصونة والدرة المكنونة وهم يصفونها بهذه الأوصاف ويصمونها بهذا العار ،والغريب أنهم يطلبون العفة للمرأة فقط ويطنشون عنها بالنسبة للرجل، ويتناسون أن معظم من يتم ضبطهن فى بيوت البغاء مختونات ولم يمنعهن ختانهن من ممارسة الرذيلة !!،ولنستمع إلى هذه الأم المصرية التى تحدثت فى جريدة الشعب ١٨/١١/١٩٩٤ وهى تقول عن نفس المعنى «الختان عندنا فى القرية عادة مرتبطة بشرف البنت، فهو ضمان عقلها والمسألة تتجاوز الأهل، فالأم التى لاتجرى هذه العملية لإبنتها وتعلن عن ذلك وسط نساء القرية، تعلم أن إبنتها ستتهم بعد ذلك بالفجور ،وربما لايتقدم للزواج منها أحد، لأنها ستكون فى نظرهم عينها بجحة وقليلة الأدب، والأمر لاشأن له بالدين ،إنه عرف قوى، وأنا شخصياً لاأجرؤ على عدم ختان بناتى، بتوع مصر القاهرة

يقدروا، لكن عندنا لأءدى كانت تبقى فضيحة للبنت وأنا لازم أستر عليهم» !!.

ومن الحجج الواهية التى تتمسح بالعلم إلى الأضرار الصحية التى رصدها العلم ،فالختان يحمل فى جعبته الكثير والكثير من المآسى والكوارث الصحية التى تبدأ بالنزيف وتنتهى بالموت، والنزيف أحياناً يكون بسيطاً وتزيد إلتهاباته بالبن وتراب الفرن والقرض وخلافه من الأشياء التى نكتم بها النزيف، وأحياناً يكون النزيف شديداً بسبب إصابة الشريان البظرى نفسه، ومن الأضرار الصحية الصدمة العصبية الشديدة التى تحتاج النقل إلى المستشفى، ومن الحوادث المعتادة أثناء عملية الختان وبسبب تلوى البنت وعدم السيطرة عليها من الممكن أن يمتد المشرط ويجرح أعضاء أخرى مثل مجرى البول أو الشرج...الخ، وقد سجلت بعض الحالات التى إنتهت بعدم التحكم فى البول والبراز وأيضاً سجلت حالات ـ ويااللقسوة والبشاعة ـ كسر للترقوة من جراء الضغط العنيف على عظام الطفلة البريئة، أما المتاعب البولية بعد الختان فلاتحصى فالخوف من التبول على الجرح من الممكن أن يؤدى إلى إحتباس البول ،ووجود الصديد به من تراكم الميكروبات، والتهابات المثانة والكلى، ومن الممكن أيضاً أن تمتد الإلتهابات والميكروبات للأعضاء التناسلية الداخلية كالرحم والمبيض وقناة فالوب مما يؤدى فى النهاية إلى العقم، ويذكر د.سامى الذيب أن ٢٥٪ من حالات العقم فى السودان سببها الختان ،هذا فضلاً عن الألم الذى تحدثه الندبات الناتجة عن الختان ،وعندما يلتئم الجرح بالنسيج الليفى المفتقد للمرونة التى تتطلبها عملية الوضع التى من الممكن أن تنتهى بكارثة وتعسر مرور

رأس الجنين، والتهابات بغدد بارثولين وتعسر الطمث نتيجة لعوامل نفسية نتيجة الصدمة أوعضوية بسبب الإلتهابات والإحتقان وخلافه .

نأتى إلى أخطر الأضرار الصحية وكارثة الكوارث وأم المآسى الوفاة، عندما يهمد جسد طفلة فجأة بعد أن كان يملأ البيت ضجيجاً، عندما تودع الحياة من كانت تتشبث بأطراف ثوبها ،عندما تموت نتيجة جهل عندما تذبح بسكين التخلف وبلاسبب، ومن ركام أخبار الوفيات الناتجة عن الختان نقتبس هذا الخبر لنقرأه سوياً، الخبر منشور فى الأهرام ١٦ أكتوبر ١٩٩٦ ويقول «أمرت نيابة أرمنت بقنا بضبط وإحضار طبيب الوحدة الصحية لبلدة الضبعية للتحقيق معه حيث تسبب فى وفاة طفلتين فى يوم واحد إثر قيامه بإجراء عمليتى ختان لهما فى مسكن كل منهما، فأصيبت الطفلتان بنزيف حاد مما تسبب فى وفاتهما ،تبين من التحريات أن الطفلتين المتوفتين هما أميرة محمود حسن (٤ سنوات ووردة حسن السيد (٣ سنوات)، وأن والد كل منهما إتفق مع الطبيب وإسمه عزت شلبى سليمان على إجراء عمليتى الختان مقابل عشرة جنيهات للعملية الواحدة»، إنتهى الخبر ولكن لم تنتهى المهزلة، فبعشرة جنيهات نقدم بناتنا إلى عزرائيل، بعشرة جنيهات نبيعهن فى سوق النخاسة لكى يتحول الوجه المشرق بالحمرة إلى جمجمة، ويتحول الجسم النامى الذى مازالت براعمه تغازل الشمس إلى جثة، والفستان إلى كفن، والضحكة إلى ندب وتعديد، والمهد إلى قبر، وأعواد الفل والياسمين إلى كتلة صامتة وجافة من الصبار، ببساطة تتحول البنت إلى مجرد رقم فى شهادة وفاة سرعان مانوارى عارها التراب .

* * *

الختان والدين

قراءة دينية للختان

الختان لم يذكر فى القرآن وجميع الاحاديث التى تناولته ضعيفة

من أسماء الله الحسنى الرحمن الرحيم، والدين هو الرحمة...هو السكينة... هو الحنو...هو الأمان...هو الكرامة .. هو الإنسانية، والختان من المؤكد أنه يتعارض مع الدين الحنيف لأنه إجراء شرير لايعرف الرحمة، ويخلو من السكينة، وقلب من يجريه لايعرف الحنو، تفقد معه بناتنا إحساس الأمان، وتنزع من كيانهن الكرامة، لأن من يأمرون به ويدعون إليه ضد الإنسانية .

أرجو قبل الخوض فى موضوع الختان من الناحية الدينية معتمداً على آراء رجال الدين المستنيرين والمفكرين الإسلاميين الذين يقرأون الواقع ويجددون فى الخطاب الدينى ،أرجو من الجميع أن يقرأوا معى

القرآن الكريم الذى لم يذكر الختان فى أى آية من آياته، لكى نتعرف على فلسفته فى التعامل مع الجسد البشرى وإحترام حرمته، الجسد المقدس الذى كرمه الله سبحانه وتعالى، لنقترب من هذه الآيات ونتأمل :

*خلق كل شئ فقدره تقديراً [سورة الفرقان]

* أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً [سورة النور]

* فطرة الناس التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله [الروم]

* الذى أحسن كل شئ خلقه [السجدة]

* لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم [التين]

* كل شئ خلقناه بقدر [القمر]

*وقال الشيطان لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ولأضلنهم ولأمنينهم ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولأمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً [النساء]

وقد علق المفكر الإسلامى د. محمد سليم العوا فى مقال بجريدة الشعب ١٨/١١/١٩٩٤ على هذه الآية الأخيرة بقوله القرآن الكريم جعل من المعاصى قطع بعض الأعضاء ولو من الحيوان، بل هو ماتوعد الشيطان أن يضل به بنى آدم فى أنعامهم وقرنه بتغيير خلق الله، والختان للإناث بصورته التى يجرى بها فى مصر، وفى أجزاء أخرى من العالم الإسلامى، فيه تغيير خلق الله، ومن قطع بعض الأعضاء المعصومة مالايخفى، وإذا كان هذا فى الحيوان من أضلال

الشيطان فكيف يكون فى حق الإنسان؟!، ويقول الشيخ عبد الرحمن النجارعن نفس المعنى البنت الصغيرة التى يريد أبواها أن يختناها لو كانت عندها قدرة على التعبير لصاحت فى وجههما : إتركانى ولاتعذبانى، والإسلام نهى عن التعذيب، والرسول قال: من آذى مسلماً فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله، إتركانى لطبيعتى الأنثوية التى خلقنى الله عليها ولاتضرانى صحياً ونفسياً وإجتماعياً، والله تعالى يقول :لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم، إن هذا هو نداء الفطرة التى فطرنى الله عليها ،وإقتبست د.نوال السعداوى من جوهر الدين ماساعدها على تكوين رأيها فى الختان بنفس المعنى الذى وصل إليه المفكران الإسلاميان السابقان وإن إختلفت الألفاظ، فهى تقول فى كتابها المرأة والصراع النفسى: إن الدين بمعناه العام هو الصدق والمساواة والعدالة والحب والصحة لجميع الناس رجالاً ونساء، ولايمكن أن يكون هناك دين يدعو إلى المرض أو تشويه أجساد البنات وقطع بظورهن، وإذا كان الدين من عند الله فكيف يمكن للدين أن يأمر بقطع عضو فى الجسم خلقه الله ،المفروض أن الله لايخلق الأعضاء إعتباطاً، ولايمكن أن يخلق الله البظر فى جسد النساء ثم ينزل على الناس ديناً يأمرهم بقطع هذا البظر، فهذا تناقض خطير لايقع فيه الله سبحانه وتعالى، وإذا كان الله قد خلق البظر كعضو حساس للجنس وظيفته الأساسية والوحيدة هى الإحساس بلذة الجنس، فمعنى ذلك أن الله قد أباح للنساء اللذة الجنسية وأنها جزء من الصحة النفسية، وعلى هذا فإن المرأة التى تحرم من اللذة الجنسية تحرم جزء من الصحة النفسية، ولايمكن أن تكتمل صحة المرأة النفسية بدون إكتمال لذتها الجنسية، وهكذا ومن إحساسنا ومعرفتنا

بالمقاصد الكلية للدين وفهمنا المستنير لفلسفة القرآن نستطيع أن نصل إلى تأكيد بأن الختان يتعارض مع الدين ومع القرآن، وأيضاً مع قواعد الشريعة التى تحكم الإجتهاد والتى لخصها د.شوقى الفنجرى فى كتابه عن الختان فى النقاط التالية :

* أنه لايجوز أخذ أى تشريع أو قاعدة شرعية من حديث ضعيف، لأن معنى الحديث الضعيف أنه قد يكون مكذوباً أو موضوعاً لغرض ما .

* أنه إذا إختلف الرأى بين عالم الطب وعالم الدين فى قضية علمية أو طبية فإن رأى الطبيب هو الذى يؤخذ به لأنه أكثر فهماً ودراية فى تخصصه .

* فى الشريعة قاعدة تقول لاضرر ولاضرار، ومعنى ذلك أن أى مسألة يكون فيها ضرر للمسلمين حسب رأى أهل الإختصاص فعلى المشرع أن يتركها ويتجنبها .

نأتى بعد ذلك إلى السنة التى يعتمد مؤيدو الختان والمدافعون عنه عليها كسند لهم ودليل على قوة حجتهم، وسنقوم بالرد عليهم من خلال تفنيد رجال الدين لآرائهم وللأحاديث التى إعتمدوا عليها ،ونثبت أن مايدافعون عنه فى الحقيقة هو موقفهم الرجعى من المرأة وإرتباطهم بعادات وتقاليد زائفة وليس دفاعهم عن الدين وجوهره وغاياته، ونبدأ اولاً قبل الخوض فى الأحاديث وبيان صحتها بسؤال عقلى غاية فى البساطة، وهو هل ختن الرسول بناته ؟، ولو كان قد فعل فإن المؤيدين سيكون لديهم الحق والدليل الدامغ، ولكن المدهش أن الإجابة هى

بالنفى وأن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يفعل ذلك، وأن هذا السؤال البسيط لم يفكر فيه المؤيدون برغم بساطته وبديهيته، وقد أجاب الشيخ عبد الرحمن النجار عن هذا السؤال فى كتابه «موقف الإسلام» بقوله «والرسول كانت له أربع بنات ولم يؤثر فى سيرته أنهن أختتن»، وقد آثرت أن أذكر هذا قبل الخوض فى تفاصيل الأحاديث لأقول أن السيرة تؤيدنى، وأننا سنخوض فى بحار عميقة من الجدل قد كفانا الرسول ـ ﷺ جهد الخوض فيها بسيرته العطرة نفسها، ولكن علينا لكى نكمل البحث ونفحم مؤيدى الختان الذين غسلوا العقول، أن نعرض للأحاديث التى يعتمدون عليها أولاً ثم نرد عليها من واقع إجتهادات رجال الدين المستنيرين .

* الحديث الأول هو الختان سنة للرجال مكرمة للنساء وهذا الحديث منقول عن الحجاج بن أرطأة، ويقول القرطبى وبن حجر والحجاج ليس ممن يحتج به .

* الحديث الثانى والذى قيل بصيغ مختلفة من ضمنها إذا إلتقى أو مس أو جاوز الختان الختان فقد وجب الغسل .

* الحديث الثالث وهو أشهرهم وهو الذى إستخدمه مؤيدو الختان «ورواياته مع إمرأة تختن الجوارى» فى الرواية الأولى دون ذكر إسم إمرأة أو مع ذكر إسم أم عطية وأم أيمن وأم طيبة، والرواية الثانية ذكر فيها إسم أم حبيبة وأم حبيب، وقد جاء فى سنن بن داود إن أمرأة كانت تختن بالمدينة، فقال لها النبى لاتنهكى فإن ذلك أحظى للرجل وأحب للبعل، وقد علق عليه أبو داود فى سننه الجزء الخامس قائلاً ليس

بالقوى وقد روى مرسلاً، ومحمد بن حسان مجهول، وهذا الحديث ضعيف، والرواية الثانية عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله لأم عطية إذا خفضت فأشمى ولاتنهكى فإنه أسرى للوجه وأحظى عند الزوج، وقد قال بن داود عن هذا الحديث حديث ختان المرأة روى من أوجه كثيرة، وكلها ضعيفة معلولة مخدوشة ولايصح الإحتجاج بها وهناك رواية ثانية المشهورة بإسم رواية أم حبيبة وهى أكثر الروايات ترديداً فى مصر، وأشهر من ذكرها الشيخ الراحل جاد الحق فى فتواه عام ١٩٩٤ولكنه لم يذكر مصدرها وقد قال فى فتواه الغريبة وقتها وهى أن ترك الختان يوجب قتال تاركيه!، وكذلك ذكرها د.حامد الغوابى فى كتابه ختان البنات ،والرواية تقول عندما هاجر النساء كان فيهن أم حبيبة، وقد عرفت بختان الجوارى، فلمارآها رسول الله ﷺ قال لها :يأم حبيبة هل الذى كان فى يدك هو فى يدك اليوم ؟، فقالت: نعم يارسول الله، إلا أن يكون حراماً فتنهانى عنه، فقال رسول الله ﷺ: بل هو حلال، فادن منى حتى أعلمك، فدنت منه ،فقال : يأم حبيبة ،إذا أنت فعلت فلاتنهكى ،فإنه أشرق للوجه وأحظى للزوج .

عرضنا للأحاديث التى تناولت الختان وتعليقات علماء الحديث والفقهاء القدامى عليها، ولكن ماذا قال فقهاء زماننا ومفكرى عصرنا الإسلاميين عن هذه الأحاديث ؟.

بالنسبة للحديث الأول يقول سليم العوا :ليس فى هذا النص حجة لأنه نص ضعيف ،مداره على راوٍ لايحتج بروايته، فكيف يؤخذ منه حكم شرعى بأن أمراً معيناً من السنة أو من المكرمات، وأقل أحوالها أن

تكون مستحبة، والإستحباب حكم شرعى لايثبت إلا بدليل صحيح ، وحديث إلتقاء الختانين يقول عنه العوا لاحجة فى هذا الحديث الصحيح على ذلك ،لأن اللفظ هنا جاء من باب تسمية الشيئين بإسم الأشهر منهما ، أو بإسم أحدهما على سبيل التغليب، ومن ذلك كلمات كثيرة فى صحيح اللغة العربية منها العمران (أبو بكر وعمر) والقمران (الشمس والقمر) والعشاءان (العشاء والمغرب) ..الخ ،فلفظ الختانين لادلالة فيه على مشروعية ختان الإناث، والحديث وارد فيما يوجب الغسل وليس وارداً فى أمر الختان أصلاً .

نأتى إلى أشهر الأحاديث وهو الحديث الأخير، والذى إستخدم فى الرد على كل وزير صحة يتجرأ ويمنع الختان فتجلده الألسنة بأنه مارق عن الدين، فيبدأ فى التراجع، يقول عنه العوا حديث أم عطية بكل طرقه لاخير فيه ولاحجة تستفاد منه، ولو فرضنا صحته جدلا، فإن التوجيه الوارد فيه لايتضمن أمراً بختان البنات، وإنما يتضمن تحديد كيفية هذا الختان إن وقع، وسأحاول أنا تقريب المعنى الذى قصده د. العوا، وهو أننى لو أمرت مريضاً عندى بأن يخفض السجائر التى يدخنها إلى خمس سجائر فقط بعد أن كان يدخن علبتين، فهل يعنى هذا أننى قد أمرت بتدخين السجائر وأدعو إليها ؟، أم أننى أتماشى مع عرف سائد وأريد تخفيفه على مراحل !!، وعن هذا المعنى يقول أنور أحمد فى كتابه آراء علماء الدين من يتدبر هذا الحديث المنسوب إلى النبى يمكن أن يتصور أن النبى لم يرد أن يصادر عرفاً جرت عليه العرب، وعادة تأصلت فى نفوسهم، فأراد أن يخفف من غلوائها ويحد من أضرارها، فجرى حديثه للخاتنة بهذا التوجيه الكريم الرحيم، وعن

حديث أم حبيبة فهو مكذوب أيضاً عند العوا ويقول عنه هذا الحديث لايوجد فى كتب السنة، وليس هناك ذكر فيها لإمرأة بهذا الإسم كانت تقوم بهذا العمل، فكلامهم هذا لاحجة فيه، بل لاأصل له، ويقول الإمام شلتوت معلقاً على هذه الأحاديث جميعاً فى فتاويه الصادرة ١٩٥٩ وقد خرجنا من إستعراض المرويات فى مسألة الختان على أنه ليس فيها مايصح أن يكون دليلاً على السنة الفقهية فضلاً عن الوجود الفقهى، وهى النتيجة التى وصل إليها بعض العلماء السابقين، وعبر عنها بقوله ليس فى الختان خبر يرجع إليه ولاسنة تتبع، وأن كلمة سنة التى جاءت فى بعض المرويات معناها إذا صحت الطريقة المألوفة عند القوم فى ذلك الوقت، ولم ترد الكلمة على لسان الرسول بمعناها الفقهى الذى عرفت به فيمابعد ،والذى أراه أن حكم الشرع لايخضع لنص منقول وإنما يخضع فى الذكر والأنثى لقاعدة شرعية عامة وهى أن إيلام الحى لايجوز شرعاً إلا لمصالح تعود عليه ،وتربو على الألم الذى يلحقه.

كذلك يؤكد الشيخ سيد سابق على نفس المعنى قائلاً الختان لايجب على الأنثى، وتركه لايستوجب الإثم، ولم يأت فى كتاب الله ولافى سنة رسوله عليه السلام مايثبت أنه أمر لازم، وكل ماجاء عن رسول الله فى ذلك الأمر به ضعيف لم يصح منه شئ ولايصح الإعتماد عليه، والواجب لايكون واجباً إلا إذا كانت هناك آية قرآنية توجبه، أو حديث صح سنده ومصدره، أو إجماع من الأئمة، وهذا الأمر لم يرد فيه آية ولاحديث صحيح ولم يجمع عليه العلماء ، وأيضاً يقول الشيخ محمود خضر ١٩٩٧ فى معرض رده على الشيخ جاد الحق قول

الرسول ﷺ للخاتنة: إن كنت فاعلة يدل على أن الأمر من أوله لآخره مكروه وأن الأفضل البعد عنه نهائياً، وأما فتوى الشيخ سيد طنطاوى رداً على طلب وزير الصحة السابق على عبد الفتاح ١٩٩٤ فيقول فيها عن ختان البنات لم يرد بشأنه حديث يحتج به، وإنما وردت آثار حكم المحققون من العلماء عليها بالضعف ...، وقد ذكر هذه الأحاديث جميعها الإمام الشوكانى فى كتابه نيل الأوطار وحكم عليها بالضعف، وقال صاحب كتاب عون المعبود فى شرح سنن أبى داود بعد أن ذكر ماجاء فى الختان وحديث ختان المرأة روى من أوجه كثيرة، وكلها ضعيفة ومعلولة، مخدوشة لايصح الإحتجاج بها، ويقول فى نهاية فتواه أما بالنسبة للنساء فلا يوجد نص شرعى صحيح يحتج به على ختانهن، والذى أراه أنه عادة إنتشرت فى مصر من جيل إلى آخر، ومن الأدلة على أنها عادة ولايوجد نص شرعى يدعو إليها، أننا نجد معظم الدول الإسلامية الزاخرة بالفقهاء قد تركت ختان النساء، ومن هذه الدول السعودية ومعها دول الخليج وكذلك دول اليمن والعراق وسوريا وشرق الأردن وفلسطين وليبيا والجزائر والمغرب وتونس ..الخ، وقد إتفق معه فى الرأى د.سيد رزق الطويل عميد كلية الدراسات الإسلامية وقتها وأيد كلام د.طنطاوى ورفض فتوى جاد الحق قائلاً إننى أستغرب كلامه بمحاربة القرية التى لاتلتزم بالختان فمعنى ذلك أن علينا أن نحارب العالم كله ماعدا مصر والسودان !!، ومن العلماء غير المصريين الذى أدلى بدلوه فى القضية الشيخ عبد الغفار منصور مستشار الفقه الإسلامى فى مكة المكرمة فى بحثه الذى ألقاه فى مؤتمر السكان بالقاهرة، وقد قال إننا لانعرف عادة الختان فى مكة لاقبل ميلاد

الرسول ولابعد بعثه، وأن الرسول ﷺ لم يقم بإجراء الختان لبناته، وحتى يومنا هذا فإن عادة الختان غير معروفة فى مكة .

بعد كل هذه الآراء الدينية من رجال الدين وعلمائه ومفكرى هذا العصر الأجلاء وكلها تدين الختان، ألا تندهشون معى لماذا وبرغم كل هذا تظل هذه العادة الهمجية تغرس أنيابها فى رقبة المجتمع المصرى حتى تمص دماءه ؟!، ولماذا يسيطر الفكر الغوغائى على هذه الأسر والمجتمعات التى تحسب أن البنت عار مقيم، وقمعها واجب، وكبتها فضيلة، وبترها فريضة، ودموعها كذب، وألمها إحتيال؟؟ ، نريد الإجابة بأن يقف المجتمع أمام المرآة ويرى تجاعيده بصراحة وقسوة، ويعترف بأن البنت لابد أن توضع فى مآقى العيون، وبدلاً من أن يرفع سكيناً ليجرحها وينزع أحاسيسها ويغتال مشاعرها، يهديها ياسمينة لتطوق عنقها الجميل البرئ، ولتعرف بعدها أن الحياة تستحق أن تعاش بدون دماء.

* * *

الفصل الثاني

العنف ضد المرأة

العنف ضد الطفلة المصرية يبدأ منذ الولادة

يامخلفة البنات يامخلفة الهم للممات، ولما قالوا دى بنية إتهدت الحيطة عليا، ولما قالوا ده ولد إشتد ضهرى وإتسند، وإكسر للبنت ضلع يطلع لها إتنين،هكذا تستقبل البنت فى ثقافتنا الشعبية، وهكذا يتعامل الفولكلور الذى هو ترجمة حس البسطاء مع الأنثى، وهذا هو أول مظاهر العنف ضد الطفلة التى من المفروض أن يستقبلها المجتمع بالترحاب على أنها ضيف فاعل وأساسى وليس على أنها إحتياطى أو رديف للبطل الأصلى المغوار وهو الطفل الذكر الذى ينتظره الأهل على أحر من الجمر مهما كان فى البيت من طابور إناث، وهذا العنف الفولكلورى هو أقسى أنواع العنف لأنه يتعامل مع المجهول ويصادر على المستقبل ،فهذه الطفلة المولودة لاينتظر المجتمع حتى تقدم أوراق تفوقها أو حيثيات نجاحها، ولكن هى متهمة إلى أن تثبت براءتها وحتى عندما

تثبت هذه البراءة فهى براءة ليست موجودة فى جيناتها الوراثية ولكنها براءة ممنوحة بصك مدموغ من الرجل، والفولكلور لايتعامل بهذا الجفاء مع الطفلة حين ولادتها فقط وإنما يمتد هذا الجفاء وهذه العدوانية معها فى مسيرة الحياة بعد ذلك، فالمرأة لابد أن تكون عروسة حلاوة وياريت تبقى عروسة لنفسها ولسعادتها الشخصية ولكن لإسعاد الرجل الذى لابد أن تضبط موجتها الخاصة على ريموت كونتروله الحساس، فهى لابد أن تكون مفرفشة حتى لايعبث فى الخارج ويرجع بيته بدرى «اللى مراته مفرفشة يرجع البيت من العشا» «وخد المليح وإستريح» «أو خد الحلو وإقعد قباله وإن جعت شاهد جماله»، وهى لابد أن تبحث عن الزواج ليس لأنه يحقق تناغماً وإنسجاماً ولكن لأنه يحقق أماناً وحماية فـ «ضل راجل ولاضل حيطة»، والمرأة لاتأخذ مكانتها الإجتماعية إلا من خلال الزوج «حرمة من غير راجل زى الطربوش من غير زر»، بل أكثر من ذلك سعادتها مرتبطة بمزاجه والمود بتاع سيادته الذى مهما تقلب فعليها أن تضبط ترموستات عواطفها على درجة حرارته الشخصية «اللى جوزها يحبها الشمس تطلع لها» ، ويزيد الفولكلور الشعبى فى بيان أسباب تبديه لمفهوم البنت هم للممات بأنها لاتؤتمن على سر «ياويل من أعطى سره لمراته ياطول عذابه وشتاته»، وهى لايوثق ولايعتد برأيها «الراجل إبن الراجل اللى عمره مايشاور مراته»، ولذلك فمن حق الناس مواساة من تلد بنتاً بقولهم «إن شالله تزينيها بعريس» لأن «صوت حية ولاصوت بنية»، «وإبنى حمال همى وبنتى جلاب همى» ، «والصبى حمال المصايب والبنت بلوة عالأهل وعالقرايب»، ويحتفل الأهل بسبوع الولد بأبريق فخم مذهب أما البنت

فبمجرد قلة بالطبع لكسرها وراها بعد أن تذهب لبيت الزوجية، ويظل العقل الجمعى الذى ينبض بكراهية وإحتقار المرأة يضغط على الجميع فتقتنع الأنثى بأنها بالفعل هم وإبتلاء ويقتنع الرجل بأن طلاق من تنجب إناثاً هو حق شرعى لأنه مش ناقص هموم وبلاوى أو على رأى المثل المشرحة مش ناقصة قتلى!!

أعتقد أن الطريق بعد ذلك أصبح ممهداً ومعبداً لأن تجرى عليه عربات العنف والإضطهاد ضد المرأة بسرعة الضوء ،وإذا كنا قد عرفنا العنف فى الفصل الماضى ونحن نناقش أعنف سلوك بربرى وهمجى تتم ممارسته ضد الطفلة المصرية وهو الختان ،فإننا سنحاول قبل التعرض لصور العنف الأخرى أن نناقش أنواعه وأسبابه ودوافعه .

فى دراسة هامة للدكتورة إقبال السمالوطى عن أنواع ودوافع العنف ضد المرأة والطفل حاولت تصنيف أنواع ذلك العنف من أربعة مداخل أو وجهات نظر :

١ـ من حيث القائمين :والمدهش أن المرأة نتيجة تزييف الوعى المزمن على مدى تلك السنوات تمارس أحياناً عنفاً ضد بنات جنسها فمثلاً فى حالة الختان تجر الأم بنتها بعنف لكى تختتن لأنها ترى أن فى ذلك صالح إبنتها ومصدر عفتها وشرفها .

٢ـ من حيث نوعية العنف:هناك عنف جسدى أو مادى بالضرب والإغتصاب وهناك عنف معنوى بالسب والإهانة والتجريح والسخرية.

٣ـ من حيث مدى شموله :فهناك عنف فردى يتم نتيجة لترويج فكر جماعة عقائدية معينة تحمل إحتقاراً شديداً للمرأة وتلبس هذا الإحتقار وتسبغ عليه رداءاً فكرياً عقائدياً مكذوباً .

٤ـ من حيث الدافع للعنف: هناك عدة دوافع للعنف منها الإحباط كوسيلة لدفع الفشل،أو الحرمان سواء مادى أو معنوي كوسيلة تعويض، وقد يكون الدافع للعنف هو إظهار المهارة والتفوق وأحياناً إظهار الرجولة أو الرغبة فى الإنتقام حتى من الذات .

أما العوامل البيئية التى يحاول بها علماء الإجتماع تفسير دوافع العنف تجاه المرأة والطفل فهى كثيرة نلخصها فى النقاط التالية :

أولاً نظرية الضغط البيئي: وهذه النظرية ترى أن الضغوط البيئية المختلفة سواء كانت زحاماً أو ضوضاء أو تلوث أو خلافه من ضغوط البيئة تؤثر إذا زادت عن الحد وقدرة التحمل فسوف تؤدى إلى إنفجار الإنسان وقيامه بأعمال العنف ،فمثلاً ساكن العشوائيات الذى يعانى من الإزدحام وسوء حالة المسكن ونقص الخصوصية وإنعدام المرافق والخدمات بالطبع سيمارس العنف ومن العادى والطبيعى أن يمارسه ضد الضعفاء وفى مقدمتهم النساء والأطفال ،وهذه نظرية فى مجملها سليمة ولكنى لا أقبلها على إطلاقها فنحن نرى أن العنف صار يستشرى حتى فى أكثر الطبقات ثراء وتعليماً ،مما يدل على أن تيار العنف ضد المرأة صار تياراً فكرياً مقبولاً إلى حد ما وله مبرراته التى يقدمها البعض على أنها من العرف أو من التقاليد أو من الأخلاق أو من الدين وهذا مكمن الخطر.

ثانياً نظرية الموارد الإجتماعية:ترى هذه النظرية أن الصراع بين البشر يزداد مع زيادة عدد السكان بمعدل أكبر من معدل تزايد الموارد البيئية، ومن هنا يتم الصراع والتنافس على هذه الموارد المحدودة

ويتولد العنف، وحيث أن رقعة مصر الزراعية فى حدود ٦ مليون فدان ثابتة لاتتزعزع فى نفس الوقت الذى يتضاعف فيه عدد السكان بشكل سرطانى مما يساعد على إزدياد ظاهرة العنف وخاصة نحو الأضعف كماذكرنا المرأة والطفل .

ثالثاً نظرية الحرمان البيئى: البيئة التى لاتشبع حاجات أبنائها تدفعهم دفعاً نحو العنف، هذا هو ملخص تلك النظرية الصحيحة إلى حد كبير، فيكفى أن ننظر إلى حرمان الصعيد من الخدمات والإستثمارات مقارنة بالوجه البحرى وإنعكاس ذلك على نسبة العنف وإنتشاره .

رابعاً نظرية الإحباط:البيئة المحبطة بيئة تفرخ العنف، فالفرد الذى لاينجح فى تحقيق ذاته من خلال عمل أو أسرة هو صيد سهل لممارسة العنف.

خامساً نظرية المهمشين : هذه النظرية ترى أن من هم على هامش المجتمع والمهملين من قبل الدولة أكثر المواطنين ممارسة للعنف، فالتجاهل هو مشتل العنف ومحرض الإنتقام، وبالطبع يمارس الهامشى عنفه ويخرج عقده على من هم أكثر هامشية المرأة والطفل .

سادساً نظرية التعليم: العنف سلوك مكتسب من الممكن تعلمه من البيئة المحيطة أو من على الشاشة ... الخ ،وهذا يلقى باللوم على وسائل التعليم والإعلام فى تقديم العنف كسلوك مقبول أو على الأقل متعود عليه.

هذه النظريات من الممكن أن تفسر لنا وتجيب على سؤال لماذا العنف ضد المرأة؟، ولكنها لاتستطيع الإجابة على سؤال لماذا التمييز

ضدها ؟، ذلك التميز الذى يبدأ كما ذكرنا من قبل الولادة أثناء الإستعداد الذى تختلف مفرداته بالنسبة للولد عنه بالنسبة للبنت، وبعدها يبدأ الأهل بالتعامل بشكل مختلف مع كل منهما على حدة وتنتقل خبرات حياتية مختلفة تجعل الإستجابات مختلفة هى الأخرى، فالبنت لها العروسة وأدوات المطبخ اللعبة، والولد له ألعاب الذكاء والمهارة والفك والتركيب والمسدسات، وبعدها تأتى المدرسة لترسيخ قيمة التفوق الذكورى، وتؤكد على هذا المفهوم الدكتورة رفيقة حمود التى تقول تخضع الفتاة منذ طفولتها لتربية صارمة تتطلب منها الطباع اللينة، والنعومة فى الكلام وإنخفاض الصوت عند الضحك، فى حين تترك للصبى حرية الكلام والقهقهة والتصرف، ويدرب الصبى ليكون شجاعاً قوياً لايبكى، وتوجه البنت لتكون سلبية متقبلة ضعيفة، وقد بينت الدراسات على سبيل المثال أن الأهل يحاولون إستثارة نشاط الصبى وعدوانيته، ويسخرون منه إذا بكى أو خاف، ويتسامحون معه إذا تسلق الأشجار والجدران، فى حين يرفضون أن تكون البنت كثيرة الحركة ومتمتعة بالحيوية والإستقلالية، ويؤنبونها على كثير من التصرفات التى يتسامحون فيها مع الصبى ويحاولون تعديل سلوكها، ويشجعونها لتكون هادئة ومطيعة، وبالإضافة إلى ماسبق يفرض على الفتاة طابع من السرية والتكتم فهى الستر الذى لابد له من غطاء، ودلالها وتدليلها خطأ وفضيحة دلل الحية ولاتدلل البنية !!، ويتم تدريب البنت بكل إصرار على خدمة ذكور الأسرة بما فيهم إخواتها الأصغر منها ،وبالطبع يكون هذا مقدمة لتدريبها على دور الزوجة المطيعة التى لاتسمع ولاترى ولاتتكلم إلا عندما يسمح لها ،وكما يقول المثل العربى تلاته بيطولوا

العمر: الدار الوسيعة، والفرس السريعة، والمرأة المطيعة، وأيضاً يشمل هذا التدريب المبكر للطفلة على دورها المستقبلى إجبارها على ترك اللعب بل والدراسة فىّ بعض الأحيان وذلك للتفرغ لمساعدة الأم فى الأعمال المنزلية، فى حين يحصل الولد على وقت أكبر للتركيز واللعب وينطلق خارج المنزل إلى العالم الخارجى الذى ينمى قدراته، والمدهش أن التمييز يمتد إلى طريقة العقاب، تقول الباحثة أميرة بهى الدين «عندما تعاقب الأسرة صغارها تميز فى ذلك بين الصغير والصغيرة ،سواء من حيث سبب العقاب، أو من حيث جسامة العقاب وتكراره ،فالصغيرة تلازم أمها فى المنزل فتفجر الأم فيها كل إرهاقها وألامها الدفينة بسبب مشاكلها الأسرية الخاصة ،بخلاف الصبى الذى يكون خارج المنزل يدرس أو يلهو أو يعمل، فالأم لاتقسو على إبنها الذكر سواء لإعجابها الدفين برجولته المبكرة، أو لأنها تخشى فراره منها إن هى قست عليه، فى حين تتوقع من الفتاة الطاعة والتفانى وإنكار الذات»، إنه العنف المنظم المعوق للفتيات القاتل لإستقلاليتهن والمهدر لطاقتهن الإبداعية، ثم تأتى وسائل الإعلام التى تقدمها على أنها مخلوق هيمان فى عالم الأحلام ، وشخصية سلبية مترددة تفتقد إلى أدنى درجات التفكير العقلانى لاهم لها إلا البحث عن الرجل وضله لإمتاعه الجنسى وتمثيلية الحاج متولى ليست بالبعيدة عنا ، وتقول الدكتورة عواطف عبد الرحمن فى دراسة نشرت لها عام ٢٠٠٠ أن «٨٠٪ من برامج المرأة فى التليفزيون تتناول فن الطهى والحياكة والموضة وتربية الأطفال وفن الديكور»، وكأن هذه المسائل هى قضية المرأة الأساسية وزادها اليومى وهكذا يزيد إيقاع التعامل معها كدمية وموديل ومادة

للمتعة، وتكرس الدونية التى هى الباب السحرى لولوج التمييز المؤدى إلى العنف .

من أبرز مظاهر العنف ضد الطفلة الأنثى التمييز فى التغذية والعناية الصحية، فبرغم الجهد الملموس للدولة فى رعاية الطفل الصحية سواء فى توفير التطعيمات والأمصال أو فى توفير محاليل الجفاف والأدوية وتعميم التأمين الصحى، إلا أن التمييز الإجتماعى قد أصاب الطفلة الأنثى بالضرر الصحى من ناحية سوء التغذية أو إهمال الرعاية الصحية السليمة، فالكثير من الأمهات يحرصن على إرضاع الصبيان لفترة أطول من تلك التى تخصص للبنات، وفى معظم الأحيان تحرصن على تقديم لحوم أكثر للصبى عن أخته وتتلهفن على الذهاب للطبيب بالولد أسرع من البنت، وفى كل التقارير العربية يتضح بجلاء أن نسبة وفيات البنات فى السنوات الأولى أعلى من نسبة وفيات الذكور، والأنيميا نسبتها أعلى فى الإناث عن الذكور، وفى دراسة لليونيسيف على المنطقة العربية ١٩٩٥ إتضح أن نسبة البنات اللواتى يعانين من الأنيميا تزيد ٢,٣%عن البنين، كما وجد أن ٢٥% من الفتيات فى سن المراهقة يعانين من نقص نسبة الحديد ، فضلاً عن زيادة نسبة التقزم ونقص البروتين نتيجة لممارسات التغذية المتحيزة للبنين ، وفى دراسة أجراها عادل سلطان وناهد رمزى على إحدى القرى المصرية وقدماها لجمعية التنمية الصحية والبيئية ١٩٩٩ ، ذكر أنه عند توزيع الطعام داخل الأسرة أثناء شهر رمضان وعيدى الفطر والأضحى يحصل الأب على ٣٢% من إجمالى الطاقة الغذائية التى تستهلكها الأسرة، فى حين تحصل الأم على ٢٨,٨% من هذه الطاقة

كما يحصل الأب على ٣٢,٩% من إجمالى عنصر الحديد فى غذاء الأسرة، بينما لاتحصل الأم سوى على ٢٩,١% من هذا العنصر، وتوجد دراسات أخرى تشير إلى أن معدل إنتشار الأنيميا بلغ ٢٢,١% بين الحوامل و٢٥,٣% بين النساء المرضعات.

ومن عنف التمييز الغذائى والصحى الذى من الممكن ألا يكون ملموساً لدى الكثيرين إلى عنف آخر أكثر وضوحاً وأوسع تأثيراً وأفدح خطراً ألا وهو التمييز فى فرص التعليم ،فتعليم الولد واجب أما تعليم البنت فهوعند البعض ترف ،وتعليم الولد لن يفسده أما تعليم البنت فقد يفسدها ويفتح عينيها وكأننا كنا نتمنى ولادتها عمياء، وتعليم الولد مباح حتى فى المدارس البعيدة عن القرية أما تعليم البنت فيجب أن يكون جنب البيت فإذا لم يتوفر هذا القرب فجلوسها فى البيت أفضل، وإذا تعثر الولد فيجب أن يعيد السنة أما البنت فتعثرها لايتطلب إعادة أو تحسين مجموع ويقرر الأهل أن يناووها فى أى جراج مدرسى حتى تحصل على دبلوم التجارة مش آخرتها حتتجوز وتقعد فى البيت ... الخ، وسيادة هذه المفاهيم فضلاً عن أنها تتعارض مع أبسط القيم الإنسانية فهى تتعارض أيضاً مع المواثيق الدولية التى وقعنا عليها مثل إتفاقية حقوق الطفل والتى سيأتى ذكرها كثيراً فى حلقات دراستنا ، وهى تنص فى المادتين ٢٨ و٢٩ على عدد من البنود أهمها :

١ـ تعترف الدول الأطراف بحق الطفل فى التعليم، وتحقيقاً للإعمال الكامل لهذا الحق تدريجياً ،وعلى أساس تكافؤ الفرص ،تقوم هذه الدول بمايلى :

(أ) جعل التعليم الإبتدائى إلزامياً ومجانياً .

(ب) تشجيع تطوير شتى أشكال التعليم الثانوى سواء العام أو المهنى، وتوفير هذه الأشكال وإتاحتها لجميع الأطفال، وإتخاذ التدابير المناسبة لذلك، مثل إدخال مجانية التعليم وتقديم المساعدة المالية عند الحاجة إليها.

(جـ) جعل التعليم بشتى الوسائل المناسبة متاحاً للجميع على أساس القدرات .

(د) جعل المعلومات والمبادئ الإرشادية التربوية والمهنية متوافرة لجميع الأطفال وفى متناولهم.

(هـ) إتخاذ التدابير لتشجيع الحضور المنتظم فى المدارس والتقليل من معدلات ترك الدراسة.

٢ ـ تتخذ الدول الأطراف التدابير المناسبة لضمان إدارة النظام فى المدارس على نحو يتمشى مع كرامة الطفل الإنسانية .

٣ ـ تقوم الدول الأطراف بتعزيز التعاون الدولى وتشجيعه فى الأمور المتعلقة بالتعليم وبخاصة من أجل هدف الإسهام فى القضاء على الجهل والأمية .

٤ ـ توافق الدول الأطراف على أن يكون تعليم الطفل موجهاً نحو:

(أ) تنمية شخصية الطفل ومواهبه وقدراته العقلية والبدنية إلى أقصى إمكاناتها .

(ب) تنمية إحترام حقوق الإنسان والحريات ومبادئ حقوق الإنسان.

(جـ) تنمية الإحترام لهوية الطفل الثقافية ولغته وقيمه الخاصة ،وأيضاً الحضارات المختلفة عن حضارته.

(د) إعداد الطفل لحياة تستشعر المسئولية فى مجتمع حر، بروح من التفاهم والتسامح والمساواة بين الجنسين.

ولكن هل تحققت تلك المساواة المزعومة؟، الحقيقة لا، فالمفارقة صارخة وحسب إحصائيات الأمم المتحدة لعام ١٩٩٩ هناك أكثر من ١٣٠ مليون طفل فى البلدان النامية محرومون من حق التعليم وللأسف ثلثا هذا العدد من البنات أى حوالى ٨٧ مليون طفلة، وكذلك يشير نفس التقرير إلى أن سدس سكان العالم أميون ومعظمهم فتيات، وهذا بالطبع إنتهاك لحقوق الإنسان وإهدار لطاقات المرأة الفاعلة وتبديد لقوى إنتاجية مؤثرة فى المجتمع، وإذا إنتقلنا من المستوى العالمى إلى المستوى المحلى هنا فى مصر سنجد أن الصورة ليست وردية بل قاتمة وأننا بالفعل مازلنا بعيدين عن مستوى ونسب الدول المتقدمة فى التعليم ،فالنساء يشكلن ٦٦ %من إجمالى نسبة الأمية فى مصر ،ويصل معدل الإلتحاق بالمرحلة الإبتدائية للفتيات إلى ٧٩% بفاقد قدرة ٢١% من إجمالى عدد الفتيات فى المرحلة العمرية الموازية، وتزداد نسبة الفاقد لتصل إلى ٤٢% فى المرحلة الثانوية إذ يصل معدل إلتحاق الفتيات إلـــى ٥٨% ، والتمييز بين البنات والأولاد فى مسألة التعليم يصل إلى نسب فاضحة ومزرية فالفجوة النوعية فى التعليم بين الذكور والإناث تـصل إلـى ٢١% ، وذلك بالطبع إنطلاقاً من مفهوم المصير النهائى للبنت هو الزواج، وأنها ماكينة تناسل بشرى لابد أن تهيأ لهذه الوظيفة،

وتنطلق مقولة يعنى اللى قبلك عملوا إيه بالتعليم وتصدقها البنت الصغيرة وتظل منذ نعومة أظفارها تؤهل نفسها لهذا الدور فتهمل الدراسة ولو تفوقت فهى تتفوق هروباً من جو الأسرة الخانق وتطلعاً إلى اليوم الذى تخرج فيه من الأسر، وأحياناً تنجح وكثيراً ماتفشل فدورها الرئيسى كأنثى لاكإنسان كامل الإنسانية لاتتبناه الأسرة فقط ولكن للأسف يتبناه المجتمع ككل وهنا تكمن المأساة .

ونجاح الفتاة فى التعليم سرعان مايواجه بعوائق وصعوبات مثل بعد المدرسة عن البيت، وتذكر د.ناهد رمزى فى دراستها عن الحرمان من التعليم أثبتت الدراسات فى ريف مصر أنه عندما يزيد بعد المدرسة عن كيلو متر واحد من المسكن فإن معدل التسرب لدى الفتيات يزداد بشكل جوهرى، وقد أشارت الإحصاءات إلى أن معدل تسرب الفتيات من التعليم الأساسى يصل إلى ٢١% .

إن ضمان حق التعليم للفتاة ليس إجراء منعشاً للإقتصاد فحسب أو محافظاً على الأخلاق والعدل فقط، ولكنه يشمل جوانب كثيرة ربما تمتد مع الفتاة بعد ذلك طوال حياتها، فعلى سبيل المثال تبين أن هناك إرتباط واضح بين تعليم الفتيات وإنخفاض معدلات وفيات الأطفال، فزيادة نسبة ١٠% فى تعليم البنات بالمرحلة الإبتدائية ترتبط بإنخفاض نسبة وفيات الأطفال بنسبة ٤,١% وفاة فى كل ألف وفاة، كما أن أى إرتفاع مماثل لنسبة البنات الملتحقات بالتعليم الثانوى يمكن أن يؤدى إلى توقع إنخفاض آخر مقداره ٥,٦% وفاة فى كل ألف وفاة وبالإمكان كذلك أن نترجم كل سنة تعليم إضافية إلى إنخفاض فى

معدلات الإنجاب علاوة على نقص فى وفيات الأمهات بسبب الحمل والولادة .

لكن تظل المأساة الأكبر وهى أن العنف ينتقل من البيت خارج المدرسة إلى داخل المدرسة حيث تمارس سلوكيات عنف وقسوة ضد الفتاة داخل أسوارها لدرجة أن ٥٠% من عمالة البنات الصغيرات سببها الهروب من قسوة المدرسة، وغير بعيد عن الذاكرة ظاهرة الإغماء الجماعى الذى كان يحدث فى مدارس البنات فقط منذ عدة سنوات والذى دل على أن عملية تشكيل شخصية تلك الفتيات داخل المدارس بها خلل خطير أدى إلى إنتاج نفسيات هشة ومعقدة وهستيرية مما يفرض على علماء التربية النظر بعين الإعتبار إلى وضع قواعد للتعامل مع البنات الصغيرات داخل المدرسة تحترم الجانب النفسى قبل الجانب التلقينى .

أتمنى ألا نكسر للبنت ضلع لأنها لن تعوضه بضلعين، بل ستعوضه بحزنين وإرتعاشتين وترددين وإنكسارين وشجنين وإغترابين ودمعتين وصمتين ،فالضلع وراءه القلب وقلبها لن يحتمل أكثر من عنف وإن حدث ذلك فهى حتماً ستضع مكان القلب عصفوراً ذليلاً لتتحول الضلوع إلى قضبان، والصدر إلى زنزانة والقلب إلى مآقى دموع .

* * *

عمل الطفلة سخرة مقنعة ...

الرزق الجديد .. عنف مستتر وعبودية جديدة

عندما أثيرت قضية تعذيب خادمة وفاء مكى فى جميع وسائل الإعلام تم التركيز على الجانب البوليسى فيها، وطرحت الأسئلة ذات اليمين وذات اليسار عن هل عذبت وفاء الخادمة وهل هى بريئة أم مذنبة؟، وهل الخادمة صادقة أم كاذبة ومدعية؟،كيف تظل الخادمة فى الحمام ولاتصرخ للنجدة؟، كيف تستطيع الأم المريضة أن تقيد الخادمة ؟، كيف نقلت الخادمة للقرية؟، ماهو تقرير الطب الشرعى؟، وماهو مقدار التعويض الذى أخذه الأب؟... إلخ،هذه الأسئلة وغيرها والتى إنهمرت كالشلال مكتسحة فى طريقها السؤال الموضوعى الذى كان لابد أن نسأله لأنفسنا قبل هذه الإستفهامات المباحثية، السؤال هو لماذا عملت مروة الطفلة بنت العاشرة كخادمة فى بيت وفاء مكى من

الأصل؟، ولماذا أرسلها أبوها هى وشقيقتها للعمل هناك؟، بالطبع إنه الفقر، ولكن هل الفقر هو الذى أصابنا نحن المثقفين بالتنويم المغناطيسى والغيبوبة حتى ننسى أو نتناسى طرح هذا السؤال أم أنه الخوف من فتح هذا الدمل المتقيح بصديد اللامبالاة والقسوة والذى يديننا قبل أن يدين الأب أو مروة أو حتى وفاء مكى؟!! ، وهل لو لم تعذب مروة وأمثالها من الخادمات الصغيرات فهل عملها كخادمة من الناحية الإنسانية والقانونية والإجتماعية صحيح؟، وإذا لم يكن هناك قانون يحظر عمل الطفلة كخادمة فلماذا لا يصدر قانون يحظر هذه السخرة الجديدة؟، هذا هو السؤال الحقيقى الذى تاه فى وسط هستيريا بحثنا الدائب عن جانب الفضيحة والنميمة فى أى قضية نناقشها لنختزل هذه القضية وغيرها لتظل أسيرة نظرة أنانية ضيقة كالطائر مقصوص الريش لايستطيع التحليق فى الفضاء المتسع، وتفشل فى أن تصبح قضية إجتماعية تتصدر المشهد الوطنى وتبقى كمعظم قضايانا الإجتماعية الهامة مادة نميمة تتصدر أخبار الحوادث .

يقول بهى الدين حسن فى ورقته المقدمة لليونيسيف ١٩٩٤عن الطفلة الخادمة عندما تعمل الصغيرات كخادمات فى المنازل ـ وهو عمل بالغ الإنتشار فى مصر ـ يحرمن من أسرهن ، ويحتجزن فى أسر غريبة عنهن، يقدمن لها خدمات لاتتناسب مع أعمارهن، ويتعاملن مع أجهزة معقدة ويحملن الأثقال، ويخدمن الأطفال الذين هم فى مثل عمرهن أو يزيد، يحملن حقائبهم المدرسية، ويرتدين ثيابهم البالية، ويأكلن مايبقى عنهم، ويتحملن العقاب الرادع لأتفه الأسباب، ويقارن أنفسهن بأطفال الأسر التى يخدمونها والذين يلاقون الكثير من الرعاية

والتدليل فيشعرن بالقهر النفسى، والخدمة فى البيوت ليست العمل الوحيد للطفلة الفقيرة ولكنها تؤخذ من حضن الأسرة لتعمل أحياناً فى الزراعة أو جنى القطن أو ورش النسيج والملابس وصناعة السجاد والمصانع الصغيرة.. الخ ،إنه إسترقاق من نوع جديد يتم تحت سمع وبصر المسئولين ولكن يتم التغاضى عنه برغم وجود القوانين الدولية والمحلية ،والتى لابد أن نتوقف عندها ليتذكر المتناسون والمتغاضون والمطنشون !!

بدأ الإهتمام العالمى بقضية عمالة الأطفال عقب إنشاء منظمة العمل الدولية عام ١٩١٩ ، فتوالت صدور الإتفاقيات التى تنظم إشتغال صغار السن فى الأنشطة المختلفة ،وصدرت أول إتفاقية برقم ٥ لسنة ١٩٢١ بتحديد سن تشغيل الأحداث فى الأعمال الصناعية ،مقررة تحريم وتجريم تشغيلهم قبل سن الرابعة عشر فى المنشآت الصناعية، وبمقتضى الإتفاقية رقم ٥٩ لسنة ١٩٣٧ تم تعديل السن إلى الخامسة عشر، وأوصت إتفاقية برقم ٩٠ لسنة ١٩٤٨ بألا تتجاوز مدة تشغيل الأطفال دون سن الثامنة عشر سبع ساعات يومياً، وحرم من تشغيلهم ليلاً، ثم صدر الإعلان العالمى لحقوق الطفل من الجمعية العامة للأمم المتحدة فى نوفمبر ١٩٥٩ والذى كان بمثابة طوق نجاة لأطفال العالم ،وينص المبدأ التاسع من هذا الإعلان على أنه من الواجب ألا يبدأ إستخدام الطفل قبل بلوغه سناً مناسبة، كما يجب ألا يسمح له بأى حال من الأحوال أن يتولى حرفة أو عملاً قد يضر بصحته أو يعرقل وسائل تعليمه، أو يعترض نموه من الناحية البدنية أو الخلقية أو العقلية، وكذلك تؤكد إتفاقية حقوق الطفل ١٩٨٩ والتى صدقت عليها ١٦٠ دولة من ضمنها مصر، تنص فى المادة ٣٢ على مايلى:

تعترف الدول الأطراف بحق الطفل فى حمايته من الإستغلال الإقتصادى، ومن أداء أى عمل يرجح أن يكون خطيراً، أو أن يمثل إعاقة لتعليم الطفل أو أن يكون ضاراً بصحة الطفل أو بنموه البدنى أو العقلى أو الروحى أو المعنوى أو الإجتماعى .

وبالإضافة إلى الإتفاقيات الدولية التى وافقت عليها مصر هناك الإتفاقيات العربية وأهمها الإتفاقية رقم ١ لعام ١٩٦٦ والتى تناولت موضوع تشغيل الأحداث ضمن المواد من ٥٧ إلى ٦٤، حيث تلزم فى البداية التشريع الوطنى لكل دولة ،بتحديد الأعمال التى لايجوز تشغيل الأحداث فيها من الجنسين قبل ١٢سنة، ولايجوز تشغيل الأحداث فى الأعمال الصناعية قبل سن ١٥ سنة ،بإستثناء الملتحقين بالتدريب، وعدم جواز تشغيل الأقل من ١٧سنة فى الأعمال الخطرة أو الضارة بالصحة، أما التشريع المصرى فقد إعتنى بالطفل من كافة جوانبه النفسية والإجتماعية والصحية حيث ألزم الدستور الدولة بحماية الأمومة والطفولة وتوفير الظروف المناسبة لتنمية ملكاتهم ،كما أولى رئيس الجمهورية الطفولة إهتماماً خاصاً عندما أصدر عام ١٩٨٨ قراراً بإنشاء المجلس القومى للطفولة والأمومة ،وكذلك عندما أعلن عن عقد حماية الطفولة منذ ١٩٨٩، وتتابع السيدة سوزان مبارك بمجهوداتها العظيمة رعاية مبدأ الإستمتاع بالطفولة وتوفير كل الظروف المناسبة لإزدهارها .

وقد سنت القوانين منذ سنة ١٩٠٩ لتنظيم عمل الأطفال حيث صدر القانون رقم ١٤، ثم صدر قانون رقم ٤٨ لسنة ١٩٢٣ وكان السن

المحظور وقتها أقل من ٩ سنوات ،ثم إرتفع سنة ١٩٥٩ إلى ١٢ سنة ،ثم عام ١٩٨١، ثم صدق مجلس الشعب عام ١٩٩٦على قانون الطفل وفيها يحظر عمل الأطفال قبل ١٤ سنة ويجوز بقرار من المحافظ المختص بعد موافقة وزير التعليم الترخيص بتشغيل من دون الثانية عشرة فى أعمال موسمية بحيث لاتخل بتعليمهم أو بصحتهم ،ولايجوز تشغيل الأطفال أكثر من ست ساعات فى اليوم ويجب أن تتخلل ساعات العمل فترة أو أكثر لتناول الطعام والراحة لاتقل فى مجموعها عن ساعة ويحظر تشغيلهم فى أيام الراحة أو العطلات الرسمية،وأيضاً لايجوز تشغيلهم فيما بين الساعة الثامنة مساء والسابعة صباحاً .

لكن هل إلتزمنا حقاً بهذه القوانين والإلتزامات أم أنها صارت حبراً على ورق؟، الواقع يثبت أننا فى كثير من الأحيان قد حولناها لحبر على ورق، وبالطبع أتحدث عن الأطفال من الجنسين ولكن لأننا نناقش فى هذه الدراسة العنف ضد المرأة فسيتم التركيز على الطفلة الأنثى ،وأيضاً لأنها الضحية الأكثر تعرضاً للتعويق الإجتماعى والتشويه النفسى والتسرب التعليمى من الطفل الذكر، وتقدم النتائج التى توصل إليها المركز القومى للبحوث الإجتماعية والجنائية ونشرتها د.ناهد رمزى عن ظاهرة عمل الأطفال فى الورش الصناعية صورة صارخة البشاعة عن ظروف عمل الفتيات الصغيرات ،فقد إرتفعت بينهن نسب العاملات فى المواد الكيماوية ٥٤% كالعمل فى المدابغ وصناعة الخراطيم ومواسير البلاستيك والصباغة، و٣٢% فى الأفران،وبينت دراسات الحالة أن هذه الورش تتسم بظروف قاسية غير مناسبة للعمل نتيجة لقلة الإضاءة وضعف التهوية وإنتشار الروائح النفاذة وإرتفاع

الضوضاء بما يمثله ذلك من مخاطر جسدية ونفسية شديدة عليهن خاصة أن هؤلاء الفتيات كن يمضين كل يومهن فى العمل داخل الورشة، وتزداد الجوانب السلبية بخلو تلك الورش من إحتياطات الأمن الصناعى، فقد أثبتت الدراسة أن ٩١% من الأطفال العاملين فى المهن الخطرة لايرتدون ملابس خاصة ولايستخدمون أدوات واقية من مخاطر العمل ،كذلك بينت الدراسة أن ٤٠% من تلك الورش تخلو من أبسط أنواع أجهزة الأمان كطفايات الحريق ، وأن ٥٠% من هذه الورش تخلو من أدوات الإسعاف الأولية التى تحتاجها فى حالة إصابة أحد العمال .

وقد أشارت نتائج دراسات أخرى أن ٣٦% من الفتيات اللاتى يعملن فى صناعة السجاد تعانين من مشكلات بصرية ومن إعاقة جسمية ومن أمراض صدرية، كما أن أوزانهن تقل عن الوزن الطبيعى للفتيات فى أعمارهن نفسها ،كما أن هناك فرقاً فى الطول (يعكس نقصاً فى النمو) يبلغ من ٢-٤ سم وذلك بالمقارنة بالفتيات المناظرات لهن فى العمر واللاتى لم يسبق لهن الإلتحاق بأى عمل، وفى الأعمال الزراعية تزداد المعوقات حيث تستخدم الفتيات بصورة كبيرة وخطيرة وفى أعمال شاقة مثل رش الأسمدة والمبيدات والحصاد والعناية بالحيوانات وحمل صناديق الخضروات وغيرها من الأعمال المضنية .

ومشكلة عمالة الأطفال مشكلة عالمية بدأت تشكل خطراً كبيراً وباتت تمثل قلقاً مزمناً فى ضمائر الأمم لدرجة أن بعض البلاد بصدد إصدار تشريعات بحظر إستيراد منتجات من صناعات تستخدم عمل

الأطفال، وهناك أكثر من ١٢٠ مليون طفل فى العالم يعملون وقتاً كاملاً من عمر ٥إلى ١٤ سنة ويمثل الأفارقة ٤٠% من هذه النسبة، أما فى العالم العربى فقد وصل عدد الأطفال فى سوق العمل نحو عشرة ملايين طفل عربى فى عام ٢٠٠٠ ، وقد أرجع الباحثون عمالة الطفل بهذه الصورة المضطردة إلى تلك العوامل :

العوامل السكانية : يربط البعض بين عمالة الأطفال وبعض الظواهر السكانية مثل إرتفاع معدلات الإنجاب والهجرة من الريف إلى الحضر .

إنخفاض المستوى التكنولوجى : قد يكون هناك إرتباط بين عمالة الأطفال وبين إنخفاض المستوى التكنولوجى فى القطاعين الزراعى والصناعى، فضلاً عن إنخفاض أجور الأطفال، وكفاءتهم فى أداء بعض الأعمال مثل جمع القطن والأعمال المساعدة فى الورش الصناعية.

ولكن هذه العوامل يعتبرها البعض فى مجملها لاتعدو أن تكون عوامل جذب وليست عوامل أساسية، ويرجعون العوامل الأساسية إلى عوامل تعليمية أو إقتصادية، ويركزون على التعليم كسبب أساسى فالفشل فى التعليم أو الرغبة فى تعلم صنعة كبديل للتعليم هو سبب رئيسى ومهم، ثم تأتى الحاجة لمساعدة الأهل فى مصروف البيت أو رغبة الطفل فى الحصول على مال ينفقه على نفسه ومتطلباته الشخصية ، كما أن هناك أسباب فرعية مثل أن العمل أفضل من اللعب فى الشارع وعدم الرغبة بالجلوس في المنزل أو بسبب وفاة أحد الوالدين أو الرغبة فى التجهيز للزواج ..الخ.

وفى دراسة الدكتور أحمد عبد الله القيمة والمهمة عن عمالة الأطفال أجراها فى مدابغ مصر القديمة وجد أن ٩٠% من أسباب عمالة الأطفال فى رأى أرباب الأسر ترجع إلى الفقر، وحوالى ٥٠% فى رأى الأطفال أنفسهم تعود للفشل فى التعليم، وطبقاً للأرقام التى ذكرتها نفس الدراسة يتضح أن القوة العاملة للأطفال تمثل ٢٩% من مجموع أطفال مصر فى الفئة العمرية من ٦إلى ١٤ سنة !! ،وهى نسبة رهيبة لأنها إستغلال بكل ماتحمله كلمة الإستغلال من معنى ،وبحسب تعبير مدير عام منظمة العمل الدولية ١٩٨٣ الذى لخص أوجه الإستغلال فى توظيف الأطفال فى مهام أو فى ظل ظروف تعرض حالتهم الجسدية والعقلية للخطر ،وإستقطاع للأرباح من عمالة الأطفال عن طريق دفع أجور منخفضة لهم، وإنكار حق الأطفال فى اللعب والتعليم والإستمتاع بطفولة طبيعية، ويكفى أن نذكر حالة الطفلة منى عبد الغنى فى هذه الدراسة والتى بدأت العمل فى المدابغ فى سن ثلاث سنوات ونصف وكان أجرها فى سن الرابعة والنصف خمسة جنيهات فى الأسبوع ،وكانت عينة البحث على خمسين طفلاً منهم أربعين بدأوا العمل قبل العاشرة .

وبما أننا لانعترف بالأثار النفسية لعمالة الأطفال ونعتبرها دلع ومياصة عيال ،فسنذكر حادثتين توفى فيهما أطفال فى عمر الزهور، الأولى فى عام ١٩٩١ فى الحوامدية بالجيزة حين لقى ١١ طفلاً مصرعهم فى إنقلاب عربة كانت تقلهم إلى مكان عملهم فى شركة قطاع عام لتكرير السكر !!! تصوروا قطاع عام ياناس !!، والثانية يوم ٧ سبتمبر ١٩٩٢ حين ماتت فتاتان إحداهما فى العاشرة فى إنقلاب عربة

أيضاً كانت تقلهما من قرية صا الحجر غربية إلى إحدى مزارع الياسمين الخاصة، وهناك بالطبع مئات الحوادث مثلها تحدث سنوياً ولاحس ولاخبر،وبرغم هذه النهايات المفجعة إلا أن السخرة الجديدة والرق المستتر فى عمالة الأطفال مازال مستمراً برغم صيحات وصرخات المهتمين والباحثين، ومازالت عينا الطفلة البريئة الخادمة التى تنظر إلى عروسة رفيقتها فى السن والتى جعلها الزمن ستها،مازالت هذه النظرة لاتؤرق أحداً ، مازالت يدا البنت المعروقة الجافة من أثر الأنيميا وهى مجروحة من عيدان القطن لاتستفز أحداً ،ومازال صدر الأمورة المزيق من الربو فى مصنع السجاد لايسمع أحداً إلا الأمورة نفسها ،فمتى نرى ونسمع أم أننا فى الكهف نائمون وفى العسل غارقون .

* * *

الزواج المبكر إغتصاب علنى وصريح !!

* الزواج المبكر جريمة يشارك فيها مأذون مأجور وطبيب بلا ضمير وأب جشع يبيع المزاد.

* ٤٥,٨ ٪ من بنات الريف يتزوجن أقل من ١٦ سنة.

* ١٥ ٪ من مواليد الوطن العربى تلدهن أمهاتهن فى سن المراهقة.

* نسبة وفيات الحمل والولادة للأمهات المراهقات خمسة أضعاف الأمهات فوق العشرين.

* ٣٠٠ حالة زواج مبكر من غير المصريين يومياً فى الشهر العقارى تزيد إلى ٥٠٠ فى الصيف.

* الزواج المبكر جريمة تحدث يومياً برغم تجريم الشرع والقانون لها.

يقف الزوج صاحب الخمسين ربيعاً على شباك تذاكر الأتوبيس قائلاً للموظف: لو سمحت تذكرة لى ونص للمدام !!، ليست هذه نكتة وإنما للأسف حقيقة تحدث كثيراً عندنا فى مصر وسيناريو عبثى سريالى كابوسى أبطاله رجل رضى على نفسه أن يبيع لحم إبنته الطفلة بالقطاعى لرجل آخر قبل على نفسه أن يعاشر طفلة فى سن البراءة، الرجل الأول كاذب ومزور والرجل الثانى جشع وشهوانى ،ملخص المشهد إغتصاب مقنع ومقنن بورقة عليها شهود، إغتصاب ليس فى السر وإنما هو فى العلن يقام له إحتفال ويوزع فيه الشربات ويدعى له المعازيم الذين يجلسون ليمارسوا النميمة ويملأون بطونهم بكل سرور وحبور وراحة ضمير،إنها جريمة يشارك فيها مأذون مأجور وطبيب باع ضميره وكتب شهادة تسنين مزورة وأب عرض طفلته فى مزاد ألا أونه ألا دو ألا ترى ومين يزود وعريس مفجوع لايريد زوجة وإنما يريد وعاء لتفريغ كبته وشهواته، والضحية زهرة بريئة بنت إمبارح ،كانت حتى ليلة أمس تلعب فى الطين وتجرى وراء صاحباتها فى الإستغماية وتبكى حين تنام فى العتمة، ولإقناعها وغسل دماغها يكفيها قطعة لبان أو عسلية، وفجأة بين عشية وضحاها يطلب المجتمع منها أن تترك ساحة الإستغماية الفسيحة لتتمدد فى سرير نوم متر فى متر تحت جثة من اللحم والشحم والعرق لشبه إنسان يؤدى غرضه فى ثوانٍ ثم ينام ليغطى صوت شخيره على نهنهات دموعها، ويسد كرشه الأسطورى كل مسام التنفس لديها خانقاً إياها، والمدهش أن الأهل يأتون ليلة الدخلة لتهنئتها مطالبين إياها عدم الشكوى لأن الزواج سترة وهى مجرد فتاة ،جيشا، تدلع وتدلك وتدغدغ وتزغزغ، والزوج إمبراطور يابانى آمر ناهى، عليها السمع والطاعة وعليه الإستمتاع والإستنطاع !!.

ـ هى فين العروسة

ـ بتلعب بره فى الحارة ..أو فى الجرن ..أو فى الشارع !!

بالطبع علامات التعجب السابقة التى وضعتها بعد جملتين الحوار من عندى،لأن الكارثة أن هؤلاء النخاسين الجدد المتاجرين بلحم وروح وأعراض أطفالهم، لم يضعوا أى علامة تعجب ولم يرمش لهم جفن ولم تهتز لهم خلجة وهم يمارسون هذه الجريمة البشعة التى تعد من أخطر صور العنف فى بلادنا ضد المرأة أو بالأصح ضد الطفلة الأنثى، عنف يومى متكرر طرفاه جلاد وضحية أما القاضى فغائب عن ساحة المحكمة، تبكى الطفلة فلايسمع لها أحد، تصرخ فينهرونها، تشكو فيقال لها إنتى مازلتى عيلة ماتفهميش حاجة، إشمعنى هنا ودلوقتى عيلة وحين تزوجت كانت آنسة حلوة خرطها خراط البنات وجسمها فاير ولازم تتلم!!، وبعد الزواج بواحد لم تختره من الأصل عليها تلبية مطالبه بداية من الأكل وليس إنتهاء بالجنس، وتلبية مطالب العيال والقيام بالأعمال المنزلية من طبخ وكنس.. الخ،مما يتعارض مع تكوينها الجسدى والنفسى، والأرقام على عكس مانتصور مخيفة ومرعبة ففى دراسة ميدانية حديثة أجريت فى إحدى قرى الجيزة وجد أن ٤٥,٨% من إجمالى العينة قد تزوجن فى سن أقل من ١٦ سنة، وأن نسبة الإناث اللاتى تزوجن فى سن العشرين قد بلغ ٨٧,٩% وذلك بحجة صيانة عفاف البنات ،والحفاظ على شرفهن والخوف عليهن من العنوسة، أو للتخلص من عبء إعالتهن ،خاصة إذا كان العدد كبيراً، أو للإستفادة من مهورهن، أو للرغبة فى إكثار العزوة، أو لتقليص الفارق

العمرى بين الآباء والأبناء، أو مجرد إثبات سطوة الآباء على البنات ليس إلا ..الخ وتشير دراسة أخرى للدكتورة علياء شكرى إلى أن ٣٦% من زيجات الريف تقع فى سن يقل عن ١٦ سنة، كما بينت دراسة د.إقبال السمالوطى ٢٠٠٠ أن هناك مابين ١٥ إلى ٢٠ % من مجموع مواليد الوطن العربى تلدهن أمهاتهن وهن فى سن المراهقة، وهذا يدق ناقوس الخطر بقوة محذراً من المخاطر الرهيبة التى تنشب أنيابها فى الطفلة التى يوقعها حظها العاثر فى فخ الزواج المبكر.

أولى المخاطر هى المخاطر الصحية كتسمم الحمل، وفقر الدم، وصعوبة الولادة، والإجهاض، وبالطبع يساهم صغر السن فى فتح شهية الزوج للإنجاب المتكرر دون فاصل زمنى معقول بين الولادة والأخرى مما يعرضها للإنهاك البدنى ويعرض أطفالها للأنيميا والجفاف وإنخفاض الوزن والمناعة، ولهذا تكون معدلات وفيات الأمهات والرضع والأطفال دون الخامسة أعلى فى المناطق التى تنتشر فيها ظاهرة الزواج المبكر ،وتبين الدراسات أن إحتمالات الوفيات فى الفتيات من عمر ١٠ـ ١٤ سنة بسبب الحمل والولادة تزيد خمسة أضعاف عن وفاة النساء فى سن ٢٠ـ٤٥ سنة، وأن عسر الولادة أكثر شيوعاً بين الفتيات المراهقات، وأيضاً ترفع الدراسات الميدانية للباحثين مثل مركز النديم ود.إقبال السمالوطى ود.رفيقة حمود وغيرهم الستار عن أرقام ونتائج مرعبة لظاهرة الزواج المبكر ،فهذا النوع من الزواج يحرمهن من فرص التعليم ٤٧,٣% من فتيات عينة بحث ريف الجيزة قد توقفن عن متابعة التعليم بسبب الزواج المبكر، وليس الصحة والتعليم فقط هما الخسارة الوحيدة ولكنها تخسر نفسها ومعنوياتها من

الإحباط والقلق نتيجة لعدم قدرتها على القيام بالتزاماتها وأعبائها والتناقض النفسى نتيجة عدم الإشباع العاطفى الذى لم ينضج بعد خاصة إذا كان الزوج أكبر منها بعشرات السنين ،فقد أظهرت إحدى دراسات وزارة التأمينات والشئون الإجتماعية أن الفارق فى السن بين معظم الفتيات اللاتى تزوجن مبكراً وبين أزواجهن كان كبيراً، وعلى سبيل المثال كانت نسبة الفتيات اللاتى تزوجن من أزواج يكبرونهن بعشرين سنة وأكثر ٦٥,٧% مما يؤدى لإفتقاد الهارمونى والإنسجام ويصبح الزواج كقطعة موسيقى نشاز تعزف فيها الطبلة مكان الكمان والصاجات مكان الناى!!، وتنتهى معظم هذه العلاقات الشاذة إما بالصمت المتواطئ وإما بالطلاق الصارخ المدوى، فقد تبين أن نسبة المطلقات بين المتزوجات من سن ١٢-١٨ سنة بلغت ٤٩% من حالات الطلاق .

أبويا عامل تراحيل وأنا وافقت علشان أساعد أبويا ... السمسار أعطى أبويا ٣ آلاف جنيه وأخد هو ١٠ آلاف، وسافرت مع الراجل العجوز بلده وهناك إتغيرت معاملته وعاملنى زى الخدامة، حتى أولاده مارحمونيش وشاركو أبوهم فى لحمى ،وبعد خمس شهور طلقنى ورجعت على بيت أبويا!!

هذه العبارات السابقة ليست من فيلم مقاولات رخيص ولكنها منقولة بالضبط من على لسان طفلة من البدرشين كانت جريدة الأهالى قد أجرت معها حواراً لرصد ظاهرة بيع المراهقات وتصدير القاصرات للخليج، وهى ظاهرة وتجارة تكاد تتخصص فيها قرى بعينها معروفة

للمسئولين قبل الوسطاء، تجارة يعمل فيها الأب سمساراً فى جسد إبنته والأم دلالة تبيع البنت مقابل برميل من النفط، لاأستطيع أن أطلق عليها وصفاً سوى أنها دعارة أسوأ من دعارة بيوت الهوى، فالعقود العرفية لايتم توثيقها، والزوج بالكاد جد مكحكح والتسعيرة يضعها السمسار حسب السن ودرجة الجمال والدلع والأهم حسب المستوى الإقتصادى للأسرة، وبالطبع ينتهى هذا الزواج المأساوى بمشاكل لاحصر لها ،من ضمنها جنسية الأطفال الذين فى الغالب يتركهم الأب العجوز ويغادر البلاد بعد رحلة الترفيه، أو يبعثهم مع الأم التى ملها وعافها لأرض الوطن، فهم لايمكن طبقاً للقانون المصرى أن يحملوا جنسية الأم، وبالتالى ليس لهم الحق فى التعليم المجانى أو الرعاية الصحية أو العمل فى القطاع الحكومى .. الخ، وهو فى الأصل فقير إبن فقيرة يتعامل معه المجتمع كأجنبى أسوأ حالاً من اللقيط ،وتطبق عليه حلقة الفقر والضنك ويصبح أمام أحد إختيارين أن يتسول أو أن يسرق ،لماذ تحدث تلك المتاهة منذ البداية؟، الجواب لأن هذه الزيجات عرفية لأن قوانين بلاد الزوج تنظم زواج رعاياها من الأجنبيات، ولاتعطى الزوجة الأجنبية أية حقوق إذا لم تلتزم بشروط الزواج من أجنبية، وبالتالى فهى لاتستطيع الحصول على الطلاق بسهولة إذا إختفى الزوج، وأيضاً هى لاتستطيع اللحاق به فى بلده لأنها ممنوعة بحكم قانون بلده من الدخول، بل الأنكى والأخطر أنها لاتستطيع مقاضاته هناك لتطلب حقوق أولادها منه، والمأساة ليست بسيطة أو مجرد ترف أو طق حنك فى كتاب ولكنها مأساة بمعنى الكلمة فالرقم مخيف والإحصائيات مرعبة فما يقرب من ٣٠٠ حالة زواج مبكر لفتيات مصريات من غير المصريين تسجل يومياً فى الشهر العقارى، ويرتفع

العدد إلى ٥٠٠ حالة فى الصيف الذى هو موسم السياحة وماأتعس هذا النوع من السياحة التى من الممكن أن تدخل تحت بندِ السياحة الزواجية وأحياناً العلاجية !!.

والمأساة الأكبر حين تسافر الطفلة مع الزوج إلى بلده، وهى القليلة الخبرة والنضج تفتقد الأهل والسند والدفء والحماية الإجتماعية والقانونية، ويفترسها إغتراب الغربة والوحدة نتيجة الإختلاف الثقافى والعادات والتقاليد والشعور بالدونية نتيجة إهانة عائلة الزوج لها فهى تسافر لتعمل خادمة وجارية لازوجة، خاصة أنها تكون الزوجة الثانية أو الثالثة أو الرابعة، حيث أكدت دراسة السمالوطى أن نسبة ٦٥,٧% من اللاتى تزوجن فى سن مبكرة من زوج غير مصرى أن أزواجهن كانوا متزوجين بأخريات قبل الزواج منهن، مماجعل نسبة الطلاق فى هذه الزيجات تصل إلى ٥١.٤% من إجمالى عينة البحث.

والعجيب والغريب أن إنتشار الزواج المبكر يتم بالرغم من أن هناك قانوناً شرعياً ووضعياً يمنع ويجرم مثل هذا الزواج، فالزواج فى الشريعة الإسلامية عقد رضائى يعتبر الرضاء به أحد أركانه الجوهرية، وفى حديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم لاتنكح الأيم حتى تستأمر ولاتنكح البكر حتى تستأذن، وهذا يدل على أن الرضا الصحيح الذى لاعيب فيه شرط لازم من شروط الزواج .

أما من الناحية القانونية الوضعية فتنص المادة ٣٣ من لائحة المأذونين أنه لاتجوز مباشرة عقد الزواج ولاالمصادقة على زواج مستند إلى ماقبل العمل بهذا القانون مالم يكن سن الزوجة ست عشرة سنة

وسن الزوج ثمانى عشرة سنة وقت العقد ،على أن المادة ٣٤ من نفس اللائحة تفتح باب التحايل على شرط السن بقولها أن السن يثبت بشهادة الميلاد أو مستند آخر أو شهادة طبية يثبت فيها السن، وتنص المادة ٢٢٧ عقوبات بأنه يعاقب بالحبس مدة لاتتجاوز سنتين أو بغرامة لاتزيد على ثلاثمائة جنيهاً كل من أبدى أمام الجهات المختصة بإثبات بلوغ أحد الزوجين السن المحددة قانوناً لضبط عقد الزواج أقوالاً يعلم أنها غير صحيحة،ويعاقب بالحبس أو بغرامة لاتزيد على خمسمائة جنيه كل شخص خوله القانون سلطة ضبط عقد الزواج وهو يعلم أن أحد طرفيه لم يبلغ السن القانونية للزواج .

وبالنسبة لزواج المصريات بغير المصريين فقد وضعت المادة شروطاً إضافية لتأمين حقوق الزوجة المصرية منها ألا يتجاوز فرق السن بين الزوج والزوجة خمسة وعشرين عاماً، والجزاء على عدم توافر هذه الشروط هو رفض توثيق العقد، إلا أنه أمام الإغراءات المادية يتم التحايل بالعقود العرفية التى لاتقدم أى ضمانات قانونية للزوجة التى تترك فى مهب الريح الإجتماعية قبل القانونية.

إن ليلة زفاف طفلة هى ليلة زفاف دامية طقوسها مرعبة وتفاصيلها هى جريمة قتل مكتملة الأركان، فمن يمنع تلك الجريمة التى يقتل فيها الجهل والفقر والتخلف بخنجر مسموم روح زهرة ياسمين كانت تتوق للتفتح، إنه الخريف عندما يفرض شروطه على الربيع فينتصر الذبول على التفتح ،والموت على الحياة ،والتجاعيد على النضارة ،إنه الكبر قبل الأوان والغروب فى ساعة الفجر.

* * *

عمل المرأة هل هو « صرمحة» ؟!

لا تجوع الحرة إذا أكلت من يديها

تجوع الحرة و لا تأكل بثدييها... من أشهر الأقوال المأثورة فى لغتنا العربية التى نسيت أو تناست أن تضيف قولاً مأثوراً آخر حتى تؤكد قيمة عمل المرأة لتتزن المعادلة، فلم تقل مثلاً لا تجوع المرأة الحرة حين تأكل بيديها، وأقول تناست اللغة لأن لغتنا العربية لم تخرج عن السياق الثقافى فى العام للمجتمع، ولم تكن استثناء فى مسيرة التمييز ضد المرأة، وتعمدت هى الأخرى الإنحياز للرجل، وها هى بعض الإمتيازات التى حصل عليها الرجل فى لغتنا العربية التى اضطهدت المرأة هى الأخرى، ومارست عليها القهر اللغوى كما مارس المجتمع عليها من قبل القهر الاجتماعي.

فعلى سبيل المثال من الممكن أن ننطق إسم أحمد ونقول أحمدن بالتنوين، لكن لا نستطيع أن نفعل نفس الشئ مع سعاد فممنوع أن

نمارس عليها حق التنوين و ننطقها سعادن، ويتساءل القارئ وإيه يعنى التنوين.. ده شئ تافه ليست له دلالة؟ ولكن بعض علماء اللغة يؤكدون أن له دلالة ودلالة كبيرة، فالتنوين ممنوع على الاسم العلم المؤنث كما هو ممنوع على الاسم الأعجمى، ويعنى إيه أعجمى؟، الأعجمى إسم يطلق على غير العرب وتشم منه رائحة المهانة لغير العربى وعطر الفخار للعربى المميز، و يحمل الأعجمى معنى الابهام وعدم القدرة على التعبير لدرجة أن أحد معانيه فى المعجم هى البهيمة، نستخلص إذاً أن وضع المرأة فى اللغة هو نفس وضع أولئك الأعاجم الأغيار الأقليات.

لم يكن هذا هو المظهر العنصرى الطائفى الوحيد الذى مارسته اللغة العربية ضد المرأة، فمثلاً إذا أردنا الحديث عن جمع كبير يضم ألف إمرأة ورجل واحد فسنعامله معاملة جمع المذكر وليس جمع المؤنث، إذاً العدد لا يهم والكم مهمل، فالمهم أن الرجل يجب ما عداه ويلغى من سواه، فالذكر هو الأصل فى اللغة العربية مع أن الأنثى هى الأصل فى الحياة.

وبرغم أن القرآن أحدث ثورة فى لغة خطاب النساء اللاتى وجه إليهن الكلام مساوياً لخطاب الرجال على عكس الخطاب الجاهلى، وبرغم أن القرآن أنصف حواء من المفهوم التوراتى الذى يحملها مسئولية إغواء آدم وساوى بينهما فى مسئولية اقتراف الخطيئة فقال فى محكم آياته فأزلهما الشيطان، إلا أن الكثيرين حتى المستنيرين مازالوا يرفضون هذه المساواة ويطلقون على عمل المرأة صرمحة، ولنقرأ ما

كتبه د. مصطفى محمود فى جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٩٢/٢/١٨ حيث قال نسمع هذه الأيام صيحات التمرد التى يطلقها نصفنا الآخر اللطيف، وأكثرهن زوجات لرجال أثرياء يطالبن بالخروج من البيت للعمل ويلقين بأولادهن إلى الشارع، وتصرخ الواحدة فى وجه زوجها بأنها تريد أن تحقق ذاتها وأن رأسها برأسه سواء بسواء، يحيرنى هذا المنطق فأى تحقق للذات، تريد أن تصبح هذه المرأة أو تلك سكرتيرة لفلان أو مهندسة للمجارى أو صرافة فى بنك أو بائعة فى سوبر ماركت، إن تحقيق الذات هو كلام روايات و طلب للتغيير والصرمحة!!.

وهكذا وببساطة شديدة يتهم عمل المرأة بأنه نوع من الصرمحة، والمشكلة الحقيقية فى هذا الكلام أنه ليس حديثاً خاصاً، أو مقالة مستثناه، أو كلاماً عابراً قيل منذ سنوات، ولكنه تيار عام جارف، ومناخ محيط خانق يتنفس هذه المفاهيم التى أقل ما توصف بأنها مفاهيم متخلفة غير حضارية، ولا تتنافى فقط مع القيم الدينية، بل تتنافى أيضا مع أبسط القيم الإنسانية، والمأساه أن المرأة نفسها أصبحت تردد هذا الكلام نتيجة الضغوط الشديدة والحياة القاسية التى من الممكن أن توفر لها هامش عمل بسيطاً، ولكنها فى نفس الوقت تضغط عليها بين سندان الواجبات المنزلية المهلكة ومطرقة الإهمال الحكومى وعدم توفير ما يساعدها على أداء هذه الواجبات من أجهزة كهربائية وحضانات... إلخ، وهكذا تصورت المرأة قيودها أساور ذهبية، وجعلها الرجل المروج لهذا الفكر تعيش فى وهم أنها الدرة المصونة والجوهرة المكنونة والتى لا يجب عليها أن تتبهدل فى العمل، وهو فى الحقيقة

يريدها مجرد دمية، وبالطبع يحمل هذا الفكر مغالطات كثيرة تحمل فى طياتها عوامل موتها ومن السهل الرد عليها، فأولاً ليس الخروج إلى العمل مرادفاً بالضرورة والتبعية لإلقاء الأولاد فى الشارع، وكثيراً ما تروج وسائل الإعلام لخرافة أن الإدمان والتربية السيئة هى نتيجة طبيعية لعمل المرأة ويا سلام على أمهات زمان اللاتى كن تلزمن بيوتهن لتخرجن أبناء صالحين..إلى آخر هذا الكلام، ونحن نعترف بالجميل لهذه الأمهات، ولكننا لا نوافق على أن المرأة العاملة هى بالضرورة أم فاشلة، وما أكثر النماذج الناجحة التى نراها لأمهات عاملات جعلن من أبنائهن علامات بارزة فى المجتمع مهنياً وأخلاقياً، وكان الإحتكاك الإجتماعى خير معين لتلك الأمهات على تحقيق غايتهن و هدفهن التربوى.

وثانياً : لا يكفى أن نقول: ما كفاية على الستات التعليم فهذه مصادرة على حقهن وأحلامهن المشروعة، فالعمل ضرورى مثله مثل التعليم، وبدلاً من أن نفكر فى تجنيب المرأة بهدلة العمل علينا أن نقضى على أسباب هذه البهدلة من الأصل، ونجعل ظروف العمل أكثر إنسانية للجميع سواء المرأة أو الرجل، وأيضاً يعد هذا الكلام من قبيل الفهم المنقوص لمفهوم التعليم نفسه، فالتعليم عملية ديناميكية مستمرة طوال العمر وليس مجرد عدد من السنين أو مراحل دراسية معينة تقضيها المرأة بين جدران مدرسة أو معهد أو جامعة.

وثالثا: اتهام المرأة على طول الخط بأنها السبب الأساسى للبطالة ولما نبقى نلاقى شغل للرجالة الأول نبقى نشغل الستات، هذا الاتهام

يغفل الأسباب الأساسية للبطالة والتى ستخلق البطالة حتى ولو كان المجتمع كله من الرجال، فلابد من أن نواجه أنفسنا بشجاعة ونعترف بأننا كمجتمع وكمسئولين تسببنا فى خلق للبطالة التى جعلنا من المرأة سبباً لها و شماعة نعلق عليها كل خطايانا الاجتماعية والاقتصادية أيضاً.

رابعاً: إستخدام اللهجة الساخرة لتمرير أخطر الأفكار تدميراً، وتبرير وأد المرأة المعاصر بإسم حمايتها عن طريق جمل مثل يعنى حتعملى إيه بالشغل أخرتها حتشتغلى مهندسة مجارى ولا بياعة فى سوبر ماركت، وبالطبع لا يوجد عمل حقير لأن مجاله المجارى أو الزبالة، ولا آخر فاضل لأن مجاله العطور أو الزهور، وتدنى وضع المرأة ليس ناتجا عن تدنى مجال العمل، ولكنه ناتج عن تدنى إنسانيتها والتعامل معها وكأنها قطعة شطرنج ما عليها إلا أن تستجيب لحركات أيدينا، وليس عليها أن تختار و تدخل كلاعب أو كمشارك.

وتعتبر المحامية صفاء زكى مراد الأفكار التى تنادى بعودة المرأة للبيت ومنعها عن العمل أفكارا انتهازية، عندما تحتاج للمرأة فى نشاط تنموى قومى تنادى بحق العمل، وفى أوقات الانحسار الاقتصادى تنادى بجلوسها فى المنزل، وتتغافل عن كون المرأة كائناً اجتماعياً له دوره المؤثر الفعال، والذى يتسع ليشمل عملها والتزامها نحو الأسرة والبناء، وتتغافل هذه الأفكار أيضاً كون العمل فى حد ذاته قيمة عظيمة وكبيرة تضيف إلى الإنسان الكثير، وعمل المرأة يصقلها و يثقفها ويوسع مداركها ويجعلها كائناً اجتماعياً أقدر على التفاعل مع الحياة، وتضيف

الأستاذة صفاء مراد قائلة قضية عمل المرأة الانتاجى وإنخراطها فيه انما هى قضية اجتماعية واقتصادية، قضية تحويل مجموعة بشرية فى المجتمع تمثل من حيث التعداد نصفه من كونها مجموعة مستهلكة تعيش على ناتج عمل النصف الآخر وتستهلكه إلى مجموعة منتجة تسهم فى صنع الخيرات المادية التى يعيش عليها المجتمع، ومع هذا فيجب ألا نغفل أن الأعباء المنزلية والأسرية الملقاة على عاتق المرأة وحدها فى ظل إنسحاب الدولة وتخليهاعن القيام بدورها الخدمى الاجتماعى، وفى ظل سيادة نسق فكرى وقيمى متخلف، كل هذا يجعل من عمل المرأة عبئاً اضافياً وضرورة اقتصادية أكثر منه قيمة انسانية واجتماعية مهمة.... إنتهت هذة المرافعة البليغة ولكن لن تنتهى بالطبع مشاكل عمل المرأة وقبولها كعضو فاعل فى المجتمع إلا إذا أدت الدولة دورها الخدمى والاجتماعى كما يجب، وإنتشرت المفاهيم التى تعلى من شأن عمل المرأة ومن شأن المرأة ذاتها ككائن كامل وليس نصف كائن.

دائماً ما يهرب معارضو عمل المرة فى كتاباتهم من رقم مهم ومزعج وهو أن ٢٢ % من الأسر المصرية تعولوهن سيدات، وذلك لأن هذا الرقم يحمل فى طياتة الرد المفحم على من يطالب المرأة بالجلوس فى البيت لعدم جدوى العمل الاقتصادية، ونجد كثيراً من الرجال فى الطبقات الشعبية يهاجمون عمل المرأة ويحقرونها، وفى الوقت نفسه نجد الزوج ينتظرها بعد عودتها من العمل كخادمة أو عاملة ليقبض راتبها، وإن رفضت يعالجها بالضرب لأنه فى أحيان كثيرة يريد هذا الراتب والأجر لشراء البانجو، وأحيانا للزواج من إمرأة أخرى لتلعب دور

الضرة وبذلك تتحول الدرة المكنونة الى ضرة مجنونة، وتنقلب الجوهرة المصونة الى المرة الملونة، إلى بقرة يحلب منها الزوج الفلوس ليرضع منها ملذاته الخاصة .

من الأرقام الاخرى المفحمة الرقم الذى يمثل نسبة عمل المرأة فى التعليم الابتدائى، فأكثر من ٩٧ % من مدرسى الابتدائى من النساء وهو رقم مكتسح يدل على مدى إسهام المرأة فى تشكيل عقل ووجدان الجيل الجديد فى مصر بعملها أيضاً وليس بمجرد جلوسها فى بيتها.

ورقم آخر ولكنه هذه المرة يثير الخجل فى مجتمع يدعى المساواة ويحاول اللحاق بركب القرن الحادى والعشرين ،رقم نسبة البطالة التى وصلت حسب تقرير فريدريش ايبرت الى أكثر من ٢٤ % أى ضعف معدلها على المستوى القومى، والرقم الآخر هو أن ثلث عمالة النساء غير مدفوعة الأجر، وفى دراسة قام بها معهد التخطيط القومى فى مصر تناولت ٦٠٦٤ مؤسسة صناعية صغيرة أظهرت النتائج أن ثلثى المنشآت فقط كانت تدفع أجوراً متساوية للنساء و الرجال .

على ضوء هذه الأرقام وغيرها تحلل د. رفيقة حمود وضع عمل المرأةعندنا فتقول ،أرباب العمل يحجمون عن تعيين النساء بحجة أنهن يتغيبن أكثر من الرجال خصوصاً المتزوجات منهن بسبب المسئوليات الأسرية أو يستبعدونهن من العمل بشكل تعسفى فى حالات الزواج والحمل والولادة فضلاً عن حرمانهن من الضمانات الاجتماعية والتأمين الصحى ومن فرص التدريب والتأهيل وإبعادهن عن المراكز القيادية حتى وإن كن يتمتعن بالمؤهلات العلمية والمهنية اللازمة، هذا وتستبعد المرأة من بعض الإعلانات التى تعلن عن موظفين لبعض

الأعمال التي يمكن أن تمارسها ، وتنحصر فرص التعيين أو الترقية للمرأة في إطار الوظائف غير الإشرافية ٤٦,٩% ، بحيث لا يسمح لها بالمشاركة في اتخاذ القرار كما يتم التركيز على تعيينها في الأعمال المتعلقة بالخدمات ٣٧,٢% وهي الوظائف التي لا تظهر قدراتها الخلاقة في العمل.

والمدهش أن يحدث هذا التجاوز و يتحقق هذا الظلم في ظل دستور مصري يؤكد مساواة المرأة بالرجل وتحقيق الفرص المتكافئة لهما، ويعلي من قيمة العمل الإنساني عامة وعمل المرأة خاصة ويتضح ذلك من مواد الدستور أرقام ٨، ١٣ ، ١٤، ١٠ ، ١١ و التي تنص علي ما يلي :-

- المادة ١٣ : العمل حق وواجب وشرف تكفله الدولة ويكون العاملون الممتازون محل تقدير الدولة والمجتمع، ولا يجوز فرض أي عمل جبراً على المواطنين إلا بمقتضى قانون ولأداء خدمة عامة وبمقابل عادل.

- المادة : ١٤ الوظائف العامة حق للمواطنين وتكليف للقائمين بها لخدمة الشعب وتكفل الدولة حمايتهم وقيامهم بأداء واجباتهم في رعاية مصالح الشعب.

- المادة ١٠ : تكفل الدولة حماية الأمومة والطفولة وترعى النشء والشباب وتوفر لهم الظروف المناسبة لتنمية ملكاتهم .

- المادة ١١ : تكفل الدولة التوفيق بين واجبات المرأة نحو الأسرة وعملها في المجتمع ومساواتها بالرجل في ميادين الحياة السياسية والإجتماعية و الثقافية والاقتصادية دون إخلال بأحكام الشريعة الإسلامية.

وإنطلاقا من تلك المفاهيم التى أقرها الدستور حاول القانون المصرى أن يعكسها على مواده وكان المشرع فى كثير من الأحيان مستنيراً واعياً لدور المرأة الإنسانى والإجتماعى فأصدر عدداً كبيراً من قوانين العمل التى تحمى المرأة مثل:

- للعاملة الحق فى إجازة وضع تكون مدتها ثلاثة أشهر بعد الوضع وذلك لثلاث مرات طوال حياتها الوظيفية.

- للعاملة التى أمضت ستة أشهر فى خدمة أصحاب العمل الحق فى إجازة وضع مدتها خمسون يوماً بأجر كامل، ولا يجوز تشغيل العاملة خلال الأربعين يوما التالية للوضع.

- فى خلال الثمانية عشر شهراً التالية لتاريخ الوضع يكون للعاملة الحق فى الحصول على اجازة بدون راتب لا تزيد على سنة لرعاية طفلها.

- على صاحب العمل الذى يستخدم مائة عاملة أو أكثر فى مكان واحد أن ينشئ أو يعهد إلى دار حضانة بإيواء الأطفال .

- لا يجوز تشغيل النساء فى الفترة ما بين الساعة الثانية مساء والسابعة صباحا.إلا فى الأحوال والأعمال و المناسبات التى يصدر بتحديدها قرار من وزير القوى العاملة.

- لا يجوز تشغيل النساء فى الأعمال الضارة بهن صحياً أو أخلاقياً وكذلك فى الأعمال الشاقة.

لكن تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن ويأتى الواقع بما لا تشتهيه وتبغيه القوانين، فأى قانون يظل حبيس أوراقه وبنوده ولا يساوى ثمن الحبر الذى كتب به إذا لم يواكبه قبول اجتماعى يجعل تطبيقه مقبولاً، وللمحافظة على روح القانون وعدم تحويله إلى مجرد فقرات شكلية وعبارات حماسية مزخرفة يجب أن يحميه المجتمع لا أن يهرب منه ويحاول وأده والالتفاف عليه والزوغان منه، وقد إستغل الكثيرون من أرباب العمل الثغرات التى دخلت وتسللت إلى نسيج بعض هذه القوانين لجعلها حبراً على ورق، وذلك كله يرجع لسبب بسيط هو أنهم فعلاً لايؤمنون بعمل المرأة ودورها الإجتماعى، ويحاولون تهميشها بشتى السبل والوسائل وتحت مسميات كثيرة منها الدينى ومنها الإجتماعى ومنها الإقتصادى ..الخ،ومن بين هذه الثغرات التى لابد أن يلتفت إليها المشرع مايلى :

• يوجد تناقض تشريعى واضح بين قانون المرأة العاملة بالقطاع الخاص، والمرأة العاملة بالقطاع العام والدولة، ففى حالة القطاع العام والدولة إجازة الوضع ثلاثة أشهر، وفى القطاع الخاص أربعون يوماً فقط، وهذا تمييز واضح مابين الحالتين، فبرغم أن المشرع قد إقتنع أن المدة المناسبة ثلاثة أشهر فلماذا التراجع فى حالة العاملات فى القطاع الخاص؟.

• تناقض تشريعى آخر بين العاملات فى القطاع الخاص والعام، ففى القطاع الخاص إجازة رعاية الطفل سنة بدون راتب ،أما فى القطاع العام فمن حق العاملة إجازة سنتان بدون راتب لرعاية الطفل، وهذا تمييز آخر ليس له أى مبرر .

● الشرط الذى يتطلبه القانون لكى يلتزم صاحب العمل بإنشاء دور حضانة لأطفال العاملات وهو استخدامه لمائة عاملة فأكثر هو شرط مجحف بحقوق المرأة العاملة فى المنشآت التى تستخدم عاملات أقل من هذا العدد، وذلك لأن إحتياج المرأة لدور الحضانة لا يتقيد بالعدد وهو إحتياج ملح سواء فى المصانع الصغيرة أو الكبيرة ،إنه بإختصار شديد غير عادل وغير مبرر، وفى معظم الأحيان يتحايل عليه صاحب العمل بتعيين أقل من مائة عاملة تجنباً لوجع الدماغ .

والغريب والمدهش ونحن ننتمى جميعا إلى أصول ريفية، تجد معظمنا ينسى المرأة الفلاحة ويتحدث عن المرأة المتوسطة بنت المدينة، وكأنها هى التى تمثل عنصر النساء فى المجتمع وتنص المادة ١٤ من إتفاقية المرأة على إلتزام الدول الأطراف بأن تضع فى اعتبارها المشاكل الخاصة التى تواجهها المرأة الريفية، والأدوار المهمة التى تؤديها فى تأمين أسباب البقاء اقتصادياً لأسرتها بما فى ذلك عملها فى النشاط الاقتصادى دون أجر، وأن تكفل لها على أساس المساواة مع الرجل حق التدريب و التعليم والتأمين الاجتماعى والمشاركة فى وضع تنفيذ خطط التنمية على جميع المستويات، وتوفير فرصة الحصول على القروض والائتمان، وتسهيل وتسويق التكنولوجيا المناسبة، والمساواة فى المعاملة فى مشروعات استصلاح الأراضى والاستصلاح الزراعى ومشروعات التطوير الريفية وفى التمتع بالظروف المعيشية الملائمة.

ما سبق هو المفترض ولكن ما يجرى على أرض الواقع بعيد كل البعد عما سبق ذكره، فالقانون المصرى لا يعتبر المرأة الريفية التى

تعمل عـاملة، وسنفهم حـالاً حل هذا اللغز العويص، السبب كمـا تقول المحامية منى ذو الفقار أنها تعـمل بدون أجر في معظم الأحيان ولذلك فهي لا تتمتع بأية حمـاية قانـونية في ظل قوانين العمل السارية، ولا بأيــة حقوق في التأمينات الإجتماعيـة، كما أن حقـها في الحصول على الائتـمان والقروض وتسهيلات التسويق والمشـاركة في تنفيذ البرامج الصحية وتنظيم الأسرة، تعتبر جميعها نظـرية إلى حد بعيد حيث يحول دون تطبيقها أو ممارستها نسبة الأمية العالية وإزدواج مـسئوليــة المرأة الريفـيـة وغـيرها من الأسـبـاب الاقـتـصـادية و الاجتماعية.

وإذا كـان هذا هو حـال المرأة الريفـيـة فـمـاذا سيكون حـال بائعـة الخـضروات المتـجـولة على سبيل المثال؟، بالطبع في منتـهى البؤس والضنك، فلو حملت أو وضعت هذه المرأة هل لها من مـعين؟، أم أننا سنطلق في وجـوههن قـولنا المأثور الفـقـرا لهم ربنا، وبـالطبع نعم بـالله، ولكن الله لم يقل لنا أن نـرمـى هؤلاء الـسـيـدات فى الشـارع بدون أى تأمينات أو دعم، وأعرف أن هذا مطلب من مطالب اليوتوبيا أو المدينة الفـاضلة بالنسـبـة لنا لأن المرأة على الهـامش ومن نتكلم عنهن على هامش الهـامش مو لكن صـدقـونى لن يحـدث تقدم بدون حلم و بدون تفكير في اليوتوبيا.

وهذا التهـميش للأسف تسـهم فيه وسـائل الإعلام فبعـد أن كنا في الستينات نشاهد فيلما للفنانة ماجدة تذهب فيه للسد العالى أصبحنا نسمع السيدة آمال فهمى وهى تدعو في برنامجها على الناصية لعودة

المرأة للبيت وأصبحنا أيضاً نشاهد إعلانات وظائف غريبة وشاذة تكتب بكل بجاحة وظائف للذكور فقط، فهل تصبح الحياة للذكور فقط برغم أن صانعة الحياة ورحمها الخصيب وحضنها الواسع هى المرأة والمرأة فقط؟

* * *

« الشلوت » حجر الزاوية في العلاقة الزوجية

إكسر للبنت ضلع يطلع لها ضلعين، وضرب الحبيب زى أكل الزبيب، هذه الشعارات وغيرها هى ما يستند إليه ويختبئ وراءه معظم الرجال الذين يضربون زوجاتهم، والمصيبة أن هذه الأمثال الشعبية ليست صناعة مصرية خالصة، وإنما هى سوق عربية مشتركة، فهناك أيضاً من تعبيرات وأمثال الشام المرأة مثل السجاد ما بتنضف إلا بالخبط، والمرأة مثل الزيتون ما بتحلى إلا بالرص أى بالضرب ، والمرأة كل مابهدلتها حبتك وكل ما دلتها سبتك، والمرأة فشه خلق أى متنفس للكبت، وإضرب المرأة بدون سبب هى بتعرف ليش..الخ

ولأن المرأة فشة خلق كما تقول الأمثال فهى كمثل كيس الرمل الذى يعلقه أصحاب العمل اليابانيون على بعض أبواب شركاتهم ليضربه الموظفون فى الصباح، ويفشوا غلهم فيه فينتهى توترهم ويبدأوا يوماً جديداً بهمة ونشاط، ولأن من المسموح به للرجل أن يكون بالون

غضب، ومن الممنوع على المرأة أن تقترب من هذا البالون إلا كدبوس لتخفيف توتره، والتساؤل الذى يفرض نفسه هو: هل الزواج تحول إلى ساحة مصارعة أو حلبة ملاكمة؟، والإجابة فى كثير من الأحيان نعم ، ذلك ما تؤكده هذه الأرقام المأساوية المفزعة التى تؤكد أن واحدة من كل ثلاث نساء مصريات متزوجات تتعرض للضرب مرة واحدة على الأقل منذ زواجها، ومن ٤٢% إلى ٤٦% من النساء المتزوجات الأميات أو الحاصلات على تعليم ابتدائى تعرضت للضرب خلال حياتها الزوجية و١٤% من الحاصلات على درجات تعليمية أعلى بما فى ذلك التعليم الجامعى وما فوق الجامعى تعرضت للضرب فى حياتها الزوجية (د. ماجدة عدلى مركز النديم)، وفى بحث ميدانى آخر يدل على مدى إنتشار الضرب لدرجة الوباء تبين أن ٨٣ %من نساء عينة البحث و٩٤%من الرجال أفادوا أنهم يعرفون أسراً تضرب فيها النساء الزوجات والأمهات والأخوات (مركز دراسات المرأة الجديدة)، كما بين بحث أجراه المجلس القومي للسكان فى مصر أن ٣٥% من المصريات تعرضن للضرب من قبل أزواجهن على الأقل مرة واحدة وأن حملهن لم يعفهن من العقوبة (الأهرام ٧ فبراير ١٩٩٧) وهذه الاحصائيات غالباً أقل من الحقيقة لأن المرأة تدارى وتخفى وتبلع إهانتها رافعة الشعار المخادع الذى تمر من خلال بوابته كل الاهانات بلاش نهد البيت وخلينا نربي العيال، وهى كلمة حق يراد بها أباطيل كثيرة أهمها تسويغ وتبرير ضربها وإهانتها المستمرة أمام الناس وأمام أطفالها، و الأهم أمام نفسها التى تتعود الاهانة حتى تدمنها فيضاف الخراب النفسى إلى التدمير الجسدى.

دائماً ما كنا نكتب في الفصول السابقة التي تناولنا فيها العنف أرقاماً جامدة، والرقم بطبيعته كائن ميت يفتقر إلى حرارة الروح وعنفوانها، ولأن الضرب فعل أو أكشن مثير ودموى فمن المفيد تحويل هذا الفصل إلى دراما من لحم ودم تتناسب مع حيوية هذا الأكشن، وتبتعد عن جفاف الأرقام، وكانت البداية صورة القضية التي أطلعتني عليها الصديقة المحامية عزة سليمان والتي أصابتني بإنزعاج وفزع شديدين من فرط التناول المخل والفهم المغلوط لما يسمى حق تاديب الزوجة في الشريعة الإسلامية، فالقضية التي نظرتها محكمة النقض في ديسمبر ١٩٩٤ أصابتني بما يشبه الزلزال النفسي وجعلتني أتأمل في قضايا كثيرة مثلها فوجدت أن النظرة المؤيدة نفسها للضرب موجودة وإن تم الإعتراض فقط على درجة قسوة الضرب، وهذه النظرة لم تناقش أو تعارض على الإطلاق مشروعية الضرب نفسه كمبدأ.

القضية كانت مناقشة الطعن المقدم من زوج ضرب زوجته وداد محمد على في كفر الشيخ بطوبة أدت إلى موتها بعد إحداث تهتك بالطحال ونزيف دموى حاد، ومحامي الزوج يعترض على الحكم الصادر ضد الزوج و ـ أرجوكم ألا تندهشوا ـ بالحبس سنتين مع الشغل، يعني المحامي زعلان إن الزوج سيحبس سنتين مع أنه عمل حاجة بسيطة قتلها بس بغرض التأديب!!، فالمحامي يقول في دفاعه إن الزوج استخدم حقه في تأديب زوجته طبقاً للمادة ٦٠ من قانون العقوبات والتي تقول أنه لا تسرى أحكام قانون العقوبات علي كل فعل إرتكب بنية سليمة عملاً بحق مقرر بمقتضى الشريعة، والحمد لله أن المحكمة رفضت هذا الطعن، ولكن المشكلة ليست في قبول الطعن من

عدمـه، ولكن المشكلة الأكبر أن مسألة التأديب بالضرب هذه تناقش على أنهـا حق مـقـرر و طبـيـعى للرجل من المكن طبـعـا أن يسئ استخدامه، ولكن ماذا إذا أحسن استخدامه؟، هل يكون مقبولاً حينذاك؟ وإذا قبلناه نكون كأننا نطالب الأزواج بأن يدخلوا مدرسة ليتدربوا فيها كيف تلاكم زوجتك بدون إحداث كدمات أو سحجات أو إصابات ظاهرة؟، كأن الزوج حين يلطم زوجته الأستاذة الجامعية مثلاً بدون أن تحدث كدمة ليؤدبها فهذا مقبول لأنها لاتحتاج إلى علاج أكثر من واحد وعشرين يوم، أى أن المهم هو لغة التقارير الطبية وليست لغة التقارير العاطفية والانسانية، ونحن هنا ننسى أو نتناسى أن مجرد التلفظ أو السب بعبارات خارجة أو قاسية للزوجة هو عنف أيضاً، وأن الضرب عقوبة غير حضارية وخصوصاً بين الزوج وزوجته، ومبادئ الإسلام العامة تؤكد حرمة الجسد وعدم إهانته، وتؤكد أيضا حسن معاشرة المرأة (وعاشروهن بالمعروف)، (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة (ولذلك لابد من فهم الآية التي تقول واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن..، والتى يعتمد عليها الكثيرون فى وجوب تأديب المرأة بالضرب لابد أن نفهمها فى ضوء هذه المبادئ الاسلامية العامة، وأيضا لابد من فهمها فى سياق زمانها ومعتقدات وعادات وأعراف المجتمع وقتها، لابد من هذا لكى نتحاشى الخلاف العميق فى تفسيرما هو النشوز؟، وما حدود هذا الضرب؟، والذى أقر البعض بأنها بمجرد سواك ، وآخرون قالوا بمنديل ملفوف، والبعض أباح اللطم باليد، والبعض نصح بأنه لا يجب أن يكون ضرباً مبرحاً يكسر العظام ...الخ،

بالطبع يتسع مفهوم الضرب المبرح ليستغله البعض فى إهانة الزوجة لأن أحداً لا يعرف ما حدود هذا المبرح بالضبط؟، ولذلك ولأنها قضية مهمة وبالغة الخطورة ومتشعبة وغير محددة المَلامح، فإننا نطالب بإعادة طرح قضية التأديب بالضرب مرة أخرى وبآليات أخرى وبمشاركة علماء الاجتماع ورجال الدين والباحثين فى علوم النفس وممثلى الجمعيات و غير الحكومية وحقوق الإنسان وقضايا المرأة ومع كل هؤلاء بل قبلهم المسئولون و المشرعون.

إذا كنا قد ذكرنا الآيات القرآنية التى حثت على معاملة المرأة ومعاشرتها بالمعروف، فإننا لابد أن نذكر أيضا فى هذا المضمار الأحاديث النبوية التى قد يغفلها بعض الرجال عن عمد لتدعيم نظرتها الدونية للمرأة و نذكر منها:

- لا يجلد أحدكم إمرأته جلد العبد ثم يجامعها فى آخر اليوم
- استوصوا بالنساء خيرا
- أطعموهن مما تأكلون واكسوهن مما تكتسون ولا تضربوهن ولا تقبحوهن
- عن عائشة رضى الله عنها قالت ما ضرب رسول الله صلى الله عليه و سلم خادماً ولا إمرأة

هذه الأحاديث وغيرها ودراسة الغايات الكلية والأهداف السامية للدين الإسلامى الحنيف، ومراعاة تطور وتغير العصر والمجتمع، وبالتالى دور ووضع المرأة كل هذا يجعلنا كما قلنا نعيد النظر فى الكثير

من مفاهيمنا مثل التأديب والقوامة ونقصان العقل والدين ولزوم المرأة البيت وعدم خروجها للعمل .إلخ

وإذا كنا سنعيد النظر فى مفاهيم كثيرة فلابد أن يكون من بين ما سنعيد النظر فيه مفهوم العنف ذاته وستساعدنا فى ذلك المادة الثانية من الإعلان العالمى لإزالة أشكال العنف ضد المرأة، وأيضاً ما تضمنته مؤتمرات السكان التى اشرفت عليها الأمم المتحدة وبذلك يمكننا تقسيم العنف إلى:

● العنف النفسى: معاملة المرأة على أنها أقل أو جعلها تظن أنها حالة نفسية معقدة، وإفقادها الثقة فى ذاتها، واتهامها بالتسبب في العنف الممارس ضدها.

● العنف الاقتصادى: عدم السماح للمرأة بالعمل وعدم إعطائها نقوداً، أو أخذ النقود منها وعدم إخبارها بدخل الأسرة.

● العنف الجنسى: إجبار المرأة على ممارسة جنسية ضد رغبتها.

● تهديد المرأة: التهديد بقتلها أو تركها أو إجبارها على عمل أشياء غير قانونية.

● إستخدام الأطفال ضد المرأة من خلال تهديدها بعدم رؤيتهم ثانية أو إشعارها بالذنب لتركهم.

● إرهاب المرأة: كسر أشياء أو سكب الطعام على الأرض أو الاحتفاظ بآلة حادة فى المنزل للتهديد .

●عزل المرأة عن بيئتها: تحديد حرية حركة المرأة ومنعها من رؤية عائلتها و أصدقائها.

من أهم الدراسات المصرية التى تناولت موضوع ضرب الزوجة الدراسة التى كتبتها الباحثة د. مارلين تادرس، وهى دراسة لا غنى عنها لكل من يتصدى لدراسة هذه القضية، وقد أجرى هذا البحث على عينة من نساء منشأة ناصر سنة ١٩٩٧ و منشأة ناصر لمن لايعرفها هى منطقة عشوائية أسفل جبل المقطم يقطنها حوالى مائة ألف نسمة، وسر تميز هـذا البحث أن سن النساء فى عينة البحث تتراوح مابين ١٤ و٦٥ عاماً، وهى مساحة عمرية واسعة نستطيع معها رصد العنف فى الطبقات الشعبية ضد المرأة، والذى يعكس بالتالى نظرة دونية مهينة نحوها، و سنستعرض معاً نتائج البحث، ونحاول ترتيبها ومعها كلمات وعبارات بعض النساء كما هى، أو كما يقولون بعبلها حتى نكسو القضية لحماً ودماً كما كسوناها من قبل بملفات قضايا المحاكم الفعلية .

ممارسة العنف للمرة الأولى ضد الزوجة فى الشهر الأول من الزواج كان بسبب العائلة فى ٣٦% من الحالات و هذه بعض شهادات الزوجات:

ـ رسمية(٢٩ سنة) : أمه كانت بتقومه عليا علشان كانت عايشة معانا

ـ سامية (٤٥ سنة) : كنت حامل و سلفتى ضربتنى فى بطنى بعامود حديد و أغمى عليا

ـ نورا(٢٦ سنة): كنت بغسل وأمه طلبت منى شاى قلت لها حاضر لما أخلص فراحت قالت لجوزى إنك لازم تضربها لما تقول لها على حاجة و تقول لك لأ ... وجه ضربنى.

● كان السبب التالى للعنف فى الشهر الأول متمثلاً فى الخلاف حول الزيارات ١٤% سواء أهلها أو حتى أهله:

ـ صباح(٤٥ سنة): كنت عايشة مع أهله وبعدين اتخانق معاهم ومنعنى من الأكل والكلام معاهم فأنا رفضت فضربنى.

ـ زوبة(٣٨ سنة): أخويا قاله إنى بأروح لبيت عمى و أغسل مع بناته فبعد ما مشى جاب الحزام وضربنى.

ـ هويدا(٣٦ سنة): بعد الجواز بأسبوع رحت شفت بنتى أصلى كنت متجوزة واحد قبله وليا بنت منه فضربنى.

ـ لواحظ (٣٥ سنة): رحت لبيت أخوه من غير إذنه فحلف ما أدخل بيت أخوه تانى لمدة سنة مع إنه ساكن فى نفس البيت فوقينا وحلف يمين طلاق ما أعتب هناك جتلى خيبة أمل لأنى عرفت هناك إنه كان متجوز وأنا مراته التانية لأ وإيه كمان بيضربنى.

● أما السبب الغالب ٧٥% والذى كانت النساء يتهربن من التصريح به فقد كان الجنس سواء فى الشهر الأول أو بعد ذلك :

ـ عزيزة (٣٠ سنة): ضربنى ليلة الدخلة لأن كان عندى نزيف وهوما رحمنيش.

ـ زكية(٢٩ سنة): كان عايزني وهو غريب عني ومش عارفاه قبل كدة فبعدته عني فضربني.

ـ سكينة (٢٥ سنة): يوم الدخلة حصل لي نزيف لأنهم أخذوا شرفي بلدي وقعدت أعيط و ضربني ورحت المستشفي.

ـ فاتن (٣٥ سنة): لو رفضت يتلكك على أي حاجة بعدها ويضربني ويشتمني.

ـ عيشة (٣٠سنة): المعاشرة عنده بالعافية ويضربني ويقول لي مش بمزاجك.

ـ صباح(٦٠ سنة): لسه لحد دلوقتي يضربني على الموضوع ده مع إن عنده ٨٥ سنة .

ـ هدى (٣٦ سنة): دايماً بيزعق وبيهدل الدنيا علشان الموضوع ده لأننا ساكنين في أوضة واحدة والولاد كتير يزعق ويحدفني باى حاجة طالما عايزني دلوقتي لومين قاعد يبقى لازم دلوقتي.

• من الأسباب المهمة الأخرى في غير الشهر الأول من الزواج المصروفات، حيث ذكرت ٦٥ % من النساء أنهن يتعرضن للعنف بسببها، ثم تأتي أعمال المنزل ٢٥%، و تحت هذا البند الطعام غير الجاهز أو كسر شئ أو ملابس غير مغسولة... إلخ .

نحن بالفعل أمام ميلودراما ما تتضاءل إلى جانبها مسرحيات يوسف وهبي وأفلام حسن الإمام إنها ميلودراما من لحم ودم والمدهش أنها تأخذ غطاء شرعياً، وفي معظم الأحيان لا تستهجن ولا يتم إدانتها، وبما

أننا تكلمنا عن أسباب العنف فلابد أن نتكلم عن أشكاله، وقد أثبتت نتائج البحث أن ٣٠% من النساء يتعرضن للعنف بشكل يومى، والعنف هنا يتخذ أشكالاً متعددة منها الضرب باليد، والضرب بالعصا ، وبسلك الكهرباء وبالحزام والشومة أو بسيخ حديد أو جنزير، بالإضافة إلى قذف أشياء فى وجوههن مثل الوابور والأحذية والكراسى والطعام، وأيضاً اللطم على الوجه وشد الشعر والخبط فى الحائط...الخ ، وأثبت البحث أن ١٦% من العينة قد أصبن إصابات تتراوح ما بين كسر الذراع والضلوع والنزيف الداخلى والإصابات فى الرأس واليد والتى تتطلب غرزاً، وأيضا الإجهاض، بينما ٩% منهن حاولن الانتحار، وهنا من المفيد اقتباس بعض التعليقات التى نحس معها أننا مازلنا نعيش عصر المعتقلات أو فى سجن الباستيل:

- إيمان ٥٠ سنة: بيضربنى بإيده اللى عاملة زى المرزبة

- م رشا ٣٧ سنة: لما بيقوم مش بيعرف نفسه كأنه اخد بنج يضربنى بالقلم بالبوكس بأى حاجة.

- غالية ٤٥ سنة: بيضربنى بسلك الكهرباء بالخرطوم ببرميل ميه يرقعنى فيه حتى في الشتا ويوقفنى فى المطر وكل أنواع التعذيب اللى تخطر على البال ويوقفنى قدام مراته التانية علشان لو هى ضحكت يعيد الضرب من تانى وممكن يفضل على كده طول الليل ويسبنا ويهيننا وممكن يعاشر واحدة فينا قدام التانية.

- عايدة ٢٧ سنة: بيضربنى بالأقلام بس أصله مش زى الرجالة التانيين اللى بيضربوا بالخرطوم لأ هو حنين !

ألم اقل لكم إننا نريد إعادة تعريف العنف، فالست عايدة تحمد الله أن زوجها حنين لا يضرب بالخرطوم، وموقف عايدة يشرح لنا جزءاً من أسباب عدم الإبلاغ عن هذه الحوادث، فالعنف وتلك المأساة مبرر أحياناً عند المرأة نفسها ، وقد أسهم فى ذلك المجتمع الذى رسخ دونيتها الإجتماعية منذ الصغر، وقام بالطناش على صور عنف معنوى أخرى كان يجب أن يجتثها من جذورها منذ بدايتها، والأرقام والتعبيرات التالية تعبر أصدق تعبير عن ردود الفعل التى تترجم الخوف المترسب فى الأعماق، والخلل الضارب بجذوره فى العلاقة الأسرية، فقد ذكرت ٦٥% من الزوجات اللاتى لم يبلغن البوليس أن الدافع الرئيسى لذلك هو أنه عيب أن تبلغ عن زوجها ، والبعض من أجل الأطفال، والبعض الآخر لم يبلغن من الخوف، والباقى قلن إنهن خائفات على أزواجهن:

ـ نجية ٣١ سنة: لأ ما أروحش القسم علشان عيب وبعدين لما توصل إن الواحدة تشتكى اللى بياكلها و يشربها يبقى مالهاش لازمة تعيش بعد كده.

ـ منى ٣٢ سنة: أبقى ست ناقصة هيكون شكلى إيه لما نرجع تانى وننام جنب بعض.

ـ مايسة ٣٣ سنة: لو حبسته مين حيأكلنا.

ـ أم سليمان ٣٧ سنة: عيب الواحدة تروح القسم حتى لو جوزها فتح نافوخها.

ـ شادية ٤٩ سنة: ما أعملهاش جبانة بعيد عنك ده جبار و مفترى.

ـ هدى ٣٢ سنة: ما أفكرش أبدا فى الموضوع ده لأنه مسيره حيطلع من القسم وممكن يولع فيا بعد كده.

ـ فايزة ٣٦ سنة: إحنا متعودين على الضرب.. أخويا من صغرى كان بيضربنا قبل الجواز، لو رحت البوليس هيسجنه علشان هو هربان من التجنيد ومعاهوش بطاقة).

هؤلاء النساء الغلابة لم يستطعن إلا أن يكن أرقاماً فى بحث، وفشلن فى أن يصبحن كيانات فى وطن، ولكن لا تتصوروا أن الضرب العنيف إقتصر عليهن فقط، فكل يوم نقرأ عن عنف ضد ميسورات الحال أيضاً، ومنهن أستاذة الجامعة والطبيبة والمهندسة، فالضرب صار صاروخاً متعدياً للطبقات، والفرق هو أن البحث أجرى على منشأة ناصر، ولم يصل إلى نادى الجزيرة بعد، ولكنى واثق أن الجميع فى الهم سواء، ما دامت القبضة هي الحاكمة، والبوكس هو السيد، والشلوت هو حجر الزاوية فى العلاقة الزوجية.

* * *

الإغتصاب صناعة رجالى

من بين الكائنات و المخلوقات سواء كانت حيواناً أو طيراً أو حشرة إنفرد بالقدرة على الاغتصاب مخلوقان هما الرجل وفصيلة العناكب، وهذا معناه أن الإغتصاب صناعة رجالى وهواية لا يقدر عليها إلا الذكور، وفى الفيلم الأجنبى هيروشيما حبيبى مزج المخرج وساوى بين حادث القنبلة الذرية وحادث الاغتصاب، وأعتقد أنه لم يكن يبالغ وقتها، ولم يكن واقعاً تحت تأثير الخيال الفنى والجموح السينمائى، فالإغتصاب زلزال تأثيره على نفسية الفتاة كتأثير القنبلة الذرية، فهو يدمر الثقة ويحطم الأمان ويزعزع كل القيم والمثل فى نظرها .

والمغتصبة تنتهك روحياً قبل أن تنتهك جسدياً، ويزحف التصحر العاطفى على خضرة مشاعرها وتفتح عواطفها ورغبتها فى الحياة، وعندما ينشب ذئب النذالة والرعب أظافره فى جسدها، فهو فى الوقت

نفسه يجرح أنوثتها وإنسانيتها وابتسامتها، فينقلب حنانها قسوة، وتنقلب رقتها شراسة، ويتحول الحنان إلى فزع، والإقبال على الحياة إلى رعب من مجرد الانتساب إليها.

فى قصة الحرام للمبدع يوسف إدريس جعل الاغتصاب هو الثمن الذى دفعته عاملة التراحيل لجذرالبطاطا، فأضافت إلى فقر الجيب فقر الروح وجدب الأمل، كانت تتحمل الزمن الضنين و الفقر الكاسر وقلة الموارد وندرة الحلم ،لكنها لم تحتمل هذه اللحظة الرهيبة لحظة إغتصابها فى حقل البطاطا، فبداية الاغتصاب استباحة وهى برغم فقرها لم تكن مستباحة، ونهاية الإغتصاب موت يلف الفتاة بكفنه لحظة أن يغادر المعتدى ساحة معركته القذرة، فتعيش الفتاة تتحرك على قدمين من عار ، والاغتصاب الذى هو فى نظرى أكثر الجرائم إثارة للتقزز و الاشمئزاز ، هو جريمة عنف وتمرد و إحتجاج مرضى قبل أن يكون لمجرد الحصول على اللذة، إنه رغبة فى هتك نسيج المجتمع وفض بنيانه قبل أن يكون هتكاً لعرض أوفضاً لغشاء، وإنتشاره فى أى مجتمع هو دلالة على خلل مرعب، وعلامة على إنهيار سريع وتفكك مريب، والأهم أنه مؤشر خطير على مدى العنف المكبوت الذى لا يجد له إلا منفذاً فى جسد المرأة، ومتنفساً فى كيانها وروحها، ولم لا وهى التى يمارس معها العنف أشكالاً والواناً من المهد إلى اللحد ؟، وإستسهال تنفيذ جريمة الإغتصاب بالرغم من قسوة وتغليظ العقوبة، وبالرغم من كم الإدانة الإجتماعية الضخمة التى توجه للمغتصب، ليس له إلا تفسير واحد، وهو أنه يوجد إغتصاب فى نواحى أخرى كثيرة من المجتمع تحتاج إلى تدخل .

تعريف الاغتصاب والتحرش الجنسى كمصطلح إتسع بفعل الفهم الرحب والمتسع لحقوق المرأة وحريتها، فهو حالة التحرش والتلاصق بأعضاء الجنس سواء اقترن ذلك بجنس كامل أم لا، وسواء إقترن بإستخدام القوة أو التهديد بها أم لا، وذلك دون موافقة الأنثى ورضاها، وكذلك إذا كانت الضحية قاصراً تحت السادسة عشرة أو كانت معاقة عقلياً أو حركياً، وإنطلاقاً من هذا المفهوم فإن إتصال الزوج بزوجته جنسياً دون رضاها وموافقتها يعتبر اغتصاباً، ويشهد القضاء فى الدول الأجنبية قضايا تتهم فيها الزوجات أزواجهن باغتصابهن ويحكم فيها لصالحهن، ولإثبات أن معظم حالات الاغتصاب هى صور عنف وردود فعل إجرامية لأشخاص سيكوباتيين أو مرضى نفسيين و ليست من أجل اللذة الجنسية فقط و التى من الممكن أن يحصل عليها فى أى بيت دعارة، أثبتت إحدي الدراسات العلمية الإحصائية أن نصف حالات الاغتصاب تقريبا ينهى فيها المغتصب العملية الجنسية فى الدقائق العشر الأولى، ويتبعها بعد ذلك بالإيذاء النفسى والبدنى للضحية والذى قد يتطور إلى قتلها أى أن العنف قبل النشوة والتدمير قبل النزوة.

والتدمير النفسى ليس وليد اللحظة وبالعكس لا يمكن نسيانه طوال العمر، لدرجة أن الأطباء قد نحتوا مصطلحاً طبياً جديداً لوصف ما يحدث بعد الاغتصاب، وهو متلازمة حادث الاغتصاب و الذى يمر بمرحلتين:

١ ـ المرحلة الحادة: وتستمر من عدة ساعات لعدة أيام بعد الحادث، وفى هذه المرحلة يعترى الضحية إضطراب شديد فى السلوك والتصرفات وتهيج و انفعال وإحساس شديد بالغضب والذنب والشعور

بالتحقير والذل والمهانة ، وقد تستطيع الضحية في أحوال قليلة أن تكتم أحاسيسها وإنفعالاتها وتختزن معاناتها النفسية في اللاشعور كخبرة مؤلمة، تتسبب فيما بعد في كثير من الأمراض النفسية، ولا يتوقف الأمر عند الاضطرابات النفسية فهناك الكثير من الاضطرابات الجسمانية مثل الصداع والارهاق والأرق واضطرابات الجهاز الهضمي مثل القيء والإسهال والمغص، واضطرابات الجهاز البولي مثل كثرة التبول أو التبول اللاإرادي كما أنها قد تشعر بأعراض بعض الأمراض الجنسية التي ربما قد تكون قد انتقلت من الجاني إليها.

٢ ـ المرحلة المزمنة: وتبدأ هذه المرحلة بعد الإغتصاب بحوالي أسبوعين أو ثلاثة، وفيها تبدأ المغتصبة في العودة التدريجية إلى طبيعتها، وإن كان ينتابها الكوابيس والمخاوف ذات الطابع الجنسي، ومع المساعدة النفسية والطبية والتأهيلية قد تشفى الضحية، ولكن الغالب الأعم لا تتعافي من هذه الخبرة المؤلمة وتظل تعاني طوال عمرها من إضطرابات نفسية مزمنة وفقدان للإحساس بالأمان وبرود جنسي، وإذا كان المغتصب مصاباً بأمراض جنسية، فإنه ينقلها للضحية، وأهم هذه الأمراض الإيدز والسيلان والزهري والكلاميديا والعدوي الميكروبية، مما يتسبب في التهابات الجهاز التناسلي وانسداد قنوات فالوب وما يستتبعه من عقم، ورغم أن احتمالات الحمل بعد الاغتصاب نادرة فهي تتراوح ما بين ٢ ـ ٤% فإن الضحية غالباً ما تواجه موقفاً غاية في الصعوبة قد يعرضها لمخاطر الإجهاض العشوائي بما يصاحبه من تلوث ونزيف وأحياناً موت.

تشير تقديرات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية إلى أن جرائم الاغتصاب تبلغ أكثر من عشرة آلاف جريمة سنوياً نقلاً عن مركز النديم للعلاج والتأهيل النفسى لضحايا العنف، وهو رقم مرعب وخطير وحتي لو كان الرقم الحقيقى النصف، فهو مازال مرعباً وخطيراً، وللأسف لا يتم الإبلاغ إلا عن ٢% فقط، وفى الصعيد لا يتم الإبلاغ عن حالة واحدة، ويرجع د. أحمد المجدوب صعوبة معرفة الحجم الحقيقى لظاهرة الاغتصاب إلى تفضيل الفتاة، وأهلها تكتم الأمر لأن الجيران و الأهل وحتي المعنيين بالمسئولية يلقون باللوم على الفتاة فى كثير من الأحيان لمظهرها المغرى، أو سلوكها المتساهل... إلخ، الأمر الذى يؤدى إلى تعذر زواج الضحية بعد ذلك إذا كانت لم تتزوج، أو إلى طلاقها إذا علم زوجها بما حدث، فتفضل السرية كذلك قد تكون الفتاة على علاقة عاطفية برجل يغتصبها ويعدها بالزواج حتى تمر لحظات القلق، وإذا انتهى الأمر بأمان ولم تبلغ الفتاة، هرب الجانى من قيد العلاقة أو أبقى عليها فى شكلها السرى الجديد، وتظل الفتاة متعلقة بسراب الوهم، وقد يكون الجانى من أقارب المجنى عليها، وأحياناً من المحارم فتفضل هى والأسرة عدم الابلاغ حفاظاً على كيان الأسرة، وأكثر جرائم الاغتصاب المبلغ عنها هى الجرائم التى تكون فيها الفتاة دون السن التى يعتد فيها برضاها ، وإذا تصادف وأبلغت إحدى الأسر بما حدث لإبنتها يظهر عندئذ العدد الكبير من جرائم الاغتصاب التى إرتكبها المتهم من قبل دون أن تقوم ضحاياه بالإبلاغ عنه.

المؤسف أن الوعى الجمعى يحصر كارثة الاغتصاب فى إطار الجنس وليس فى إطار العنف، ولا يريد أن يدرك أن الجنس ما هو إلا

وسيلة فقط لتفريغ هذا العنف ، ومازال يصر على أن الفتاة هى المسئولة والحل هو سجنها فى قمقم لأنها شيطان يتحرك على قدمين، وماكينة إغراء جنسية لا تستحق إلا الإعدام!!، والأكثر احباطاً أن المجتمع يمارس الصهينة و الطناش و التعامى عن ممارسات عنيفة ومضايقات جنسية لا تتخذ صورة الاغتصاب الجنسى الصريح الكامل، وقد اتسع مجال الاهتمام بهذه القضية بعد التقارير التى رفعت للأمم المتحدة ونوقشت فى مؤتمر بكين ١٩٩٥ حيث طالبت جمعيات حقوق الإنسان والجمعيات الحكومية والنسائية بضرورة الكشف عن صور العنف التى تواجه المراة عموماً، ومن بينها مضايقات العمل وهى مضايقات كما عرفتها د. ثريا صالح أستاذ علم النفس بجامعة أم درمان بأنها محاولة الشخص بطريقة مؤذية غير ملائمة، وقد تأخذ عدة أشكال منها ما هو موجه لفرد أومجموعة من الأفراد، ومنها ما هو موجه بصورة علنية مثل الرغبة أو عدم الرغبة فى فرد بعينه لمجرد الجنس، أو بصورة غير علنية ،و المضايقات الجنسية sexual harassment هى اشد أنواع تلك المضايقات مرارة وعنفاً وتشير دراسة الباحثة ملك زغلول ١٩٩٢ إلى أنه برغم صعوبة البحث فإن هناك عدداً من النساء قد إشتكين من هذه المضايقات، وبلغت نسبتهن ١٨,٥ %فى الحضر، و٧,٣% فى الريف أما عن مصادر المضايقات فهناك مضايقات من الزملاء الذكور بلغت ٤١% ، ومضايقات من الجمهور ٣٢,٨ % ، ومضايقات بسبب التمييز ضد المرأة ٥,٤% ، وقد أشارت إحدى الدراسات الميدانية الأخرى التى ذكرتها د. ناهد رمزى فى تقريرها الصادر عن رابطة المرأة العربية إلـــى ان ٦٦% من الفتيات يتعرضن للعنف فى أماكن عملهن ويأخذ العنف عادة طابعاً جنسياً ويتراوح ما بين:

ـ المعاكسة بالكلام أو الألفاظ ذات المعانى الجنسية ٣٠%.

ـ التحرش باللمس ١٧%

ـ الغزل غير المقبول ٢٠%

ويترتب علي هذه المضايقات شعور الفتاة بالإرتباك والخوف والإحباط فى ٢٣% من الحالات، أو الشعور بالإهانة والسلعية والرغبة في الانتقام ٤٢% من الحالات،وقد أشارت ٦٧ %من الحالات إلي أنهن لايستطعن ترك العمل بالرغم من تلك المعاناة لأسباب اقتصادية.

ومن صور العنف غير المتحضر إكراه الزوجة علي إقامة العلاقة الزوجية قسراً وبدون رضاها،

وهو سلوك لا يدينه المجتمع بل يعتبر الإمتثال له واجباً مقدساً، وقد يجبر الزوج زوجته على أساليب منحرفة فى العلاقة رغماً عن أنفها، وكأن هذا الجسد ليس جسدها بل جسده هو، وقد أجرى مركز النديم ومركز دراسات المرأة الجديدة بحثاً ميدانياً فى مصر أفادت ٩٣% من عينة البحث أنهن يعتبرن المعاشرة الزوجية بدون رغبة الزوجة عنفاً، وبالطبع هذا هو الإسم المؤدب للإغتصاب الصريح الذى لم يردن التصريح به!!

وإذا كان التحرش الجنسي بالمرأة جريمة بشعة، فالأكثر بشاعة أن يكون التحرش والإغتصاب لطفلة صغيرة، فهو هتك للبراءة، والجانى فيها لا يستطيع حتي أن يبرر فعلته بالهياج الجنسى، فالضحية عصفورة مازالت تتعلم فن الطيران والحياة، و مازالت واثقة بأن كل الألوان بيضاء، ومازالت تؤمن بأن كل البشر صادقون، فيأتى الذئب

للبشرى فيقص زغبها الناعم ليبدله أشواكاً، ويعرفها أن اللون الأسود هو السائد، وأن كل البشر خفافيش تعشق الظلام، وإذا كان الأطفال يمثلون ٤٥% من الشعب العربى، و هى أعلى نسبة فى العالم فلابد أن نمنح هذه المشكلة اهتماماً أكبر.

وفى البداية ما تعريف الاستغلال الجنسى لجسد الطفل؟، أنه اتصال جنسى بين طفل وبالغ من أجل إرضاء رغبات جنسية عند الأخير، مستخدماً القوة والسيطرة عليه، هذا هو التعريف العلمى لهذا الاستغلال الذى يعرف أيضاً بأنه دخول بالغين وأطفال غير ناضجين وغير واعين لطبيعة العلاقة الخاصة جداً وماهيتها عكما أنهم لا يستطيعون إعطاء موافقتهم على تلك العلاقة، والهدف هو اشباع المتطلبات والرغبات لدى المعتدى وإذا ما حدث الزلزال الأكبر داخل إطار العائلة من خلال أشخاص محرمين على الطفل، مما يعتبر خرقاً للتابو والعرف الاجتماعى وزعزعة لكل ما استقر عليه هذا المجتمع حول وظيفة وبنيان العائلة، وهو ما يسمى سفاح القربى أو زنا المحارم أو قتل الروح كما تسميه الباحثة ناهد باشطح التى كتبت دراسات مهمة حول هذه القضية، ويعرف سفاح القربى فى القانون بأنه ملامسة جنسية مع قاصر أو قاصرة على يد أحد أفراد العائلة .

وقد كتب الباحثان مكلويتس ولفشيتس ١٩٩٥ حول المقصود من الاستغلال الجنسى للطفل بأنه:

- كشف الأعضاء التناسلية
- إزالة الملابس عن الطفل بطريقة إغوائية

• ملامسة أو ملاطفة جسدية خاصة.

• التلصص على طفل.

• تعريضه لصور أو أفلام فاضحة.

• أعمال مشينة وغير أخلاقية مثل إجباره على التلفظ بألفاظ فاضحة.

• الاغتصاب.

وعن كيفية الإنتهاك الجسدى للطفل تقول الباحثة ناهد باشطح إن المعتدى هو شخص يكبر الضحية بخمس سنوات على الأقل، وله علاقة ثقة وقرب الضحية فى معظم الأحوال، وقد دلت الدراسات على أن أكثر من ٧٥% من المعتدين هم ممن لهم علاقة قرب بهؤلاء الأطفال، ويتم الإعتداء عن طريق التودد أو الترغيب، وهو استخدام الرشوة والملاحظة وتقديم الهدايا أو عن طريق الترهيب و التهديد وهو التخويف من إفشاء السر أو الكشف عن الاعتداء، وذلك عن طريق الضرب و التهديد بالتوقف عن حب الطفل.. إلخ.

لماذا تستغل البراءة ؟ سؤال طرحته الباحثة لميس ناصر للبحث عن مبررات حدوث هذا العنف الجسدى تجاه الطفلة وصنفت هذه العوامل صنفين:

- العوامل الديموغرافية: وهى العوامل الإجتماعية و السياسية والنفسية والاقتصادية والعوامل القانونية وأهمها عدم كفاية القوانين التى تحكم الاعتداءات الجنسية على المرأة والطفل، وقصور التعامل الأمنى

مع مثل هذا النوع من المشكلات، وعدم وضوح بعض المفاهيم قانونياً مثل الإساءة الجنسية، ووسائل الإعلام التى تكرس مظاهر العنف فى البرامج التليفزيونية وألعاب الكمبيوتر.

ـ عوامل الخطورة: وتنقسم إلى عوامل خطورة ترتبط بالمعتدى وهو فى الغالب شخص قد أسئ إليه جسديا أو عاطفيا أو جنسيا، وعوامل خطورة ترتبط بالمعتدى عليه مثل بعض صفات الأطفال الجسدية والعاطفية التى تقلل من حصانتهم للإساءة، ثم تأتى عوامل الخطورة المرتبطة بالعائلة فبعض العائلات لها صفات محددة تزيد من احتمالية الإساءة فيها مثل النزاعات الزوجية و الضغوط الاقتصادية، وأخيراً عوامل الخطورة المرتبطة بالمجتمع المحيط الذى يتساهل فى العقاب والعنف الجسدى ويعتبره أعلى أنواع التقويم مما يجعل العنف مبرراً.

الدراسة الوحيدة التى استطعنا الوصول إليها، ووجدناها تتناول موضوع التحرش الجنسى بالطفل فى مصر هى الدكتورة فاتن عبد الرحمن الطنبارى الباحثة بمعهد الدراسات العليا للطفولة بجامعة عين شمس، وتشير هذه الدراسة إلى أن حوادث الاعتداء الجنسى على الأطفال تمثل ١٨% من إجمالى الحوادث المختلفة للطفل، وفيما يتعلق بصلة مرتكب الحادث بالطفل الضحية اتضح أن النسبة هى ٣٥% لهم صلة قرابة بالطفل، أما الآثار التى يتركها الاعتداء الجنسى على الطفل فقد لخصتها الباحثة والصحفية ناهد باشطح فى ثلاثة آثار أو دلائل :

الدلائل الجسدية: تختلف باختلاف العمر ومنها: صعوبة فى المشى أو الجلوس، أو أمراض فى الأعضاء التناسلية، إفرازات أونزيف أو تلوث متكرر فى مجرى البول، أو أوجاع بالراس والحوض.

الدلائل السلوكية: الإنطواء والانعزال والانشغال الدائم بأحلام اليقظة، وعدم النوم وكثرة الكوابيس، تدنى المستوى التعليمى وعدم المشاركة فى أنشطة المدرسة، تورط الطفل فى سلوك إنحرافى، وعدم الثقة بالنفس وبالآخرين، والعدوانية، تشويه الأعضاء التناسلية وتعذيب النفس، ومن الممكن أن تقوم الطفلة بتصرفات إغوائية استفزازية.

الدلائل النفسية: ينجذب الطفل إلى الشذوذ الجنسى شيئاً فشيئاً، ويؤكد ذلك بحث العالم الأمريكي جريجورى ديكسون ١٩٩٦، والذى يظهـــر أن ٤٩% من الشواذ جنسياً قد حدث لهم نوع من الإعتداء الجنسى فى طفولتهم.

الاغتصاب هو اغتصاب للروح، والتحرش الجنسى هو تحرش بكل ما هو جميل فى هذا الكون، والمرأة قارورة عطر تتعطر بها الدنيا فى هجير الوحدة وقيظ اليأس، فلنجعلها تفوح ناشرة شذاها غير خائفة وغير مرعوبة من ذئب يتلذذ بجسدها، أو بلطجى ينهش روحها، لا تمنعوا عطرها بتحويله إلى بركة دم.

* * *

الضرة ضرورة ام ضرر ؟!

الضرة هى الزوجة الثانية وعندما تتأمل فى الكلمة تجد أنها توحى حتماً بالضرر، ولكن المدهش أن المحكمة فى مصر لا تعترف بذلك وتطلب من الزوجة الأولى إثبات أن الزوجة الثانية ضرر، وهكذا اللغة الدارجة دائما أصدق حتى من القوانين والتى يقال إنها تصاغ بلغة جامعة مانعة، إنها ليست مجرد كلمات ولكنها قبل ذلك مدلولات، فهى الضمير العام للمجتمع و الصوت الحقيقى له، والمجتمع الذى غالباً ما يضع مساحيق تجميل على سلوكياته ولكن كثيراً ما تفضحه اللغة الحقيقية التى يتحدث بها و يعبر عما بداخله من خلال مفرداتها.

وبما أننا قد إخترعنا إختراعاً نملك نحن فقط حقوق براءته وتسجيله، وهو إختراع تزويق الكلمات وتجميلها لإبعادها عن معناها الحقيقى وتفريغها من مضمونها الصريح، وذلك بعد تغيير بعض حروفها فمثلاً

كما أطلقنا على الهزيمة تعبير نكسة، وعلى رفع الأسعار عبارة تحريك الأسعار، وعلى الكوليرا أمراض الصيف، أطلقنا أيضا على الضرة لفظ ضرورة، وقلنا أن الضرة فى أحوال كثيرة هى ضرورة، وتعمد الكثيرون أن يجعلوا التعدد هو الأصل الذى يجب تشجيعه إلى أن وصلنا إلى الذروة فى رمضان منذ عدة أعوام حين أتحفنا التليفزيون المصرى الرسمى بملحمته المتخلفة عن الحاج متولى وزوجاته الأربع اللاتى يعشن فى خيره و بحبوحته بلا أية مشاكل، وفى منتهى السعادة والبغددة بل الأدهى أن تحضر الزوجة السابقة فرح اللاحقة وترقص فيه، وكان المبرر فى كل مرة الجملة الخالدة التى يقولها الحاج متولى ما دام أنا مقتدر والشرع محلل لى أربعة يبقى إيه الضرر!!، وكأنه يتحدث عن مواشى لا عن زوجات، وإذا كان هذا هو حال الإعلام الرسمى الذى يمثل الواجهة الثقافية للمجتمع فبالله عليكم ماذا يكون حال باقى المجتمع الذى يئن تحت وطأة الأمية و الجهل والتخلف؟

وإذا كان مجتمع الرجال قد أعجب بالحاج متولى دشنوه رمزاً للرجولة والفحولة، فإن قانون الأحوال الشخصية للأسف قد سيطرت على بعض مواده عقلية الحاج متولى كيف حدث ذلك؟، هذا هو ما سنعرفه بعد أن نستعرض رحلة الزوجة الثانية مع قانون الأحوال الشخصية.

صدر قانون الأحوال الشخصية فى مصر رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٠ ، وتعدل بموجب القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ و بعدها بخمسين سنة صدر القانون ٤٤ لسنة ١٩٧٩، أى أننا إحتجنا إلى نصف قرن تغيرت فيه

الدنيا ١٨٠ درجة لكى نصدر قانوناً جديداً ينصف المرأة، ولكن برغم كل هذه المدة الطويلة والمكاسب البسيطة التى تتحقق بسرعة السلحفاه لم يعجب هذا القانون الرجال، وهاجت الدنيا وماجت وخصوصاً من التيارات الرجعية وممثليها الذين شنوا حملة شعواء على القانون، وحاربوه وكأنهم يحاربون الكفار، وأطلقوا سهام سخريتهم من القانون، وأطلقوا عليه قانون جيهان نسبة لقرينة الرئيس الراحل السادات، وإتهموا شيخ الأزهر حينذاك بأبشع التهم، وظلوا وراء القانون بالمرصاد حتى تم إلغاؤه، ولكن ماذا كانت تقول مواد هذا القانون حتى تنطلق ضده كل هذه الحملات المسمومة ؟

قانون ١٩٧٩ فى الحقيقة لم يقيد حق الزوج فى الزواج بأخرى، ولكن كل ما فعله هو مجرد تنظيم ممارسة هذا الحق بأسلوب يحترم آدمية وإنسانية الزوجتين الأولى والثانية حتى لا يتعامل معهما الزوج وكأنهما مجرد كرسيين من حقه التصرف فيهما كيف يشاء، فالقانون قد ألزم الزوج بالإقرار بإسم الزوجة أو الزوجات اللاتى فى عصمته، ومحل إقامتهن قبل عقد الزواج الجديد بكتاب موصى عليه كما نص القانون على عقاب الزوج بالحبس مدة لا تزيد على ستة أشهر أو بغرامة ٢٠٠ جنيه فى حالة مخالفة هذا النص، وعقاب الموثق بالحبس لمدة لا تتجاوز ستة أشهر وبغرامة مقدارها خمسون جنيهاً، كما أجاز عزله أو وقفه عن العمل لمدة لا تتجاوز سنة فى حالة مخالفته إلتزاماته.

وقد أعطى القانون الزوجة الأولى حق الطلاق دون إثبات الضرر، إذا طلبت الزوجة ذلك خلال سنة من تاريخ علمها بالزواج الجديد،

وللزوجـة الجـديدة الحق نفسـه إذا أخـفى عنهـا الزوج زواجـه بأخـرى، وبالطبع هذا النص كما ذكرت المحامية منى ذو الفقار كان يهدف إلى دفع الزوج الذى يرغب فى الزواج ثانية إلى مواجهة الموقف بشجاعة، وتطليق الزوجة الأولى إذا طلبت لتضررها دون الحاجة لإثبات الضرر.

والمسألة الثانية و التى كانت محل إعتراض و سخرية كاسحة لدرجة ظهور أفلام كوميدية تسخر من هذه الفقرة فى القانون، هى الفقرة المتعلقة بحق المطلقة الحاضنة فى الإستقلال بمسكن الزوجية طوال مدة حضانتها للصغار إلا إذا كان من حقه أصلاً الاحتفاظ به أى إذا كان مملوكاً أو مستأجراً بإسمه، وبرغم أن القانون لم يراع ظروف المرأة غير العاملة أو كبيرة السن بعد خروجها من المنزل بعد انتهاء حق الحضانة و النفقة إلا أنه كان قانوناً تقدمياً وأكثر إنصافاً برغم بعض عيوبه.

وفى مايو ١٩٨٥ صدر حكم المحكمة الدستورية العليا ببطلان قانون ١٩٧٩ ولابد أن نعـرف أنه رفض لسـبب شكلى وليس لسـبب فى مضمونه، فهو قد رفض لأنه صدر أثناء إجازة مجلس الشعب، وبعدها ظلت المرأة تخضع ثانية لقوانين العشرينات، ولمدة ٦ سنوات، حتى صدر القانون ١٠٠ لسنة ١٩٨٥ وقبل أن ندخل فى تعداد التنازلات التى قدمها القانون الجديد لابد أن نطلع على بحث اجرى على موقف القضاه من قانون ١٩٧٩ بعد إلغائه، والبحث أجرته الباحثة أمينة شميس، وهذا البحث له دلالته الخطيرة على أن الموقف الثقافى للمجتمع والخلفية الثقافية لأفراده هي التى تشكل الصيغ القانونية وليس

العكس، فقد أجاب عشرون قاضياً من سبعة وعشرين قاضياً أن هذا القانون مخالف للشريعة، ويفتح للمرأة المجال لطلب الطلاق، ويحد من حق الزوج في الزواج بأخرى، وأن المرأة قد خلقت بطبيعة نفسية تقبل التعدد، بل إن البعض أجاب بأن النص الذى يجيز التطليق بسبب الزواج الثانى يشجع على الدعارة، فإذا طلقت الزوجة لهذا السبب وتزوجت بآخر فقد ارتكبت الزنا لأن طلاقها لاغي، وأن هذا القانون لا أخلاقى لأنه يحث الزوجة على الطلاق والمدهش أنهم إعتبروا أنه من الطبيعى أن الزوجة ما دامت تحرص على سعادة زوجها فلابد أن تكون سعيدة بزواجه من أخرى لأن ذلك سيحميه من الفاحشة، ومع احترامنا الكامل لرأى القضاه موضوع البحث إلا أننا ننبه إلى أن هذا البحث له دلالات خطيرة جداً، فالمجتمع فكر فى الأمر من ناحية الزوج ولكنهم لم يفكروا للحظة فى موقف الزوجة التى إفترضوا افتراضاً عجيباً أنها ستكون سعيدة لأنها منعت زوجها من الوقوع فى الفاحشة، وكأن المهم عند المجتمع هو عدم وقوع الرجل فى الفاحشة وليس من المهم وقوع المرأة فى فخ الإهمال والضياع و الدونية والعجز، وبالطبع كان سند مهاجمى القانون فى كل ما قالوه هو نصف آية إقتبسوها وتناسوا النصف الثانى كما سنذكر فيما بعد.

أدى الهجوم الشرس من التيار الرجعى على مواد قانون ١٩٧٩ إلى تراجع المشرع عن نظرته المستنيرة السابقة فى صياغة بعض مواد قانون ١٩٨٥، فقد كان أزيز العاصفة مازال يصم الآذان ويرعش الأبدان، وقد كان أهم تنازل في القانون الجديد هو أنه ألزم الزوجة المتضررة من قيام زوجها بالزواج من أخرى دون رضاها والتى ترغب

فى الحـصـول على الطلاق أن تثـبت الضــرر المادى أو المعنوي الذي لحقها، والذى يتعذر معه دوام العشرة بين أمثالها، وقد كان هذا الضرر مفترضاً فى القانون السابق ولا يحتاج لإثبات، وكما نعرف فمفهوم الضرر مفهوم مطاط، من الممكن أن يتلون بالمناخ الثقافى والاجتماعى الذى غالباً ما يناصر الرجل ويجعله طاووساً منتشياً، ويقهر المرأة ويجعلها فأراً مذعوراً لا يتضرر من المصايد و الفخاخ التى تنصب له، أما بالنسبة لحق الاستقلال بمسكن الزوجية فمازال البعض يقدم الطعون للمحكمة الدستورية العليا لإلغائها، وهذا يدلنا على أن التربص بالحقوق المكتسبة للمرأة شئ من نسيج المجتمع ولا ينفع معه الترقيق والترقيع ببعض النصوص القانونية المنصفة والتى ينتظر المهاجمون والمعترضون الفرصة المناسبة للانقضاض عليها وخنقها وقتلها وذلك كله بإسم الشريعة التى هى منهم براء.

ولكى نفهم قصة الزوجة الثانية فى الشريعة الإسلامية لابد أن ننظر إليها فى سياق مجتمع ما قبل الإسلام وما أراد الإسلام أن يحدثه من تغيير فى المفاهيم المستقرة بشكل تدريجى وبرفق وهوادة وعلى مراحل، فقام الدين الجديد بتقييد الزواج اللامحدود، وجعل الأربعة هو العدد الأقصي وهو ما يعتبر إنتصاراً فى وقتها وزلزالاً خلخل مفاهيم هذا المجتمع الجاهلى الذى كان يعتبر النساء على الهامش ومجرد أداة متعة لا يصح أن نقيدها بعدد معين، ولذلك نستطيع الآن بكل اطمئنان وكما فعل فقهاء تونس أن نقيد الزواج الثانى بعد تغير الزمن والأفكار وانطلاقاً من مرونة الدين الإسلامى وسماحته وإستجابته لتغير الظروف، والآية التى جاءت فى سورة النساء والتى إعتمد عليها القانون

فى إباحة الزواج الثانى و الثالث و الرابع هى «وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامي فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى و ثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيمانكم ذلك أدني ألا تعولوا» ، ويجب أن نفهم أن هذه الآية قد جاءت معطوفة على الآية التى قبلها «ولابد أن نقرأهما معاً حتى يستقيم الفهم ، وتقول الآية «وآتوا اليتامي أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً»، والقراءة المبتسرة المتعسفة تعطى نتيجة عكسية غير المقصد الحقيقى، وتقود قارئها إلى نتيجة أن تعدد الزوجات مباح على إطلاقه، والحقيقة أن رخصة تعدد الزوجات كان لها دلالتها الاجتماعية والإقتصادية، وأن هذه الرخصة إرتبطت مع زيادة عدد النساء الأرامل فى المجتمع بهدف وضع حد لإضطهاد الأرامل اللواتى تحت الوصاية، والسماح لهن بالحصول على زواج شريف فى ظروف بعض التطورات الموضوعية المباغتة على حد قول المفكر محمد شحرور، فمثلاً من ضمن تلك التطورات المباغتة التى خلقت عدداً كبيراً من الأرامل إستشهاد سبعين رجلاً فى موقعة أحد على سبيل المثال، إذن النص القرآنى أجاز هذه الرخصة ووجه الرجال إلى أن تكون الزوجة الثانية والثالثة والرابعة من ضمن تلك الأرامل، ولا يجوز له أن يأخذ الأرملة مثلاً ويترك أولادها إن كان عندها أولاد، وهذا يدل على أن المسألة لم تقنن وقتها للمتعة الحسية، ولكن كان لها غرض فى منتهى السماحة والرحمة حاول البعض أن يحوله إلى غرض فى منتهى القسوة والمهانة، فالغرض كان كفالة اليتيم وإنتقال مسئوليته من الأم إلى الزوج الجديد، أى أنها كانت مسئولية جديدة ملقاة على عاتقه، وليست

ترفاً حسياً يعب منه ويشرب بلا حساب، ويقول د. شحرور شارحاً ومؤكداً لهذا المعنى فى كتابه الكتاب والقرآن ما يلى إن جملة جواب الشرط فإنكحوا ما طاب لكم من النساء، إرتبطت بالشرط وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى هنا نرى أنه أطلق الكم حتى الأربعة، وقيد الكيف بأن تكون الزوجة الثانية حتى الرابعة من الأرامل ذوات الأيتام ، ويضيف قائلا آيات التنزيل كانت تحض وتشجع الرجال على الزواج من الأرامل، وإنها كانت حريصة كل الحرص على تأمين حياة أسرية مستقرة للأيامى واليتامي حتى ولو كانت الأرملة بمرتبة الزوجة الثانية أو الرابعة، وإن أولادها يعيشون فى كنف ورعاية زوج الأم، وهذا يؤكد على أن الأصل فى الإسلام هو الإكتفاء بزوجة واحدة، وأن التعدد هو الاستثناء المحكوم بشرط العدل، والذى يقرر القرآن نفسه أنه أمر شبه مستحيل، وهو ما يؤكد عليه إمام الاستنارة الشيخ محمد عبده حين قال إن تعدد الزوجات محرم قطعاً عند الخوف من عدم العدل ، وهو ما يؤكد عليه غضب الرسول صلى الله عليه وسلم حين بلغه أن زوج إبنته فاطمة خطب جويرية بنت أبى جهل فلم يسمح له وقام فى المسجد خطيباً وقال إنما فاطمة بضعة منى يسوؤنى ما ساءها، و بالطبع وكما نعرف عن رسولنا الكريم أنه كان لا يفرق بين مسلم وآخر.

كتب الشيخ محمد عبده مهاجماً تعدد الزوجات قائلاً «فمن تأمل الآيتين (سورة النساء) علم أن إباحة تعدد الزوجات فى الإسلام أمر مضيق فيه أشد التضييق، كأنه ضرورة من الضرورات التى تباح لمحتاجها بشرط الثقة بإقامة العدل والأمن من الجور، وإذا تأمل المتأمل مع هذا التضييق ما يترتب على التعدد فى هذا الزمان من المفاسد جزم

بأنه لا يمكن لأحد أن يربى أمة فشا فيها تعدد الزوجات فإن البيت الذى فيه زوجتان لزوج واحد لا تستقيم له حال ولا يقوم فيه نظام، بل يتعاون الرجل مع زوجاته على إفساد البيت كأن كل واحد منهم عدو الآخر ثم يجئ الأولاد بعضهم لبعض عدو، فمفسدة تعدد الزوجات تنتقل من الأفراد إلى البيوت، ومن البيوت إلى الأمة».

ولننظر على الشاطئ الآخر، ولنستمع إلى المؤيدين للتعدد وحججهم الواهية، ولنأخذ مثلاً لهم د. مصطفى السباعى، فهو يقول فى كتابه (المرأة بين الفقه و القانون) «إذا كان عند الرجل من القوة الجنسية ما لا يكتفى معه بزوجته إما لشيخوختها، وإما لكثرة الأيام التى لا تصلح فيها للمعاشرة الزوجية ، وهى أيام الحيض والحمل والنفاس والمرض وما أشبهها، وفى هذه الحالة نجد الأولى والأحسن أن يصبر على ما هو فيه، ولكن إذا لم يكن له صبر فماذا يفعل ؟، أنغمض أعيننا عن الواقع وتنكره كما تفعل النعامة أم نحاول علاجه»؟!.

وفى الحقيقة أنا مندهش من أن يكون الدفاع بهذا الشكل، فالدفاع عن تعدد الزوجات يفترض أن الرجل ماكينة جنسية شرهة على المرأة أن تدخل تروسها بكل الطاعة وبدون أدنى تبرم، وتتحمل نقصها الناتج عن ظروفها الفسيولوجية التي لايستطيع الرجل أن يأخذ إجازة أثناءها، وهذا دفاع يحمل فى طياته صورة حقيرة لنوعية من الرجال ممن يفكرون بنصفهم الأسفل فقط، وينكر أن الزواج فى البداية وقبل كل شئ مودة وسكن ورحمة، وأن الاتصال النفسى والروحى يسبق الاتصال الجسدى والجنسى الذى يشير إليه البعض بأنه سبب الزواج الثانى.

الإخلاص قانون الزواج، ولا نريد إلباس الخيانة ثوب الفضيلة بإسم الشرع والقانون، والتعدد استثناء لا ينبغى أن نتحدث عنه بتفاخر، والضرة ضرر حتي ولو قلنا أنها ضرورة والحب ليس سلعة تايوانية مقلدة ولكنه صناعة هاند ميد عليها توقيع قلبين لرجل وإمرأة.

***

جرائم الشرف

شرف البنت وعود الكبريت

شرف البنت زى عود الكبريت ما يولعش غير مرة واحدة بس، وشرف الولد زى الولاعة الأوتوماتيك ممكن يولع إلى ما لا نهاية!!، ليست هذه جملة مسرحية ليوسف وهبى، ولكنها حصيلة ما خرجت به من خلال قراءتى لعينة عشوائية من صفحات الحوادث فى الجرائد المصرية، والتى لا يكاد يخلو عدد منها من أب يقتل ابنته أو أخ يمزق أخته أو زوج يخنق زوجته لشك فى سلوكها، وهو ما يطلق عليه جرائم الشرف، ودائماً الشرف هو شرف الرجل، ودائما الضحية هى المرأة.

ولأن شرف المرأة عندنا له معنى محدد وواضح وهو غشاء البكارة والجنس، فهو ضيق كثقب الإبرة، ولأن شرف الرجل أول سايز يتسع لكل المعانى، ويختزن كل الاحتمالات، لذلك فهو واسع كالمحيط

وغامض كالشبح، فالمرأة غير الشريفة هى التى تفرط فى عرضها، أما الرجل غير الشريف فهو الرجل السارق أو النصاب وماعدا ذلك فهو شريف ولو مارس الجنس مع ثلاثة أرباع نساء الكرة الأرضية، فسيظل شريفاً عفيفاً لا تلوثه هذه العلاقات الطيارى، وقد أجرى الباحث الإجتماعى بحثاً ميدانياً عن معنى الشرف عند المرأة، فإتفق ٩٩% من نساء العينة على أن الشرف هو غشاء البكارة السليم، ولم يذكر سوى ٨% أن شرف المرأة مبادئ وقيم ومثل عليا .إذاً معنى الشرف يختلف بإختلاف الجنس، ولذلك فطريقة الإنتقام له والمحافظة عليه وأيضاً عقاب من يفرط فيه أو يثأر من أجله، لابد أن تختلف هى الأخرى، وبالتالى لابد أن يتسامح المجتمع ممثلاً فى أعرافه وتقاليده وقوانينه مع هذا المفهوم، ولكى نطبق هذا الكلام بطريقة عملية علينا أن نقرأ صفحة الحوادث فى أية جريدة، وهذه عينة عشوائية نقدمها لكم كبداية لتكوين وجهة نظر حول هذه الجريمة، ولإحصاء نسبة إنتشارها فى المجتمع وطرق تنفيذها، والأهم شعور مرتكبيها الذين يشعرون بالفخر غالباً وبالندم نادراً ، وإليكم بعض العناوين :

● عاطل فى بنى سويف يقتل زوجته الشابة بمطواة قرن غزال لكثرة خروجها من المنزل وملاحظة بسيطة : هذا العاطل كان متزوجا من اثنتين الأهرام ١٩٩٩/٦/٣٠.

● قتلها شقيقها لسوء سلوكها ودفنها فى برج العرب ٢٠٠١/٥/١٣.

● أب يغتصب ابنته وعندما حملت منه قتلها ليمحو العار الأحرار ٢٠٠١/٦/٤.

• خفير يهشم رأس زوجته ببلطة ويذبحها أمام أطفالهما الأربعة بالخانكة لشكه فى سلوكها الأهرام ٢٠٠١/١/١٠.

• إحالة منجد إلى الجنايات قتل ابنته التلميذة بمدرسة المحمدية الإعدادية بالسيدة زينب لسوء سلوكها الأهرام

• فى أبو المطامير بالبحيرة ومع إنطلاق مدفع الافطار يقتل شقيقته وزوجها لزواجهما بدون رغبة الأسرة الأهرام ١٩٩٨/١٢/٣٠.

• يلقى بإبنتـه من الدور الخـامس لعودتهـا متـأخرة ليـلاً الأهرام ١٩٩٨/١٢/٩.

فى شبرامنت يقتل شقيقته بإيشارب لسوء سلوكها ويحاول استخراج شهادة بوفاتها الأهرام ١٩٩٨/٥/٣.

• اعترافات قاتل شقيقته.. شوهت سمعتنا فغسلت العار ضميرى مرتاح و لست نادماً الجمهورية ٢٠٠٠/٢/٨ .

• يقـتل والدته بمعـاونة خـاله بقنا لسـوء سلوكـهـا الأهرام ٢٠٠٠/١٠/٢.

• فى المنوفية تقتل ابنتها لحملها سفاحاً الوفد ٢٠٠١/٤/١٩.

• يذبح زوجتـه بسكين المطبخ لوقوفهـا بملابس مثيـرة فى شرفـة الشقة بالبلينا بسوهاج الأهرام ١٩٩٩/١٠/٥.

• حداد بالمحلة يقتل زوجته لإصرارها على الخروج بدون حجاب الوفد ٢٠٠٠/٣/٦.

• يجبر ابنته على تناول السم لشكه فى سلوكها الوفد ٦/٨/٢٠٠٠ .

• فى أبو النمرس بالجيزة يخنق شقيقته و يدعى انتحارها بالسم لارتباطها بعلاقة عاطفية مع جارها الأهرام

• بالإسكندرية مهندس ديكور يقتل زوجته أمام المارة لشكه فى سلوكها الأهرام ٤/٩/٢٠٠٠ .

• أب وأم يقتلان ابنتهما صعقاً بالكهرباء لزواجها عرفياً من شاب بالوراق الوفد ١٤/٨/٢٠٠٠ .

• مبيض محارة يمزق جسد زوجته بالسكين فى الشارع لشكه فى سلوكها الأهرام ٢/١٢/٢٠٠١ .

• فى العمرانية تاجر يقتل إبنته أثناء نومها لسوء سلوكها الأهرام ٥/٧/٢٠٠١ .

فى كفر شكر يذبح زوجته ثم ينتحر حزناً عليها.. الحياة ٢٩/٣/١٩٩٨ .

• تلميذ بسوهاج يهشم رأس شقيقته ببلطة لطلاقها بعد ٧ اشهر من زواجها الأهرام ٧/٦/٢٠٠٠ .

• إعترافات مثيرة لقاتل شقيقته بإمبابة.. أصدقائى عيرونى بسوء سلوكها فذبحتها بلا ندم و لعبت البلياردو بعد الجريمة الأحرار ٤/٨/٢٠٠١ .

• فى الحدائق: زوجة الطباخ عيرته بضعفه شك فى سلوكها فقطعها طرنشات وفى الفيوم أشعل مواطن وابن عمه النار فى شقيقته ومنعا

أهل البلد من إنقاذها وفى القليوبية أعمى يسدد طعنة قاتلة لقلب زوجته إثر مكالمة تليفونية كاذبة المصور ٧/٧/٢٠٠٠ .

هذه بعض المانشيتات التى تحكى قصة الدم الذى يراق على جوانب الشرف حتى يسلم من الأذى كما أوصانا الشاعر العربى القديم، هذا الدم الذى يراق بنفس السهولة التى تراق بها دماء دجاجة، وبنفس الاطمئنان والخشوع الذى يقدم به القربان، وكما سجلت الجرائد هذه الجرائم فى صفحات الحوادث، قامت وزارة الداخلية بتسجيلها فى محاضر أقسام البوليس، وقد بلغ عدد المجنى عليهن فى قضايا القتل العمد بدافع غسل العار، والمبلغ عنها فى مصر على سبيل المثال ٥٢ حالة فى عام ١٩٩٥ ، وبالطبع لابد من وضع ألف خط تحت عبارة المبلغ لأنه فى أحيان كثيرة لا يتم التبليغ خوفاً من إنتشار الفضيحة، أو لأن الجيران والأهل يعتبرون الفاعل بطلاً مغواراً فيباركون فعلته بل يمجدونها، وبالطبع لا يتم التبليغ.

وإذا كانت محاضر البوليس لا تنتقل إلى وجهات نظر المتهم والشهود التى ما تكون غالباً آراء ذاتية، فإن تقارير الطب الشرعى لا تنقل إلا وجهة نظر العلم و التشريح و التحليل التى تكون غالباً موضوعية، والحكايات و القصص التى يرويها الأطباء الشرعيون تثبت أن سيف الظلم عادة هو الذى يسبق حكمة العقل، وفى أحد التصريحات الصحفية يفاجئنا مدير مشرحة زينهم برقم غاية فى الظلم والبشاعة، فهو يقول إن ٨٠% من القتيلات بدعوى الشرف بريئات تماماً وعذارى، وهو ما يثبت أن هذا الشك الذى يحتل معظم المانشيتات

ويمثل الباعث الأساسى لمعظم الجرائم هو شك لا يوجد إلا فى عقل القاتل الذى تحركه غريزته الهيسترية، فيذبح و يخنق ويحرق بدون أن ينصت ولو لثوان قليلة لصوت العقل والضمير، وحكاية أخرى يحكيها طبيب شرعي ممن لمس الظلم الواقع على ضحايا جرائم الشرف وفيها أفضت الأم بالسر الرهيب إلى إبنها إلحق أختك انقطعت عنها الدورة أكيد فيه إن ... وأمام هذه الإنّ لم يكن أمام الشقيق إلا أن يغرس السكين فى صدرها ليريح ويستريح، وفى المشرحة ظهرت الحقيقة، الأخت عذراء، وكل ما فى الأمر أنها كانت تمارس رجيماً قاسياً مما أثر على مستوى الهرمونات فانقطعت الدورة ولكن ماذا يفعل العقل أمام غريزة التخلف؟

وكما كشفت المشرحة عن ظلم الأم والشقيق ،كشفت أيضاً عن ظلم الأب، فالضحية كانت تعانى من تشوهات خلقية ولدت وغشاء بكارتها مسدود لا يسمح بمرور دم الحيض، وتجمعت الدورة الشهرية على مدار شهور عديدة والبنت لا تشكو إلا من مغص وانتفاخ بالبطن وما أدراك ما انتفاخ البطن عندنا ،فالبوصلة الجنسية المركبة فى مخيخ أهالينا دائماً ماتشير إلي جبهة الجنس ،وتأكد الإتهام أكثر مع وجود الدوخة والإغماء، ولم يتحمل الأب نظرات أهل قريته فى سوهاج، فحز رقبة ابنته بالفأس، وثبت بعد الكشف أن الفتاة بريئة، و أن كل القصة تشوه، حله فى مشرط الطبيب و ليس فى فأس الأب.

وإذا كان غشاء البكارة المسدود قد تسبب فى هذه الحالة، فغشاء البكارة المطاط قد تسبب فى مئات الحالات، وكان سبباً رئيسياً فى مئات الجرائم فنافورة الدم التي ينتظرها الزوج ليلة الدخلة وقبله

ينتظرها الأهل، لم تظهر فى الأفق، إذاً وعلى بلاطه وبسرعة البرق توضع لائحة الاتهام، الزوجة فاجرة فقدت بكارتها ،وبما أن الزوج هو الوكيل الوحيد لقطع غيار البكارة، فالمؤكد أن أحداً غير سموه وغير فخامته قد فض الغشاء وهتك العرض، و يتم قتل الفاجرة التى تدفع ثمن خطأ لم ترتكبه وغشاء لا يفض إلا بواسطة جراحة، ولكنه الرادار الجنسى المركب فى عقل الرجل الشرقى، والذى يتغافل عن كل الأهداف العسكرية الحيوية و يلتقط دبة النملة الجنسية.

ويعلق د. فخرى صالح كبير الأطباء الشرعيين على جرائم الشرف فيذكر فى حواره بـ المصور ٧/٧/ ٢٠٠٠

* الملاحظة الأولى: أن الأهالى لا يبحثون عن الفاعل فهم يكتفون بسفك دم الضحية لتبييض العرض دون تحقق ويساعد على ذلك الجهل و الحمق وتحكم العادات القبلية.

* الملاحظة الثانية: أن الدايات لهن دور كبير فى تلك الجريمة الشنعاء لأنهن تحت ضغط الأهل يجدن الخلاص فى اتهام الابنة خصوصاً و أنه غير مقبول منهن غير ذلك و إلا إتهمن بأنهن يعرفن و يدلسن.

* الملاحظة الثالثة: ٩٩% من أطباء النساء يستطيعون إثبات براءة الفتاة من عدمه مع توفر أجهزة الموجات الصوتية الحديثة التى تكشف الحمل ربما فى الايام الأولى، لكن المشكلة خوف الأهل والبنت من أصله، وخوف الطبيب نفسه من نتيجة ربما لا ترضى الأسرة التى تأتى وقد جهزت الكفن ولم يتبق إلا تصريح القتل الذى يوقعه الطبيب.

* الملاحظة الرابعة: بالرغم من أن الذى غرر بالفتاة كثيراً ما يعترف بخطئه ويتزوج الضحية، فإن الأهل يصرون على الجريمة وربما يقتلون الفتاة أمام قسم الشرطة الذى تزوجت فيه لأن العار لا يمحوه عقد الزواج بل يغسله سفك الدماء

الملاحظة الخامسة: من بين ١٦١٠ جرائم قتل عام ١٩٩٩ فى القاهرة الكبرى و ١٧٩٣ فى باقى المحافظات فإن ١٠% من تلك الجرائم تدخل تحت بند جرائم الشرف.

هذه الملاحظات من كبير الأطباء الشرعيين فى غاية الأهمية فهى تدق ناقوس الخطر لعلنا نستيقظ كما إستيقظت دولة مثل الأردن حين سارت مظاهرات الاحتجاج بقيادة الملكة شخصياً لرفض وتجريم هذه الظاهرة، والمطالبة بتعديل القوانين المخففة للعقوبة بدعوى إحترام الباعث النفسى، ولكن لنا تعليق على ملاحظات د. فخرى وهى ان الدايات لسن المتهم الوحيد بل يشاركهن الأطباء الشرعيين كان المجرم فيها والمحرض هو الطبيب نفسه وليس الداية، وفيها قتلت الضحية نتيجة تشخيص خاطئ لطبيب، والقصة بدأت مع ذهاب الشقيق لأحد الأطباء للإجابة عن السؤال الخالد لماذا إنتفخ البطن؟، وأجاب الطبيب أنها ليست بكراً ،إتهم الأهل الجار بمعاشرة الفتاة فاضطر الرجل المتهم زوراً إلى الزواج منها خوفاً من إنتقام الأسرة، وبعد الزواج إستمر كبر البطن، رغم أن الزوج لم يدخل بها وإعترف لأهلها بذلك، وأجرت الفتاة أشعة عند الطبيب، فكشفت عن ورم ليفى متضخم إضطر الطبيب معه إلى إجراء عملية جراحية ظنها الأهل عملية إجهاض فذبحوها على باب المستشفى.

ومن الذبح إلى الانتحار والذى من خلاله تهرب الفتاة من مصير الموت ذبحاً إلى الموت انتحاراً، وهناك حكاية بنت روض الفرج التى إستحمت فى بانيو مكان شقيقها عدة مرات فحملت دون أن تدرى، وعندما ظهرت علامات الفضيحة إنتحرت بجرعات كبيرة من الأسبرين، وبالكشف عليها إتضح أن غشاء البكارة سليم، وأنها لم تمارس الجنس، وأنها حملت من خلال تسلل الحيوانات المنوية الخاصة بشقيقها فى البانيو.

حكايات وقصص واقعية لطخت ملفات التحقيقات البوليسية وأوراق التقارير الطبية، فيها حرارة وسخونة الدماء التى لا تجف أبداً، والتى تظل شاهدة على الظلم والقسوة والبربرية التى مازلنا نتعامل بها مع المرأة، ولكن ماذا إذا أنتقلت هذه الدماء من الملفات لتصرخ ما بين دفتى رواية وتبوح بسرها على شفتى مغنى موال الكل يمجد متولى الجرجاوى قاتل شقيقته شفيقة ويرفعه على الأعناق ويتمايل مع كلمات الموال وتأخذه النشوة حين يصرخ المغنى مطالبا بالإنتقام من شفيقة، وأتذكر دهشتى و أنا مسافر إلي دمياط منذ عدة سنوات عندما وضع سائق البيجو شريط موال شفيقة ومتولى، إندهشت وأنا أسمع تأوهات الإعجاب الهيستيرية من ركاب البيجو وكأنهم يتابعون ماتش كورة، ولا أنسى تصفيقهم حين إنتهى الموال بقتل شفيقة، وغرقها فى بركة الدم ومازالت كلمات هذا الموال الدموى ترن فى أذنى حتى الآن:

قالت له يا أخويا تبت على إيديك

قال تتمحكى وتقولى حاتتوبى و تقولى وعد ومكتوبى

دى رقعة ما تطلع من توبى..... يا متولى

الساعة دى بنتظرها بالسكين ضيع منظرها وعزل الجتة من زورها.... يا متولى

ويصرخ المطرب وقعد يقطع فى شفيقة ويرمى فى الشارع وجت الحكومة قالوا له انزل يا متولى...

نزل يضحك ولا على باله... وم السجاير طلع عباله ...

وبوليس و أهالى فى استقباله ...يا متولى

وينتهى الموال بهذه الحكمة التى تجعل من متولى بطلاً فيقول: متولى شريف من دى الساعة

وخلص م العار بشجاعة.

والحكم ست أشهر إشاعة و صعيدى عنده الشرف غالى

أرى النساء سبب البلاوى فى مرضهم احنا بنداوى

وعاش بشرفه الجرجاوى وصعيدى عنده الشرف غالى...

وهكذا يلخص الموال الشعبي الخالد رأى ما يسمى الوعى الجمعى الذى يطفو على السطح وقت الأزمات، فالمرأة هى سبب كل البلاوى وهن مريضات المفروض علينا أن نداويهن ونضعهن فى المصحات، والمهم أن متولى الجرجاوى عندما فصل الرقبة أو كما يقول الموال الزور عن الجسد بذلك يكون قد إسترد شرفه الضائع.

ومن شفيقة فى الموال إلى هنادى فى دعاء الكروان، هنادى بنت قرية بنى وركان والتى جعلها طه حسين رمزاً لكل الغلابة المقهورات

تحت مطرقة الأهل وسندان التقاليد الهاربة من مطاردة ذوى القربى بتخلفهم ونشوتهم للثأر، والهاربة أيضاً من رغبة فالنتينو ابن المدينة وعشقه لإقتحام سدود التمنع وشهوته المتأججة، إلى جميلة بطلة البوسطجي والتى جعلها يحيى حقى ضحية إختلاف المذهب الدينى والشك الجاهز وفضول البوسطجى وتخاذل حبيبها خليل، إلى أن نصل إلى فاطمة بطلة حادثة شرف ليوسف إدريس وهى فى رأيى أهم من تجسد هذه القضية ليس فقط لأن القصة تتضمن فى عنوانها كلمة الشرف، ولكن لأنها تناقش بعبقرية مدى هشاشة وسطحية مفهوم الشرف الذى نتبناه ونحصره فى مجرد غشاء، ففاطمة التى إتهموها بارتكاب الفاحشة مع غريب فى غيط الذرة، و ظلت القرية تستحث أخاها فرج على أن يتاكد من أنها لم تفقد شرفها أى غشاءها ، وطلب فرج من جارتهم أم جورج أن تفحص أخته التى كانت مضرب المثل فى الجمال والخجل أيضا، و يصف يوسف إدريس مشهد الإطمئنان على العفة فيقول:

«تسمرت فاطمة فى مكانها على العتبة ولكن النسوة دفعتها دفعاً لا مجاملة فيه حتى سقط الشاش من فوق رأسها، وتولت أم جورج طرد جورج من البيت وإغلاق الباب الخارجى وباب الحجرة الداخلى وشيش النوافذ وزجاجها، وكانت مقاومة فاطمة مقاومة الخجل الفطرى، ولكنهن تكاثرن عليها وأرقدنها على السرير بالضغط والجذب، وتولت إحداهن تقييد يديها وإمسكت امرأتان كل بساق من ساقيها، وامتدت أيد كثيرة، أيد معروقة وجافة، حتى بقايا الملوخية التى عليها جافة، وإمتدت عشرات العيون الصادقة فى بحثها عن الشرف والمحافظة عليه

إمتدت كلها إنغرست وقلبت وتفحصت حتى وهى لا تدرى عم تبحث، أم جورج وقد تولاها ارتباك عظيم وكأنها المكشوف عليها لا الكاشفة تنهر النسوة بلا فائدة، وتطمئن فاطمة بلا فائدة أيضاً، والشد والجذب والصرخات المكتومة تدور فى صمت، وفى همس مروع وسكون الترقب قد خيم على الحجرة، وإمتد منها إلى البيت وإلى الخارج وإلى العزبة وإلى الكون كله، فصمت و فجأة انطلقت زغرودة من الحجرة الداخلية، ترددت على إثرها الزغاريد فى المنزل ثم فى الخارج، والألسنة تردد سليمة إن شاء الله والشرف منصان، والمدهش أن فاطمة ذات الشرف المنصان تغيرت ١٨٠ درجة، وأصبحت بعد هذه التجربة وفى نهاية القصة إمرأة شبه داعرة لا تعرف الحياء بل تعرف المتهم غريب وتشتهيه».

ومن قصة يوسف إدريس إلى قصة غشاء البكارة نفسه وتاريخه، فتاريخه هو تاريخ الإنسانية والخوف عليه هو المعيار والدافع وأيضاً التسلية التى تمنحهم إياها الدمية التى يسمونها المرأة، فمن حزام العفة حتى الختان نستطيع أن نلخص تاريخ هذا العالم الذى كتبت حروفه على جلد المرأة و روحها، وليس كما يقال على أوراق البردى أو جلود الغزلان !، فماذا يقول التاريخ عن هذا الغشاء ؟ وماذا يحكى عن العذرية؟.

يحكى كتاب ويستر مارك تاريخ الزواج عن إختلاف نظرة المجتمعات قديماً وحديثاً، شمالاً وجنوباً بالنسبة للعذرية، والمدهش والغريب أن بعض القبائل تفضل المرأة التى فضت بكارتها على المرأة

التى لم تفض، والبعض الاخر يقتل من أجل بل يحتفى بفضه ليلة الدخلة كما يحدث فى بعض قرانا المصرية حين يلوح الزوج بالمنديل الغارق فى الدم، والذى سرعان ما ينتقل إلى ايدى أقارب العروس لكى يتفاخروا أمام البلد بأن بنتهم عذراء واتاخد وشها، وبين الطرفيين المتناقضين ألوان طيف كثيرة، ففى بعض الشعوب تمارس البنات الجنس قبل الزواج للحصول على مهورهن، وعند بعض قبائل إفريقيا يفضون بكارة البنات وهن صغار، وتتولى الأم تلك المهمة أو يتولاها رجل مسن، وعند قبائل أخرى يقوم الأب نفسه بفض بكارة إبنته قبل زفافها كما كان فى بلاد السنغال حتى القرن السابع عشر لأنه من وجهة نظره من حقه أن يجنى ثمرة النبتة التى غرسها، ويحكى الكاتب السورى عبد السلام الترمانينى فى كتابه الزواج عند العرب عن أن بعض نصرانيات الشرق قديماً، كانت تفض بكارتهن بواسطة الرهبان المخصيين، وكان الزوج وقتها يرافق الزوجة إلى الدير ليتأكد بنفسه من أن الراهب هو الذى قام بهذه الفعلة، وقد كانت هذه العادة سارية أيضا فى أوروبا حتى القرن السابع عشر، ومن العادات التى كانت تتبعها بعض الشعوب فى مسألة فض البكارة أن يتعهد رجل غريب بهذه المهمة قبل الزفاف، ويرجع ذلك إلى الإعتقاد بأن دم البكارة نجس كدم الحيض، وأن فيه خطراً على الزوج، وقد كان فى بابل قديماً تقليد روتينى وهو أن تذهب المرأة البكر إلى المعبد فإذا ألقى رجل غريب فى حجرها قطعة نقود فعليها أن تتبعه ليفض بكارتها فى مكان خارج المعبد، ومن الشعوب من يعهد بهذه المهمة إلى السحرة لأنهم مقدسون ويحولون النجس إلى طاهر، وكان من سعادة النساء أن تحملن من هؤلاء البركة ضماناً للطهارة والمستقبل المشرق.

ولكن المشكلة أن رجـال الدين والسـحـرة والكهـان لم يكونوا هم الوحـيـدون الـذين نـالوا هـذا الشـرف، وحـصلوا على هـذه الحظوة، وإنما شاركهم فيـها أصـحـاب السلطة السياسـيـة من الملوك الـقـدامى والرؤساء فكان من حق هؤلاء أن يمضوا الليـلة الأولى مع كل عروس تزف إلى زوجـها ، ويسمى هذا الحق حق الليلة الأولى أو حق التفخيذ

Droit de cuissa، وكان من الملوك الذين مارسوا هذا الحق الملك مالكوم الثالث ملك إيقوسيا الذى اصدر قانوناً ينص على حقه وحق أخلافه بفض كل عروس قبل أن تزف إلى زوجها، وقد ظل هذا القانون سارياً حتى ألغاه الملك مالكوم الرابع بتأثير زوجته، وإستبدل بهذا الحق مبلغاً يدفـعـه الزوج إلى الملك، وقـد إسـتـغل أمـراء الإقطاع هذا القـرار أسـوأ استغلال إذ أخذوا يتنازلون عن حقهم فى الليلة الأولى مقابل هدية أو مبلغ يدفعه الزوج إليهم، وفى روسيا كان للسادة الإقطاعيين حق فض عرائس أتباعهم، وظل هذا الحق قائماً حتى القرن التاسع عشر.

وعادة فض بكارة العذارى بواسطة الملوك والرؤساء كانت معروفة عند العرب القدامى أيضا ومنهم طسم وجديس، وقد قيل إن ملك طسم المسمى عمليق فى إحدى المرات إعتدى على حق ملك جديس ففض بكارة أختـه ليلة زفافهـا، ومن أجل ذلك قـامت حـروب بين القـبيلتين أبادتهما فعرفوا بالعرب البائدة، ويؤكد ذلك ما روى عن أبرهة الأشرم حين اراد أن يكافئ جنديه أرنجدة على إنقاذه لحياته حين إحتل اليمن وترك له حرية إختيار نوع المكافأة، فقال أرنجدة أريد ألا تدخل إمرأة بكر على زوجها قبل أن تبدأ بى فأفترعها، فقال أبرهة لك ذلك، فلولا

أن عـادة إفتـراع الأبكار، أو فض بكارتهن من قـبل الرؤسـاء والملوك كـانت قائمـة حـينذاك مـاكـان لأبرهه أن يقر ويأذن لهـذا الجندى بهـذا الحق الموقوف على الملوك والرؤساء، وكذلك يروى في أخبار الزمان للمسعودى أن زعيم اليهود فى يثرب والذى كان يدعى القيطون فض بكارة أخت مـالك قـبل زفافـهـا، والغريـب والمدهش كمـا ذكـرنا أنه فى بعض الشعوب تكون البكارة فضيحة كما فى عشائر الواديجو والباكونجو وفى مـعظم مناطق إفريقيا الاستوائية، ولدى عشائر الأنجامى ناجاس تقليد حيث يعد تقصير الضفائر دليلا على البكارة، وتخجل الفتيات هناك من أن تقصر ضفائرها ، وهكذا نرى انه حتى فى مسألة البكارة الأمور نسبية ولا تتعلق بالشرف على الدوام.

كان هذا هو التاريخ و الجغرافيا فماذا عن التشريح والفسيولوجى؟، كتب الطب تقول إن غشاء البكارة هو غشاء رقيق توجد به فتحة لتسمح بنزول دم الدورة الشهرية، وهذه الفتحة تختلف فى الشكل من إمرأة إلى أخرى، فقد تكون هلالية أو مستديرة أو ذات فتحات متعددة ويسمى الغشاء الغربالى، وأحيانا لا توجد فتحة على الاطلاق مما يستدعى تدخل الطبيب لعمل فتحة جراحياً وإعطاء شهادة تثبت ذلك، وأخيراً يوجد النوع الكارثة وأطلق أنا عليه هذا الإسم لما يجره على فتياتنا الشرقيات من مصائب واتهامات وأحيانا إغتيالات، وهذا النوع هو النوع المطاطى الذى أشرنا إليه من قبل، والذى يتنتظر معه العريس تدفق الدم ولكن بلا جدوى، فيرمى باللوم على المسكينة المظلومة وعلى أهلها اللى ماعرفوش يربوها، وهى فى الحقيقة تمتلك هذا النوع الى جاب لها الكلام الذى له حكايات وقصص كثيرة، يذكر منها

سيدنى سميث فى مجلة الأمن العام عدد يناير عام ١٩٧٢ حالة سيدة تعمل بالدعارة بعد الممارسة لمدة ثلاث شهور، وكذلك حالة إمرأة حامل وجد غشاء البكارة فيهما سليماً، كما يذكر تيلور فى العدد نفسه ثلاث حالات لعاهرات زاولن مهنة البغاء لمدة سبع وثمانى سنوات، ووجد غشاء البكارة فى كل حالة سليماً، وأكثر من ذلك فإن سهولة تمدد فتحة غشاء البكارة قد تسمح ليس فقط بالإيلاج الكلى بل أيضا بإخراج الأجنة فى حالات الإجهاض دون أن يتمزق الغشاء، أما فى حالة الحمل الكامل فقد إختلفت الآراء هل يسمح بمرور الجنين أم لا؟، ويرى معظم العلماء أنه يتعذر مرور جنين كامل دون أن يتمزق الغشاء ويقولون جملة طريفة يصفون بها هذا الفض يقولون يرجع الفضل فى إزالة البكارة للإبن وليس للأب!، وهنا نتساءل مرة أخرى عن كون الغشاء علامة فارقة ودالة وأمينة ومتفردة على الشرف حيث مارست المذكورات الرذيلة برغم وجود الغشاء الحارس الأمين!!

غشاء البكارة لم يختص به الإنسان بل شاركته فيه بعض إناث ذوات الأربع خصوصا القردة، ولكن المجتمع الإنسانى هو الذى تفرد بالأساطير المنسوجة حول هذا الغشاء، وعن ربطه بالشرف، وأيضاً هو الذى إخترع عملية جراحية لتزييفه وهى عملية الترقيع، والتى إنتشرت انتشاراً كبيراً فى الآونة الأخيرة لدرجة تخصص بعض أطباء النساء فى هذه العملية فقط، والتى تدر عليهم أرباحاً كبيرة نتيجة للمتاجرة بفوبيا الشرف إنه باختصار أغلى مقلب يشربه الرجل الشرقى، وبالرغم من أنه هو الذى خلق وصنع هذه الأسطورة فإن هذه الخيوط الجراحية التي تلحم الغشاء تلحم معها كرامته حتى ولو كان متأكداً من أنها مزيفة.

وحكايات الترقيع كثيرة ونلتقط من كتاب الإنفجار الجنسى للدكتور ياسر أيوب بعض أقوال العاهرات مثل قال بيقولوا الشرف لو راح ما بيرجعش، وحكاية القوادة أم شطة التى طلب منها توفير فتاة بكر لأحد الأثرياء فلم تنشغل أم شطة بالبحث عن بكر فذهبت إلى الطبيب بعاهرة محترفة فأعادها بنت بنوت، وهكذا ظهرت للغشاء فوائد اقتصادية جمة فهو قد حل مشكلة بطالة الأطباء وأيضا العاهرات، وفى الآونة الأخيرة أثيرت قضية ترقيع الغشاء وهل هو حرام أم حلال؟، وهل هو من باب الستر أم من باب تزيين المعصية؟، وثار اللغط ما بين مؤيد ومعارض لدرجة تخصيص جلسات لمناقشة موضوع الرؤية الإسلامية للممارسات الطبية التى عقدت فى الكويت منذ عدة سنوات، وأدلى فيها بالرأى هناك الشيخ محمد الشنقيطى الأستاذ بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، والشيخ عز الدين الخطيب التميمي، والدكتور محمد نعيم ياسين وغيرهم، و خلصوا إلى رأيين:

الأول لا يجوز ترقيع الغشاء مطلقاً، لأنه أولاً فى رأيهم يخلط الأنساب، وثانياً فيه إطلاع على منكر، وثالثاً رتق غشاء غشاء البكارة يسهل للفتيات إرتكاب جريمة الزنا لعلمهن بإمكان رتق الغشاء بعد الجماع، ورابعاً لأنه غش ومن غشنا فليس منا، وكل هذا فى رأى الرافضين اعتماد على قاعدتين فقهيتين هما درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، والضرر لا يزال بالضرر.

أما القول الثانى الموافق على إجراء الترقيع فيعتمد على السبب ،فإن كان سبب التمزق حادثة أو فعلاً لا يعتبر فى الشرع معصية، وإذا كانت

الفتاة ستلاقى عنتاً وظلماً بسبب الأعراف والتقاليد، كان إجراؤه واجباً، وإذا كان السبب أنها مطلقة أو زانية إشتهر زناها بين الناس فإنه يحرم إجراؤه، وإذا كان السبب زنا لم يشتهر بين الناس كان الطبيب مخيراً بين إجرائه وعدم إجرائه كما يقول د. نعيم ياسين، وقد اعتمد المبيحون للترقيع على :

أولاً: النصوص الشرعية الدالة على مشروعية الستر ورتق الغشاء معين على هذا الستر

ثانياً: المرأة البريئة إذا أجزنا لها الترقيع أو الرتق قفلنا باب سوء الظن فيها فيكون دافعا للظلم عنها .

ثالثاً: رتق الغشاء يحقق المساواه بين الرجل والمرأة فكما أن الرجل مهما يفعل الفاحشة لا يترتب على فعله أى اثر مادى فى جسده ولا يثار حوله أى شك فكذلك ينبغى أن تكون المرأة و تحقيق العدل بينهما مقصد شرعى.

وبالطبع أثيرت كل هذه الخلافات لموقع الفتاة البكر المفضل على الثيب التى لا تملك هذا الغشاء، فالبكر فى الثقافة الإسلامية جمالياً وجنسياً مفضلة عن الثيب التى سبق لها الزواج، والحديث هنا يطول والاستشهادات لا حصر لها ولا عد، ولكن يحضرنى هنا سؤال غريب وصل للمفتى السابق نصر الدين واصل عن حكم بعض الرجال الأرستقراطيين المتزوجين الذين يجرون عمليات ترقيع لزوجاتهم لإستحضار طقوس الزفاف!! وهنا تظهر أهمية الغشاء الذى أضفنا إليه وظيفة الإمتاع، برغم أن فضه علمياً لا يحمل أية متعة، بل يحمل على

العكس ألماً، ولكن المهم أن هذا الخلاف السابق ما بين مؤيدى الترقيع ورافضيه أثير فى مصر بقوة وعنف حين صدرت فتوى جواز الترقيع للمغتصبة، وهاج وماج الكثيرون على هذه الفتوى، وحكموا على المغتصبة بأن تجرس و تنفضح برغم أنها الضحية، ذلك كله حفاظاً على سلامة البضاعة والتأكد من تاريخ الصلاحية .

يقودنا موضوع ترقيع المغتصبات إلى نتيجة أخرى، وهى أن الاغتصاب أثبت لنا أن شرف المرأة فى مصر يخضع للتقسيم الطبقى، ففى دراسة مهمة للدكتور أحمد المجدوب أستاذ الاجتماع على ثلاث حالات اغتصاب شهيرة شغلت الرأى العام المصرى، كتب المجدوب عن كيفية تعامل وإستقبال هذا الرأى العام لتلك الحالات، القضية الأولى هى القضية الشهيرة بإسم فتاة المعادى، وهى الفتاة التى إغتصبها أربعة من عمال البناء الذين لمحوا أثناء سيرهم ليلاً بعد إنتهاء عملهم شاباً وفتاة يمارسان فعلاً فاضحاً، وهو الأمر الذى أثارهم جنسياً، فإندفعوا نحوهما لينحيا الشاب جانباً ويحلون محله الواحد تلو الآخر، ونجحت الشرطة على الفور عن الجناه وتابعت الصحافة بإهتمام مذهل وحكم مسبق حشده له الرأى العام، فصدر الحكم على وجه السرعة بالإعدام، أما القضية الثانية فهى قضية فتاة إمبابة التى إغتصبها سبعة رجال بعد بضعة شهور من حادث المعادى، والحكاية أن المرأة وزوجها كانا لدى محاميهما فى مكتبه بشأن قضية لهما وعند نزولهما مع المحامى ليلاً خرج عليهم سبعة رجال إختطفوا السيدة وأخذوها فى عشة وتناوبوا إغتصابها حتى الصباح، وبعد القبض على الجناة إنتظرنا أن تتحمس الصحف لفتاة إمبابة كما تحمست لفتاة المعادى، ولكن هيهات فقد

لزمت الصحف الصمت، ومن إهتم ونشر كتب بالبنط الصغير، وصدر الحكم بسبع سنوات لكل منهم برغم أن الحالة الثانية كانت أخطر وأقسى، فقد كانت سيدة إمبابة تمشى مع زوجها ومحاميها وبكامل ملابسها، وعدد المغتصبين سبعة، ولكن الفرق بين الحكمين هو الفرق بين المعادى و إمبابة، أما القضية الثالثة فقد كانت قضية فتاة العتبة التى كانت تنتظر الأتوبيس فى موقف العتبة وأثناء الهرج والمرج الذى يحدث عند قدوم الأوتوبيس، إمتدت يد أحد العابثين إلى ما تحت ثيابها فصرخت وسقطت على الأرض وسقط فوقها بعض الركاب الذين اتهموا بإغتصابها، وأصبح جسد فتاة العتبة مباحاً للجميع، وسألتها بعض الصحف : هل فقدت بكارتك ؟، بالطبع كانت مثل تلك الأسئلة حلالاً على فتاة العتبة وحراماً على فتاة المعادى لأن الثانية بنت ناس والأولى بنت بيئة!!، وهكذا خضع الشرف فى مصر للتقسيم الطبقى والتمييز العنصرى والظروف الاقتصادية.

وتعد جرائم الشرف من الجرائم التى دار حولها الجدل بشدة فى الآونة الأخيرة، فمرتكبها هنا يتعامل معه القانون بشئ من التمييز والدلع بعض الشئ، فالقانون يحترم الباعث على الجريمة فى حالة قتل الأخ لأخته فى جريمة شرف مثلا، وذلك لأننا كما ذكرنا من قبل أن متولى الذى قتل شفيقة بطل فى نظر الفولكلور المصرى ومذنب نص نص فى نظر القانون المصرى، وهذه المسألة لم تقتصر على مصر فقد شملت كل البلاد العربية، وكانت أعنف مظاهرها فى الأردن كما ذكرنا من قبل، حيث تموت كل عام أكثر من عشرين فتاة نتيجة ما يطلق عليه جرائم الشرف، وقد قاد أمراء من العائلة الملكية الهاشمية فى

الأردن مظاهرة ضمت نحو خمسة ألاف شخص توجهت إلى مقر البرلمان الأردنى للمطالبة بإلغاء المادة ٣٤٠ من قانون العقوبات، والتى تتيح لمرتكبى جرائم القتل بحجة الدفاع عن الشرف الحصول على أحكام مخففة، وبعدها تحدى عبد الطيف عربيات العضو الإسلامى البارز هناك فى مؤتمر صحفى، وأعلن أن حزب الجبهة المعارض مستعد لعمل استفتاء وهو متأكد من أن النتيجة ستكون فى صالح الإبقاء على المادة، وأكد ابراهيم زايد الكيلانى رئيس لجنة العلماء بالحزب أن إلغاء المادة مخالف للشريعة الإسلامية وسيشجع على الإنحلال.

ومن الأردن إلى مصر التى مازال فيها حتى الآن تمييز قانونى بين الرجل والمرأة فى جرائم الشرف خصوصاً فى مواد عقوبات جريمة بالزنا، فالمفترض أن الجريمة أخلاقية يعاقب فيها الرجل مثله مثل المرأة ولكن الواقع غير ذلك ولنقرأ نصوص القانون:

- نص المادة ٢٣٧ من قانون العقوبات كل من فاجأ زوجته حال تلبسها بالزنا وقتلها هى ومن يزنى معها فى الحال، يعاقب بالحبس بدلاً من العقوبة المقررة للقتل العمد، أى أن الجناية نزلت إلى جنحة، ولكن إذا فاجأت زوجة زوجها فى حالة زنا وقتلته تعاقب بعقوبة الجناية، ولا تستفيد من التخفيف الذى إستعمل مع الزوج، وقد برر رجال القانون ذلك بأنها طبيعة الرجل الشرقى الغيور، ولم يفترضوا أن المرأة هى الأخرى كائن بشرى غيور، بل هي أكثر غيرة من الرجل، وكأن الرجل مباح له الثورة على عكس المرأة التى لابد أن ترضى بقضاها، وبهذا من الممكن أن يحكم عليها بالإعدام على الجريمة نفسها التى يعاقب عليها الزوج بثلاث سنين سجناً!.

ـ نص المادة ٢٧٣ لا تجوز محاكمة الزانية إلا بناء على دعوى زوجها، إلا أنه إذا زنى الزوج فى المسكن المقيم فيه مع زوجته لا تسمع دعواها عليه.

ـ نص المادة ٢٧٤ المرأة المتزوجة التى ثبت زناها يحكم عليها بالحبس مدة لا تزيد على سنتين، لكن لزوجها أن يوقف تنفيذ هذا الحكم برضائه معاشرتها له كما كانت !!

مما سبق نرى أن المشرع إشترط لقيام جريمة زنا الزوج أن تتم فى منزل الزوجية، ولابد أن تثبت عليه التهمة، أما الزوجة فعقابها فى جريمة الزنا يقع فى أى مكان وتعاقب عليها فى أى مكان وذلك بالرغم من أن الجريمة واحدة، ولكننا نرى العقاب مختلفاً، فالمرأة تحبس لمدة سنتين والرجل ستة شهور، وهذا التمييز واضح وجلى، ونتساءل هنا: هل تلك من بين إجراءات القوامة ؟، وإذا كان المرأة ناقصة عقل، فلماذا لا يخففون عنها العقوبة انطلاقاً من مبدأ ليس على المجنون حرج!!، أم أن المسألة اعتناق تفسيرات عندما تكون في صالح الرجل،وإهمال تفسيرات أخرى عندما تكون ضده ؟!!.

وليست عقوبة جرائم الزنا هى التى يتم فيها التمييز بين الرجل والمرأة فقط، ولكن جريمة الدعارة أو تعود ممارسة الفحشاء هى الأخرى فيها تمييز واضح ومجحف بين الرجل والمرأة، فالرجل الذى يمارس الدعارة والفحشاء مع الأنثى يعتبر شاهداً، أما الأنثى التى كانت معه تعاقب بالحبس لمدة ثلاث سنوات، وهذا للأسف مثبت بحكم محكمة النقض بجلسة ١٩٦٣/٦/٣ والذى يقول لما كان الحكم قد أقام

الحجة بما أورده من أسباب سائغة على مقارفة الطاعنة الفحشاء مع الرجل الذى كان معها وقت الضبط، ووجودهما معاً فى حالة تنبئ بذاتها على وقوع هذه الجريمة، وإستظهر ركن العادة بالنسبة إلى جريمتى إدارة المحل للدعارة وممارستها بما استخلصه من شهادة شاهد من سابقة تردده عدة مرات لإرتكاب الفاحشة معها، فلا تثريب على المحكمة إن هى عولت فى إثبات هذا الركن على شهادة الشهود، طالما أن القانون لا يستلزم لثبوته طريقة معينة فى الاثبات.

وذلك يعنى باختصار وبدون الدخول فى مصطلحات قانونية أن الذى مارس معها الدعارة أخذ برأيه كشاهد على تردده أكثر من مرة بغرض الممارسة فثبت ركن الاعتياد لممارسة الدعارة، أى أن الرجل أرضى مزاجه ثم ذهب إلى المحكمة معززاً مكرماً، كشاهد ويمكن يكون إتعزم على شاى و سندوتشات، بينما المرأة التى شاركته الفعل نفسه، والوقت نفسه تنظر إليه بحسرة من خلف القفص الحديدى، ولأننا نعشق الكسل فقد إسترحنا عندما إختصرنا شرف المرأة فى مجرد غشاء، وهو أكبر وأعمق من ذلك بكثير، وبرغم رقة هذا الغشاء دقته، فإنه غليظ فى مشاكله ومعقد فى الأساطير المنسوجة حوله، ولذلك سيظل عود الكبريت مولعاً لا نعرف هل هو يضئ لنا أم يحرق أيدينا؟ هل هو نور أم لهب؟.

وسنظل نحن أيضاً نردد طول العمر :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم.

* * *

العنف ضد العانس المنبوذة

أعتقد أن لفظ العانس بما يحمله من دلالات في مصر والمنطقة العربيـة هو من أشد أنواع العنف المعنوى الذى يمارسه المجتمع ضد المرأة، وأعتقد أن علم الأنثروبولوجى (علم دراسة الانسان) سيتوقف كثيراً أمام مجتمعنا ويقسم البشر هنا الي ثلاثة اجناس بدلاً من جنسين، وهم الرجل والمرأة والعانس ! فالعانس خصوصاً المصرية كائن له خصائص مميزة يسبغها عليها المجتمع منذ أن تلتصق بها هذه الصفة المرعبة، فالمجتمع ينظر اليها نظرة هي مزيج من الشفقة والخوف والسخرية، الشفقة علي حالها البائس الذي جعل القطار يفوتها ، والخوف منها فهى فى نظر الجميع شخصية سيكوباتية مريضة ذات عين حاسدة ، وقلب حاقد، ورغبة مدمرة فى ايذاء الأخرين الذين حازوا على وسام الزواج، وإنتصروا فى معركة الإقتران الدائم ، والسخرية من

عبطها وغلبها وحيلتها القليلة وفشلها فى الإيقاع بعريس لقطة أو الحصول على جوازة سقع .

وتصنع تلك النظرات قفصاً حديدياً تسجن فيه العانس مهما تتفوق فى حياتها العلمية والمهنية، فالمكتوب عليها هو أن تتحرك فى إطار القفص الضيق الذى تلونت قضبانه بالعيون المشفقة والخائفة والفضولية التى تتهمها على لدوام، بأنها تخاصم الجمال، وهذا ما طفش العرسان تطبيقاً للمثل القائل لو كان فيها الخير ما كان رماها الطير، ولا يسأل هؤلاء المشفقون والخائفون والساخرون، أنفسهم مجرد سؤال، لماذا لا نعتبر العانس ضحية لحظة صدق مع النفس خيرت فيها بين الاذعان لرغبات الزبون العريس وبين إحترامها لنفسها، ففضلت الإختيار الثانى، إن كثيراً من العانسات آنسات عوانس بإرادتهن، ولكنهن عندما إتخذن القرار إتخذنه فى البداية عن إقتناع ولكن رويداً عندما زحفت عليهن تجاعيد الزمن والناس قررن الانسحاب لأن المجتمع أصابهن بفيروس الندم المزمن .

ستة ملايين إمرأة وحيدة فى مصر بدون زواج .. هذا هو ما ذكرته أحدث دراسة صدرت عن المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، من هؤلاء ثلاثة ملايين ونصف المليون عانس، ومليون مطلقة، ومليون معلقة تنظر المحكمة قضاياهن ، ونصف مليون أرملة، وبالطبع كل التعريفات السابقة محددة ومعروفة إلا العانس فسن الزواج الذى يحدد علي أساسه التعريف مطاطة ومرنة، وتعريف العانس بداية لى عليه تحفظ، فالعنوسة ليست مسألة سن فقط ولكنها مسألة إحساس أيضاً أو بالأصح مسألة احساس فى المقام الأول، يسيطر هذا الاحساس

علي الفتاة حتي ولو لم تتخط سن العشرين ربيعاً، فبمجرد تخرج الفتاة من الجامعة إذا كانت متعلمة، وقبل ذلك إذا لم تكن متعلمة تعليماً عالياً تبدأ الأسرة فى ممارسة إستراتيجية الانزعاج والخضة، وينتابها الرعب على مستقبل البنت، فتبدأ الأم غالباً فى رسم ملامح الخطة، خطة الهروب من سجن العنوسة إلى شاطئ الزواج الميمون، أما عن ملامح وعناصر هذه الخطة فهي متشعبة وتختلف بإختلاف الظروف، فبالنسبة للملابس على سبيل المثال تجس الأم النبض لتمشى مع التيار السائد، وعلي أساسه تطيل الملابس أو تقصرها او تفرض الحجاب او تنصح بالاستريتش !.

بعد مرحلة الملابس يأتى الدور على المرحلة التي تثير القلق والرعب فى قلوب وأوصال الأسرة، وهى مرحلة السؤال الخالد : كيف ستتعرف البنت على فتي احلامها ؟، وهذه بالطبع مشكلة عويصة ولكن الأسرة عندنا وجدت الحل الجاهز فى خطط منوعة ومهينه، فمنها ما يوضع بإحكام بحيث يقع العريس فى المصيدة ولكن بدون ان تكون البنت مدلوقة علية او بالبلدي رامية جتتها عليه ، وليس أنسب من الأفراح للقاء وسط جمع غفير من الناس يسمح باستعراض الجسم والزى وخفة الدم إلى آخر العناصر الجاذبة، وبالطبع تكون الشاطرة من وجهه نظرهن هي التى تلقط رزقها وتكسب زبون أي عريس!، ثم تأتي بعد ذلك مرحلة الطناش والتى تتغافل فيها بعض الأسر عمداً عن لقاءات البنت مع العريس المنتظر وتأجيل تكشير الأنياب أملاً فى الزواج الآتى، وتأجيل الحمشنة حتي لا يفوت البنت قطار الزواج، وصدقونى أنا لا أصف هذه المراحل للإدانه ولكن فقط لإثبات حالة

ولوصف واقع لا يقبل للمرأة إلا ان تكون أنثى فقط وليست إنسانة لها هويتها وكرامتها ونقاط تميزها وتفردها .

من المؤكد عزيزى القارئ أن يقفز إلى ذهنك هذا السؤال، لماذا نتكلم عن العانس ولا نتكلم عن العازب؟،

الرد ببساطة هو لأن المجتمع يعاقب العانس ويتسامح مع العازب، فالعرف والتقاليد منحت الرجل حقاً فى أن يكون هو الباحث الطالب وسلبت من المرأة المهلة الممنوحة له للإختيار وهى طويلة وممتدة بامتداد العمر كله منذ سنوات النضج حتى الشيخوخة، يبحث فيها كيفما يشاء ووقت أن يأتى له مزاجه أو تطق فى دماغه يرتبط، أما المرأة فلها تاريخ صلاحية محدد ومعين فقد كتبه المجتمع وختمه بختم الشركة المنتجة، وإذا تعدت المرأة السن القانونية أو إنتهت صلاحيتها تهاجم حياتها مباحث التموين العاطفية، وتقلب حياتها رأساً على عقب بإسم التقاليد.

ما أهم ما يجعلنا نتعرض لقضية العانس وليس العازب، فهو إختلاف النظرة إلى الزواج نفسه وتغير فلسفته من الرجل إلى المرأة، فالرجل عندنا يقول سأحقق ذاتى ثم أتزوج، ونسمع منه هذه العبارة المأثورة أنا بأكون نفسى، أما الفتاة فتقول سأتزوج لأحقق ذاتى وهنا يكمن الفرق فتحقيق ذات الفتاة هو من وجهة نظرنا ونظرها فى الزواج وفى الزواج فقط، وليس فى العمل مثلاً أليس الزواج سترا و غطاء؟.

الزواج فى الغرب للمرأة هو لجوء للحب والتفاهم والإحساس بالأمان، أما عندنا فهو للهروب من كلمة عانس واعترافاً بسيادة الرجل

المطلقة على ساحة الحياة، وبنظرة سريعة على الأمثال العربية نستطيع أن نلمس ذلك الخوف وتلك السيادة فمثلا نقول ضل راجل ولا ضل حيطة، أقل الرجال يغنى النساء، الرجال بالبيت نعمة ولو كان فحمة، زوج من عود خير من قعود، أبويا وطانى وجوزى علانى، هات العريس وخد نصه، اخطب لبنتك وما تخطبش لأبنك ، دور مع الأيام إذا دارت وخد بنت الأجاويد إذا بارت ،بنتى فى طبريا وهمها واصل ليا ، اقعدى فى عشك حتى ييجى اللى ينشك...... إلخ .

كل هذا وغيره قد قيل فى الفتاة التى تولد و تقذف من رحم الأم إلى الحياة وهى تحمل وشماً مزمناً، وهماً دائماً، هو هم تزويجها، ولكن للأسف المبادرة ليست فى يدها، وهنا يتم اللجوء من أجل فك النحس لقراءة الفنجان ووشوشة الودع وفك الأعمال، فكلما زاد القهر تضخمت الخرافة، وبذلك تصبح المرأة كالسلعة، فهناك إمرأة على الزيرو، وامرأة نصف عمر، وامرأة روبابيكيا، وهذه النظرة السلعية للمرأة هى التى تجعلها أسيرة المرآة تنظر إليها كل صباح حتى تطمئن هل زحفت التجاعيد ؟، هل مازلت مطلوبة ؟، هل سيحن على العريس المنتظر، أم أننى سأكون مثل أبطال مسرحية فى انتظار جودو، ينتظرون المستحيل الذى لا يأتى أبداً.

وتاريخ العنوسة طويل وممتد بطول وامتداد الحياة البشرية نفسها، لدرجة أننا نلاحظ بداية توثيق تلك النظرية الدونية للعانس على آثار بابل حيث تم العثور على تلك الكلمات منذ أكثر من ثلاثة الآف عام الفتاة التى تتزوج نملة أفضل من الفتاة التى تحيا وتموت وعلى قبرها كلمة عانس، أما فى بلاد فارس فلم تكن الدولة تشجع الفتيات على

البقاء عذارى، ولذلك سنت قانوناً عرف بقانون الزواج الاجبارى، والذى بموجبه أرغم كل عازب على الاقتران لدى بلوغه سناً معينة شاء أو رفض عن طريق لجنة تقوم بجمع الفتيات البالغات فى كل سنة، وتدعو الشباب لإختيار عرائسهم بعد تقسيم الفتيات إلى ثلاث أصناف : الجميلة والمتوسطة والقبيحة، ثم تقسم بالتالى كل فئة إلى متعلمة وجاهلة، ثم تقف الفتيات فى صفوف وتعرض على الشبان وفق الشروط والتصفيات، وكانت الأسعار وقتها متهاودة، فالجميلة المتعلمة ثمنها ألف دينار يدفعها طالبها إلى اللجنة، أما الجميلة الجاهلة فخمسمائة دينار، وهكذا حتى نصل إلى ذيل القائمة حيث القبيحة الجاهلة و التى يبلغ ثمنها ألف دينار مع مراعاة أن من يدفع هذه المرة هو اللجنة نفسها ؟!، وأعتقد أن هذا التقسيم قد إنتقلت عدواه من فارس إلى مجتمعنا، ولكن الفرق أنهم قديما كانوا صرحاء فى التصنيف، أما الآن فنحن نصنف ونسعر أيضا وكأننا فى مزاد ولكنه مزاد سرى، أما عشائر الأزتك وهم السكان الأصليون للمكسيك فكانت تقاليدهم تقضى بوجوب زواج الفتاة قبل سن الثامنة عشرة، ومن تحيد أو تخرج عن هذا التقليد يتم حلاقة شعرها دلالة على مهانتها، أما عند بعض طوائف الهنود فكان كبارهم يفرضون على من لم يزوج ابنته بعد بلوغها الثانية عشرة من عمرها أن يشرب إفراز حيضها شهراً بعد شهر ويتوقف فقط عند زواجها، وبالطبع كان الرجال يسارعون بتزويج بناتهم بمنتهى السرعة، أما أغرب حكايات العنوسة فهى العنوسة الجماعية التى يحكيها لنا شعراء اليونان عن شعب كله من الإناث كان يعيش على البحر الأسود ويسمى شعب الأمازون تحكمه ملكة و يحمى بلاده جيش من

النسـاء، يركبن الخـيل و يضـربن بالسـيف، ولا تنقطع غـاراتهم عن الجيران، وهن لا يسمحن لرجل بأن يقيم فى مملكتهن، ولكنهن وحفاظاً على بقائهن كن يهـاجـرن أفـواجاً فى كل عـام ويتـصلن برجـال الأمم الأخرى ثم يلدن فيقتلن الذكور و يستبقين الإناث.

كانت الخاطبة هى الحل السحرى لما ذكرناه من هلع ورعب أسرى نتيجـة العنوسة، ولكن الآن تم ركنهـا على الرف وتم إسناد الوظيفة للجرائد وأبواب إعـلانات الزواج فـيهـا، واعـلانات الزواج هـى الإسم المودرن لما كان يسمى قديما التشبيب، وهى ظاهرة كانت منتشرة فى الجزيرة العربية قديماً، فكان إذا تأخر زواج البنت وخيف كسادها كان يطلب إلى شاعر مشهور أن يشبب بها للترغيب فى خطبتها حتى لا يفوتها قطار الزواج أو باللغة القـديمة جـمل الزواج، ومن أشـهـر هؤلاء الشـعراء الأعـشى، وبالطبع كـان لا يتم إلا فـى نسـاء العـامـة أمـا نسـاء الخاصة ممن على رأسهن ريشة فيمتنع التشبيب بهن، وقد تعرض شعراء كثيرون للقتل نتيجة هذا التشبيب مثل الشاعر وضاح اليمني الذي قتل نتيجة تشبيبه بزوجة الوليد بن عبد الملك.

قراءة ما جاء في الجلسة الخاصة بصحـة المرأة فى المؤتمر السكانى العـالمى ١٩٩٤ يؤكـد صـورة المرأة الإنسان وليست المرأة الصـيد أو السلعة، قالت رئيسـة المؤتمر ليس من المعـقول ونحن فى نهـاية القرن العشرين أن يظل هناك إختلاف فى توزيع السلطة بين الرجل والمرأة، وأن يبقى المفهوم السائد بأن الرجال أشد، وأن النساء خاضعات ودورهن مقتصر على الإنجاب فقط، صحيح أن أحـد أدوار المرأة هو التكاثر لكن

المشكلة أننا نغرس مفهوماً اساسياً فى أذهان النساء بأن الطريق الوحيد لتكامل المرأة هو أمومتها، وهذا خطأ فالمرأة تعد نفسها للزواج والاعتماد على ذاتها خارج اطار الزواج عن طريق سلاحى العلم و العمل فلقد انتهى زمن الزواج كسلعة.

إذاً الزواج مشاركة ما بين كيانين متساويين، وليس بيزنس ما بين سمسار ودادة، ولأن المجتمع هو الذى أحدث الجرح ووضع الملح فيه، كان لابد أن يفرز حلولاً مزيفة لمشاكل العانس، وأولها نداء الغريزة فكان حل الزواج العرفى الذى يمنح بورقته التى لا تساوى ثمن الحبر الذى كتبت به اطمئناناً كاذباً، و المأساة أن هذه الورقة يكتبها نحو عشرين ألف حالة سنوياً، وتظلم فيها المرأة التى لا تجد فيها أمناً ولا أماناً بل تلاعباً بمشاعرها وحاضرها، ولهواً بمستقبلها وتكريساً لدونيتها، يدفعها إلى ذلك خوفها المرعب من بعبع كلمة آنسة أو عانسة، إنها تدفع ثمن شئ لم تكن فى أية لحظة مسئولة عنه، وتذهب ضحية عرف اجتماعى لم تكن هى صانعته، و لأنها تعيش فى مجتمع يؤمن بأن الزواج قسمة ونصيب، فكان عليها أن تظل واضعة يدها على خدها إنتظاراً لتلك القسمة، وتمنياً لذلك النصيب، ولكنها لم تكن تعرف أن القسمة هى قسمة يأخذ فيها الرجل كل الكعكة، ونصيب لا يصيب برذاذه الطائش وشظاياه الحارقة سوى جسد وروح إمرأة.

* * *

فهرس

الفصل الثاني





مازلت أحلم بكتاب لكل مواطن. ومكتبة فى كل بيت. لأن الثقافة هى وسيلة الشعوب لتحقيق التقدم والتنمية بما لها من قدرة على تحويل المعارف المختلفة إلى سلوك متحضر وإعلاء المثل العليا. وقيم العمل. وإشاعة روح التسامح والحرية والسلام التى دعت إليها جميع الأديان. وتكوين ثقافة المجتمع يبدأ بتأصيل عادة القراءة وحب المعرفة. وستظل وسيلة المعرفة الخالدة هى الكتاب الذي يساهم فى إرساء دعائم التنمية وتحقيق التقدم العلمى المنشود.

سوزان مبارك







ISBN 9774199693
6 221149 003927